المحتوى

مقدمة 9

القسم الأول

سؤال العلم، وسؤال العمل

القسم الأول: سؤال العلم، وسؤال العمل 13

في البدء كان السؤال 15

سؤال المرحلة، مرحلة السؤال 17

سؤال الحيرة، حيرة السؤال 21

الشلال الأبدي 25

الضمير 27

الذات 29

المعرفة / السلطة 31

سؤال الكتابة: العُضال المحموم 35

أن أبلُغ مقام الرشد، وكفى! 38

ما بعد بؤرة تفكيري، وخطِّي المنهجي 42

الأصوات المنبعثة من القبور تقول الحقَّ بإخلاص 47

من سياسة إطفاء الحرائق إلى التخطيط الاستراتيجي المؤيَّد 53

الكوميديا الإنسانية 58

القسم الثاني

في الحضارة، والثقافة، والمعرفة

القسم الثاني: في الحضارة، والثقافة، والمعرفة 63
الحقيقة والصورة: سؤال الوجود، وسؤال المعرفة 65
قانون الحركة، ومنطق الحضارة 68
متى تخلف المسلمون؟! جدلية الجوهر والعرَض والمنهج 76
التفكير المزدوج، والواقع الأعوج 79
المعطى الكوني، تلازم الهمِّ والهمِّ 81
من موشور «القواعد الكلية» 85
اللغة والإرادة 89
الصلاة: شفرة الحضارة 93
السباق المحموم (من الإشاعة إلى الفعل المؤيد) 96
في نقطة الانعطاف: ابن سينا مرجعاً 99
الطفل والمدينة (الخَلق، والحرية، وخاصية الخلود) 102
الاجتهاد، والحرية، والتسليم لله: الثلاثية المتلازمة 108

القسم الثالث

حركية الفكر والفعل، والمتحد العلمي

القسم الثالث: حركية الفكر والفعل، والمتحد العلمي 117
نظرية الانبثاق، وحتمية التواصل 119
حتَّى لا يتعفَّن الجُبن 125
ترى، هل يتحقق الحلم؟! 129
الجماعة العلمية، وسؤال العمل: دعوةٌ واستدعاء 132

السياق الخصب في الجزائر: حقل جهادنا، ووجهة نظرنا 135
طائر البطريق: رسالة مفتوحة إلى حلقة الدرس المباركة 139
استدعاء إلى الاجتهاد: «علوم الصلاة» نموذجاً 143
مساءلةٌ حول النموذج من موشور: «لا تحزن إنَّ الله معنا»..... 145
من الحَفر... إلى التحليق في سماء المعنى 151
ما أنتمُ وسواكمُ بسواءِ..... 155
حيث الأمل يولد من جديد 160
من للجزائر غيرُكمُ..!؟ 1167

القسم الرابع
في التربية، وبناء الإنسان

القسم الرابع: في التربية، وبناء الإنسان 175
مقام الرضا، والانفتاح على الحياة 177
يا معلِّمي العالَم، ارشُدوا..... 180
يا ساهر الليل... قم الليل 190
الحياة والفن..... 194
الخوف المتأرجح بين «قانون المالية» و«الثقة في الله»..... 199
البوهيميون الجدد: مقال في دور التعليم والمعلّم 202
وهْمُ الاكتمال، وحبُّ التملك 205
«مانيفستو» المدارس العلمية (البيان الرسمي) 210
أيها الذبيح الصاعد ... بشرى 205
إذا رجعوا إليهم..... 221
بهذه المعاني أدين، وعليها ألقى الله 222

عواقب الفتن (بيان لمن ألقى السمع وهو شهيد) 224
بخٍ بخٍ، هي ذي ريح الجنة تلوح في الأفق! 229
فرصة أخرى، وبركات تترى 234
عيد بطعم «حسبنا الله ونعم الوكيل» 236
كل عام وضمائرنا بخير 239

القسم الخامس
نحن، والآخر

القسم الخامس: نحن، والآخر 243
شمعة من الغرب، وبيانٌ قد يوقظ الشرق 245
هل يمكن لمواطنٍ فرنسيٍّ مثاليٍّ أن لا يكون متعصِّباً؟ 252
الاستهلاك... مِن هلك، يهلِك، هلاكاً: الحرم الشريف عيِّنةً 258
وصفة سريعة لصناعة العميل 262
المنبوذون: هؤلاء المسلمون الذين لم تعد فرنسا ترغب فيهم 264
ولسوف تُسألون؟ Hebdo Sharlie 269
أريج من غصن أندلس الرطيب 272

الملاحق والمسارد

رسالة وجواب مع الأستاذ محمد عدنان سالم 277
مسرد المصطلحات والمفاهيم 281
مسرد المصطلحات 283
مسرد الأسئلة 293
مسرد القواعد الكلية 301

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

عجيبة هي أقدارُ هذا الكتاب، وأعجب منها هذه العلاقة التي تربط ما يحويه من أفكارٍ إلى مهندس الحضارة «مالك بن نبي»؛ فلقد جمعتُ أوَّل ما جمعتُ المقالات الفكرية المعرفية الحضارية، التي صاغتها مرحلةٌ من الحراك ضمن «**نموذج الرشد**»، وما والاها من قبضٍ وبسط، من قبولٍ ورفض، من إحجامٍ وإقدام؛ ثم لما اكتمل بناءُ المؤلَّف، جاء ما يحويه حول «مالك بن نبي» داعياً إلى فصله في عنوانٍ مستقلٍّ، هو الآن ينتظر النشر في سفرٍ خاصٍّ بحول الله تعالى[1].

غادر بنُ نبي الزمان والمكان، كما غادر سفوحَ هذا الكتاب؛ لكنَّه مع ذلك بقي بروحه المختلفة، وبعقله المميَّز، وبفكره المرجعيِّ، وبهمَّته واحتراقه... بقي ولم يُغادر، فكنتُ كلَّما أقرأ فقرةً أشاهدُ ملامحه ظاهرةً، وأتبصَّر رحِماً وشِيجاً بيننا؛ هو فيه الوالد وأنا الولد، هو المعلِّم وأنا الطالب، هو المرشد وأنا المريد...

هكذا، ولد كتابٌ تحت مسمَّى (**تيهٌ ورشادٌ**)؛ والحقُّ أنَّ بن نبي كتب في الستينيات من القرن المنصرم، سلسلة مقالاتٍ حول الصراعِ الفكريِّ؛ ونشرها في «مجلة الثورة الإفريقية»، وجمعها ثم عاين ترجمتها قُبيل وفاته بعامٍ؛ واختار لها هذا العنوان المثير: (**بين الرشاد والتيه**)؛ ثم صدرت ضمن حلقات (**مشكلات الحضارة**).

(1) كتاب خاص بفكر بن نبي، هو طور المراجعة ليقدم للنشر قريباً إن شاء الله تعالى.

لا تزال هذه المقالات تهدي القارئ المتبصِّر إلى خفايا الفكر، وتحرِّك فيه خبايا القلب، وتُرشده إلى نافِع العلم وصالح العمل؛ كلُّ ذلك بنفَس مؤسَّسٍ على أصول منهجيةٍ فكريةٍ، تنطلق من نظرية «**القابلية للاستعمار**»، و «**العوالم الثلاثة**»، و«**فكرة التوجيه**»، و«**حقيقة التغيير**»... وغيرها من المفاهيم والنظريات التي لم تفقد فعاليتها، إلَّا أنها لم تلقَ بعدُ من العناية الكافية ما بها، تتحوَّل إلى واقعٍ وحركية تليق بمقام الرجل وبحاجة أمَّته؛ عنايةٍ ترقى بنا إلى مصافِّ الشهود الحضاري المنشود.

مِن وحي فكر بن نبي إذن، نصوغ جملة من المعالجات الحضارية، نختار لها عنواناً ينبثق من نظرية «**القابلية للرشد**» المكمِّلة لنظرية «**القابلية للاستعمار**»؛ ضمن ما عُرف بـ«**نموذج الرشد**»؛ ذلك النموذج الجمعيُّ، الذي يستعير مِن رواد الفكر والحركة في عالمنا المعاصر معالمه؛ ويُلقي بفتيله وجذوره في محبرة القرآن الكريم، وسنة النبي الحبيب عليه أفضل الصلاة والتسليم.

«**نموذج الرشد**» لا يُقصي شيئاً إلَّا الإقصاءَ نفسَه؛ فهو يرفض «**الاختزال**»، ويقوم على أسس «**اتّباع الأسباب**»، و«**سداد المسلك**»، و«**الصدقية**» معياراً خُلقياً ومنهجاً؛ أمَّا «**سؤال الأزمة**» في قاموسه فيرتكز على «**جدلية العلاقة بين الفكر والفعل**»؛ تلك الجدلية التي كان بن نبي، وغيره من «**المفكرين المصادِر**» يحملونها همّاً، ويردِّدونها همَّة؛ فما يحويه هذا العمل يجري مجرى «**الاتّباع واقتفاء الأثر**»، ولذا ساغ أن يُطلق عليه اسمٌ معبِّر عن المحتوى، وعن المرحلة، وعن بؤرة التفكير، وعن سؤال الأزمة، وهو: «**تيهٌ ورشاد**».

وللنكرة عند النُّحاة معناها البلاغي العميق؛ كونها الأصل والمعرفة فرع عنها، وهي كذلك تفيد العموم والشمول، والمعرفة تفيد التخصيص والتعيين.

إلَّا أنَّ بن نبي وظَّف الصيغة المعرَّفة في مرحلة كان «**التيه**» فيها معرَّفاً مشخَّصاً، وكان «**الرشاد**» كذلك معلوماً معيَّناً؛ أمَّا مع توسُّع الخرق، وابتعاد الشقَّة عن

سبيل الحقِّ، واختلاط الأمور على العاقل اللبيب؛ واستحكام نظريات الفوضى، واللامعنى، وغياب المعيار، والمصلحية المفرطة، وموت الأفكار، ونهاية التاريخ، والبوهيمية الجديدة... كلُّ ذلك أوجب الانتقال إلى صيغة النكرة: «**تيهٌ**»، في حال الهدم والفساد، وأوجب البحث عن الأصل والشمول والعموم: «**رشادٌ**»، في حال البناء والصلاح.

يأتي هذا الكتاب ـ إذن ـ مكمِّلاً، لما بدأه أستاذي بن نبي، ومَن معه من هُداة الأمَّة وروادها، وهم كثر، والحمد لله.

****

ولا أملك أخيراً إلَّا أن أحيِّي رجلاً لطالما تحينت الفرصة لأقول له (أو بالأحرى عنه) كلمة حقٍّ لا تبرح ولا تريم؛ ذلك الرجل الذي عرَّفني بالفكر الراشد في صمت الحكيم الموقِن، وفي حركية الصادق المؤمِن؛ إنه أستاذي محمد عدنان سالم[1]، ومن خلاله «دار الفكر» الخالدة؛ التي لها فضل على كلَّ مثقف بِلغة الضاد، متَّبع للسبيل الوسط.

تلك الدار العامرة التي نشرت لأعلام كُثر، منهم: بن نبي، وبيجوفيتش، والمسيري، والبوطي، ومحمد خاتمي، وشوقي أبو خليل، وجودت سعيد، وجيفري لانغ... منهم من لقي ربه، ومنهم من ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً.

****

ولا أملك إلَّا أن أحيل إلى معنى سرمديّاً، وفي فؤاد كلِّ قارئ كريم حُرقة تدفعه ليتجاوز ذاته، وضميرٌ يوقظه ليرشُد فكراً وفعلاً، ويقينٌ في الله تعالى لا يتزعزع

(1) ينظر ـ الملحق: رسالة وجواب، مع الأستاذ محمد عدنان سالم، تحمل روح المرحلة، وتعبر عن أفكار صادقة؛ إذ ليست العبرة بالحدث، ولكن بالأسباب التي تحكم منطق الأحداث، وترسم حركية التاريخ.

في اقتراب النصر، وحسن ظنٍّ في قدره الكريم أنَّ مع العسر يسراً، وأنَّ مع العسر يسراً.

يقول مالكٌ، عليه شآبيب الرحمة:

«من حُسن الحظِّ، أنَّ زمان المغالطة والمزاح قد انتهى؛ لأنَّ عهد المحنة قد حان، ولعلَّها تنضُج ضمائرُنا. فالشكر للقدَر على المصائب تُصيبُنا، إذا كان بها صلاح أمرنا»[1].

محمد باباعمي

الجزائر، 7 جمادى الثانية، 1437هـ

16 مارس، 2016م

(1) بن نبي، بين الرشاد والتيه؛ ص136. نشر الكتاب ضمن برنامج دار الفكر «عام مالك بن نبي» سنة 2006م. بعنوان: «مشروع حضاري فعَّال».

القسم الأول

سؤال العلم، وسؤال العمل

في البدء كان السؤال

هل يختلف اثنان أنَّ العالم بشقَّيه الشرقي والغربي يمرُّ بأزمات متوالية، تتصاعد وتتسارع بشكلٍ أسيٍّ، في متتالية رياضية، لا يملك الإنسان لضعفه القدرةَ على أن يراقبها ويدرسها، بلْه أن يجد لها الجواب النهائي الشافي؟

وهل يتفق اثنان في توصيف الأزمة وتشخيصها، وفي سرد خصائصها ومظاهرها، وفي رسم صورتها، وفي تعيين أسبابها، بلْه أن يتفقوا على نوع المعالجة والدواء الناجع؟

وهل وفَّرنا الوقت لقلوبنا حتى تحسَّ نبضات قلب الأمَّة، ولعقولنا حتى تفهم منطق العصر؟

أم أنَّ التسارع والاشتغال الزمنيَّ والهرولة... كلُّ ذلك أدخلنا في دوامة التبِعات اليومية، فاقدين إرادتنا على أن نقول، وإرادتنا على أن نفعل؟

إذا كان توفير الغذاء مسؤولية المزارع، ومداواة المرضى مسؤولية الأطباء، وبناء العمارات مسؤولية المهندسين والبنائين؛ فشأن الحضارة يقع على عاتق من: المثقفين، السياسيين، عامَّة الناس، الجميع...؟

حتى لو اتفقنا على صنف من هذه الأصناف، المثقفين مثلاً، فكيف نعرِّفهم؟ وكيف نحدِّد دورهم؟ وكيف نضبط وفاءهم ونكتشف خيانتهم[1]؟

يقولون: «في البدء كان الوعي»[2]، ولكن هل يمكن للوعي أن يولد إذا غابت

(1) انظر ـ إدوارد سعيد: خيانة المثقف.

(2) انظر ـ سيد حسين نصر: في البدء كان الوعي؛ مقال مترجم، ترجمة محمد باحريز؛ بوابة فيبكوس.

«شعلةُ السؤال» من الفكر، ومن المدرسة، ومن النماذج الإدراكية للبشر؟

هذا الكمُّ الهائل من الكتب والمؤلَّفات، ومن المقالات والتحقيقات، هل يُسهم في الغوص في «سؤال الأزمة» حقّاً؟ أم أنه يشتت السؤال إلى أسئلة لامتناهية؟ أم أنَّ السؤال يغيب من منطقها غالباً؟

ذلكم هو التحدِّي المعرفيُّ والحضاريُّ اليومَ، فلْيولد السؤال من رحم المكابدة والمجاهدة، وليكن السؤال عنوان غدونا ورواحنا، وسبب حِراكنا أو سكوننا، ودليل محيانا أو مماتنا... وليكن كلُّ سؤال سبباً من أسباب الحضارة لأمتنا، وباباً من أبواب قربنا من ربنا سبحانه.

سأل المهاجرون عمر بن الخطاب، ﷺ: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ قال: «ذاكم فتى الكهول، إنَّ له لساناً سَؤولاً، وقلباً عقولاً».

سؤال المرحلة، مرحلة السؤال

حين أكون فريداً شريداً، تراودني أسئلة الوجود، وتحملني على النظر مليّاً في عين الحقيقة: هل لا تزال صافية، على فطرتها؟ أم أنها تكدَّرت، أو أنَّها غارت، بل لعلَّها فارت؟ ولا أجد القدرة على الجواب إلَّا بحوار الذات، ومحاورة الضمير، بهدوء وسكينة:

لكن، أنى أجد السكون؟ وأنى تواتيني السكينة؟ وأنا القشة المرمية من علٍ على أمواج الحياة الصاخبة... أنا ورقة الخريف الجافة، تتلاعب بها الرياح، ويرميها الهبوب كلَّ مرمىً...

لا أذكر يوماً أنني ركنتُ إلى المحطَّة الأخيرة، أو أنني اعتقدتُ النهاية، أو أنني أعلنت ميلاد الراحة الكبرى... فكلُّ فكرة هي بداية، وكلُّ عمل هو بداية البداية، وكلُّ مشروع هو خميرة لما يليه من مشاريع، في متتالية لا تنتهي أبداً، ولا تلقي عصا التّرحال أبداً... «**إلى يوم يُبعثون**».

مِن ثمَّ جاءت فكرة «البذرة» لتصوغ المعنى صورةً تعبيرية واضحةً؛ أمَّا الحصاد فلا يكون إلَّا يوم الحصاد الأكبر... وأمَّا الحفر، والبذر، والسقي، والعناية، والرعاية، والمعاناة... فهي مِن حظِّ هذه المرحلة، بل هي زخرُفها وزينتها، لو تصوَّر زوالها لكان دليلَ زوالها.

أقوم كلَّ صباح، باكراً، والناس نيام؛ وأتوضأ، ثم أصلي ما شاء الله لي أن أصلِّي؛ وحين أعود إلى نفسي أحاسبها، أجد أنَّ «أرباب المستوى» لم يناموا البتة، وأنَّ مِنهم من قام الليل كلَّه، نصفه، ومنهم من زاد عليه، ومنهم من أنقص... لكنهم

جميعاً أشدُّ حزماً مني، وأكثر عزماً مني... فأبكي حالي، وأندب كسلي... وأعضُّ أناملي حسرة وكمداً...

وحين آوي إلى الفراش ليلاً، أستعرض شريط يومي، لحظةً لحظة، دقيقة دقيقة، ساعة ساعة... أكتشف الفراغ المميت، وألاحظ انسياب ماء الحياة من الثقوب المحفورة على أنبوب يومي، فيضيع مني الخير الكثير، وينتهي المحصول إلى قطرات قليلة، وأحياناً إلى جفاف... كأنَّ اليوم يوم هدرٍ، لا يوم بذرٍ... فيزداد ألمي، ويتبخر أملي... فأنادي بأعلى صوتي: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: 39/ 56].

غير أنَّ «**سؤال المرحلة**» اليومَ يقودني إلى «**مرحلة السؤال**»، فأجدني قد حييتُ حياة ثانية؛ إذ لم أستسلم لداعي القنوط واليأس، ولم أتشبث بأهداب الفرح والزهو؛ وإنما أنا بين خوف ورجاء، بين كبد واسترخاء... أستمدُّ العون من الجليل، وأدعو الحُسن من الجميل... يا جليل، يا جميل... هذا أنا كما أنا، أتحرَّى الصدق مُرافَعة، وأهرب من الكذب على الذات وعلى الوجود وعلى الناس مكابدةً...

كلي رجاء، أن تكون المرحلة؛ مرحلةُ السؤال؛ هي محطُّ نظر الله تعالى، وهي التفسير الحرفي لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 29/ 69]، فالسؤال في وقته، بصيغته، ووضوحه، وأهميته، وغايته، ومقصده... جهادٌ ومجاهدةٌ... والجواب، حين يكون سريعاً، مختزلاً، هزيلاً... هو عين الخيبة والخسران...

فيا ربِّ اجعلني من أهل السؤال؛ فالدعاء سؤال، والسؤال دعاء... وقد قلتَ وقولك الصدق: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا﴾ [الفرقان: 25/ 77].

المرء مَهما علا شأنه أو سفُل، مَهما طال عُمره أو قصُر، مَهما امتدَّ أثره أو انحسر... هو ابن عصره وزمانه وبيئته، أي هو ابن «وعائه الحضاري»، بإيجابياته وسلبياته،

بحُلوه ومرِّه، بانتصاره وانكساره؛ ولذا فليس علينا أن نسخط أو نضجر أو نناطح القدر، إذا كتَب الله لنا أن نوجَد ضمن سياق حضاريٍّ مهترئ، تتوالى هزائمه وتندُر إنجازاته، يكثر شرُّه ويقلُّ خيره، يعذَّب صاحبه ولا يملك صَرفاً ولا عدلاً...

كما أنه ليس مِن حقِّنا أن نفرح، إذا ما بدا الارتقاءُ في الأفق، وإذا ما أعلنت الطيور تنفُّس الصبح على سفوح المكان وربوع الزمان...

لماذا؟

ذلك أنه في كلا الحالين: حال الإيجاب، وحال السلب؛ حال الفقد، وحال الوجد... في كلا الحالين ثمة «ناس»، «بشر»، «رجال»، «نساء»، بل و«أطفال أبطال» يصنعون الفارق، ويتحدّون الموج، فيَصلُحون حين فساد الناس، ويمتنعون إذا ما تهوَّر الناس، ويقولون الحقَّ يوم يكذِب الناس، ولا يتلوَّنون كما يتلوَّن رعاع الناس؛ هؤلاء هم «الأوتاد»، و«الرواسي»، وهم «صمَّام الأمان» للأمم والمجتمعات؛ فإذا زالوا أو أزيلوا انجرفت التربة إلى قاع «الرداءة» و«النفاق» و«الدونية» و«الهوان».

وسؤال المرحلة هو: كيف نثبت على «الاستقامة»؟ وكيف نَقبل أن نشيب في طِلابها أسوةً بسيِّد الخلق ﷺ، يوم قال: «**شيبتني هود وأخواتها**»؟ وما ذلك إلَّا أنَّ ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود: 11/ 112]، هي روح الصورة وهي قلبها؛ فليست الكرامةُ أن نمشي على الماء، أو نحلِّق في الهواء؛ وإنما الكرامة أن نثبت على الاستقامة، كما قال يوماً أحد الحكماء.

غير أنَّ أشدَّ المعاني وُعورة، في تقديري، ليس هو ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، وبخاصَّة في حقِّ الرسول ﷺ، الذي وُهِب الحكمة والخلق، والعلم والعمل، والتوفيق والمعية؛ وإنما أصعب المعاني تحقيقاً هو ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ أي أن تحمل مَن معك على الاستقامة، وتهديهم إلى الاستقامة، وتجمعهم على طريق

الاستقامة، وتجعل مِن الاستقامة سماء لهم وأرضاً، نهاراً لهم وليلاً، إقامة لهم وظعناً، ماضٍ لهم ومستقبلاً، علماً لهم وعملاً... أي أن تصبغ مَن معك بصبغة الاستقامة، وهي صبغة الله التي صبغ الناس عليها. ثم هم بعد ذلك لا يطغون، ولا يتجبرون، ولا يظلمون، ولا يجورون...

ولذا، أتوجه بالسؤال لكلٍّ من رضي القرآن إماماً، واتَّخذ الرسول (ﷺ) إماماً، أتوجَّه بالسؤال الآتي، وأخصُّ من الجميع مَن وعى بُعد «الرشد»، وحرص على نيل سُبل «الرشد»، وردَّد على إثر الجنِّ يوم قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: 72/ 1-2]...

أتوجه بالسؤال الآتي:

كيف تتجاوز «ضغط الواقع» وتتحمَّل «ضريبة الواقع»، وتسبَح ضدَّ «تيار الواقع»، وتبذل قصارى الجهد في تصويب «مسار الواقع»، مهما كان صعباً، محنة، فتنة؟

كيف تتجاوزه لتصنع الأملَ من جديد، وتدعو إلى الاستقامة، وتثبُت عليها، ولا يعنيك بعد ذلك أَقالَ الناس أم سكتوا، أقدَّروا جهدك أم تنكَّروا؟

كيف تكون حريصاً على أن تراقب «أين تقع عين الله منك»؟ أمِن ناحية الرضا، أم من جهة السخط؟ هل هي تمثُّل لاسمه العظيم الهادي؟ أم هي ظلّ لاسمه الجليل المضلُّ؟ أهو سبحانه معك، أم أنك متروك لذاتك وللأسباب، باختيار منك؟

لا يكون الجواب إلَّا عملاً بعد علم، وألماً يحدوه أمل، وصدقاً يمزِّق غشاء الظلمة، ويخترق السحب الثقال؛ ليرتفع إلى ربِّ الجلال والجمال، سبحانه، بموجب: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 35/ 10].

موعدنا، بحول الله، النصر أو الشهادة، فاللهمَّ لا تخيِّب ظننا، وبالحقِّ رضِّنا، وعن الباطل دُعَّنا... ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، يا ربَّ العالمين... آمين.

سؤال الحيرة ، حيرة السؤال

طالعتُ مع أخي العزيز، الدكتور طه كوزي، كتاباً بعنوان: (العرب وجهة نظر يابانية) للمستغرب الياباني «نوبوأكينوتوهارا»، فغُصنا سويّاً في منظور جديد، لم يتسمَّم بعدُ بالتعالي الاستشراقي الغربي، ولا بعقدة الدونية اللصيقة بالمثقف العربي غالباً؛ وإنما كان شهادةً صادقةً، صريحةً صادمةً، أمْلتها الفطرة، وصبغها الحبُّ والاحترام؛ فتعلَّمنا مِن الكتاب درساً صعب الهضم، لكنه حقيقة مرَّة، لخّصها في قوله:

«لكي يفكِّر العرب في المستقبل، فإنني أرى أنَّ هناك مشكلة لا بدَّ أن تحلَّ لكي يتمكَّنوا من العمل على حلِّ مشاكل المستقبل. هذه النقطة هي مركز كتابي هذا، وأرى أنَّ مشاكل كثيرة تخرج من هذه المشكلة: القمع. القمع مرض عضال ومشكلة أساسية في المجتمع العربي».

ثم شاء الله تعالى، لظروف ذاتية، تتعلَّق «بلغو الصيف» وبتمدُّد الزمان أوان العطل؛ شاء الله أن أشاهد مع جماعة شريطين وثائقيين، الأول عن «كوبا»، في أمريكا الجنوبية؛ والثاني عن «دول البلقان»، في قلب أوربة؛ والحال أنَّ مشاهدة التلفاز، بخاصَّة في جماعة، نادرٌ جداً في حياتي، بل لعلَّه مستحيل إلَّا في ظروف استثنائية.

وعن الشريطين كان لنا انطباع واحدٌ، وهو أنَّ كلَّ المناطق التي صوِّرت، في الجغرافيتين الفقيرتين؛ الأمريكية والأوروبية؛ على السواء؛ كلُّها كانت نظيفة، جميلة، مرتَّبة، رغم القِدم أحياناً، ورغم الْتهام السواح والانحلال لبعضها أحياناً أخرى؛ أي أنَّ النظافة هي القاسم المشترك بين «كوبا والبلقان».

وكَتب الله أن نتجوَّل معاً في بعض شوارع العاصمة، وأن ندخل أحياء مغلَقة وأخرى مفتوحة؛ ونعايِن الوسخ، والفوضى، وانتهاكَ حرمات الجيران، وغياب الجمال والتنسيق، وبروز الأنانيات على شرفات المباني وحول مزابل الديار... كلُّ ذلك زادنا حيرة، وهو طبعاً مشهدٌ نعايشه كلَّ يوم... بل، ولا تزول عن ذهننا صورة عَرفة، أو المزدلفة، وهي أقدس أرض الله؛ غير أنها بفعل فاعلٍ جاهلٍ تصير يوم الإفاضة من عرفة مزبلة، لا تخطئها الكاميرات، ولا تخفى على أحد... يا حسرتنا... ثم يا حسرتنا... وديننا من ذلك براء.

****

مِن هنا، ومن هذه النقاط الثلاث، جاء سؤال الحيرة...

من هنا، ومن هذه المقدمات الثلاث، أصابنا عضالٌ اسمه «حيرة السؤال»، ينقسم إلى شقين اثنين:

الشقُّ الأوَّل: يقرر علماء الحضارة، منهم علي عزت بيجوفيتش مثلاً، أنَّ كلَّ خُلق مرجعه ديانة ووحيٌ، حتى ولو كان صاحبُ الخلق ملحداً، ذلك أنَّ الأخلاق غير مفهومة مع غياب الدين. ولكن، لنا أن نسأل: اليابان ليس لها دين، والمؤلف «نوبوأكي» نفسه يقول: «في اليابان فكرة الله واحد بعيدة عن إدراكنا»؛ كيف يفسَّر إذن المستوى الأخلاقي للفرد الياباني مع غياب الدين؟ وكيف يفسَّر فساد الأخلاق بعامَّة، لدى الفرد العربي المسلم؟ وكيف نفهم احترام كرامة الإنسان، والاعتراف بحقِّه في الحياة، هنالك؟ في مقابل اعتقاد ضرورة اغتيال «الآخر المختلف» بشتى الطرق البشعة والظالمة، هنا؟

الشقُّ الثاني: كيف نفهم الوسخ الملازم للإنسان العربي (المسلم)، وللشارع العربي (المسلم)، وللمدينة العربية (المسلمة)، من طنجة إلى جاكارتا؛ مع استثناءات تعود إلى ظروف عولمية غير طبيعية في بعض البلاد الثرية الصغيرة؟

وكيف نفسِّر النظافة الملازمة للفرد «الكوبي»، والشارع الكوبي، والمدينة الكوبية؛ رغم أنَّ كوبا كانت شيوعية، فقيرة، ولا تزال؟ والسؤال ذاته عن البلقان، التي هي محور صراعات وحروب لم تنقطع، ومع ذلك فهي نظيفة وجميلة؟

****

طبعاً، المسلَّمة المحورية، تبرِّئ ساحة قرآننا، ونبيِّنا، وديننا الإسلامي الحنيف؛ الذي أمَر بالنظافة، وربى الناس عليها عبر القرون، وأخرج حضارة تتسم بجميع أنواع الجمال والفن والنظافة.

يبقى الاتهام إذن موجهاً إلى «محطِّ الرسالة»، إلى «الإنسان»، إلى «المجتمع»، إلى جميع الفاعلين المسؤولين أمام الله والتاريخ؛ لكن، لماذا لم يَصقل ذوقَهم دينُنا الحنيف؟ لماذا لم يتعلَّموا مِنَ التوحيد الكرامة والحبَّ، ومن الوضوء النظافة، ومن الصلاة النظام، ومن الحج العالميةَ والاتفاق، ومن الزكاة الرحمة والشفقة والكفالة الاجتماعية؟

طبعاً، يمكن للمرء أن يختزل السؤالين، ويمكنه أن يستعجل الجواب؛ غير أنَّ «تحرّي الصدق» خلقاً ومنهجاً، كفيلٌ بدفعنا إلى معالجة الداء في عمقه، والغوص في المشكلة إلى قاعها؛ وإلَّا كان التبرير غِشاء بيننا وبين حقيقة التغيير، التي أمر الله بها في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 13/ 11].

****

الدعوة قائمة للإسهام في حلِّ المعضلة، ولو جزئياً، أي في حدود الفرد الواحد، والبيت الواحد؛ غير أنَّ المرفوض هو أن نقود خطاباً أجوف، خالٍ من التمثُّل الخلقيِّ والعمليِّ؛ والله تعالى ينهى عن فصل القول عن العمل: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 61/ 2]، ويعتبر ذلك مقتاً، والمقت في القرآن وصفٌ للكفر

وللفاحشة ولفصل القول عن الفعل، فقال جلَّ من قائل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 61/ 3].

ربما وافق البعض الكاتب الياباني، واعتبر «القمع» هو أصل الداء؛ أي بلغة الكواكبي أنَّ «الاستبداد» هو محور جميع المشكلات والانحرافات؛ وربما ذهب البعض مع مالك بن نبي إلى أنَّ «القابلية للاستعمار» هي الحالقة، وهي المصيبة الكبرى؛ أو ربما ذهب البعض مع «نموذج الرشد» إلى أنَّ «انفصام القول عن الفعل» هو «سؤال الأزمة»، وهو جوهر المعضلة الحضارية اليومَ.

بل، ربما كان للبعض رأي آخر؛ إلَّا أنَّ المطلوب ليس هو الرأي النشاز، وإنما الرأي الفعَّال الفاعل... الرأيُ الذي يبدأ في مستوى صاحبه، لينتقل إلى أسرته وبيئته ومدينته ووطنه وعالمه... وإلَّا فلا حاجة لنا إليه... وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: 37/ 24].

الشلال الأبدي

هي النفْس مثلَ شلالٍ أبديٍّ، تحطُّ على القلب مِن علٍ، وتغمرُ العقل مِن كلِّ جانب... فتقيِّد الجوارح، ثم تذرُها سكوناً بلا حراك... تُسائلها ـ مرَّة أخرى ـ عن المسير، وعن المصير؟ عن المعنى، وعن المبنى؟ عن الجهد، وعن التفريط؟ عن الإنجاز، وعن الإخفاق؟ عن الصواب، وعن الخطأ؟

ها هي ذي «نفسي الواهنة» تغوص رويداً رويداً، إلى القاع القصيِّ، إلى حيث تصل كلَّ شيء بـ «أسئلة الوجود»، وتربط كلَّ أمر بـ «رؤية الكون»، فتبحث في كلِّ أمر عن «الله»، وعن «الماوراء»... ثم عن «النفس»، وعن «الذات»... وتنهي شوطها الأخير، مع «الناس»، ومع «الكون...».

بلوغ حال «السعادة المطلقة»، و«الاستقرار التام»، و«السكون الهادئ»، و«الساعات الوردية»... كلُّ هذا ليس مُرادي، ولا هو في حسابي؛ ما دامت الحياة «كبداً ومكابدة»، وما دام الامتحان والابتلاء سبب وجودي ووجود العالم من حولي؛ ومن ثم فلا أُحسن التجديف على بحر خامد بارد كسول؛ ولكنني أسأل الله دوماً أن يأخذ بيدي لخوض غمار البحور الهائجة المائجة الموّارة.

ولكن صدقاً لا أقدر على ذلك دون عناية ورعاية من ربي الكريم، ومن إلهي الرحيم.

ومَن يدري لعلَّ الله استجاب لدعائي، وها نحن في كلِّ المستويات نتجرَّع الغصص، ونُبتلى بالمحن، ونُغتال ثم نولد كلَّ يومٍ مرات ومرات؛ وما ذلك إلَّا أنَّ كلَّ روح وكلَّ نفَس من أرواح وأنفاس إخوتي، في مشرق الأرض ومغربها، هي

روحي، وهي نفَسي التي تصاعد في حشاي:

أحسُّ ما يحسُّون، وأجد ما يجدون...

أتألم حين يتألمون، وأفرح حين يسرُّون...

ولا أبالي.

نعم، مرة أخرى أردّد: «هي النفْس مثلَ شلال أبديٍّ، تحطُّ على القلب مِن علٍ، وتغمرُ العقل مِن كلِّ جانب... فتقيِّد الجوارح، ثم تذرُها سكوناً بلا حراك... تُسائلها ـ مرَّة أخرى ـ عن المسير، وعن المصير؟ عن المعنى، وعن المبنى؟ عن الجهد، وعن التفريط؟ عن الإنجاز، وعن الإخفاق؟ عن الصواب، وعن الخطأ؟»

فاللهم عينك ورعايتك وعنايتك ويدك... أطلب وأسأل وألح...

فلا تردني خائباً حسيراً، وحاشاك أن تفعل... يا رحمن يا رحيم...

الضمير

قد تواتيك لحظات في عمركَ تجلسُ فيها إلى نفسك، وتحاور فيها ذاتَك، بلا واسطة ولا اشتراطِ موعدٍ مُسبَق؛ حينَها تتفجَّر في أوردة وعيك منابعُ الأسئلة بلا هوادة، فتستعيد شريط حياتك ساعة بساعة، يوماً بيوم، عاماً بعامٍ، ثم تسَّاءل بصوت جهور:

تُرى هل وفِّقتُ في ركوب نهر الزمن؟ أم أنني ترنَّحت وانحرفت عن الخطِّ؟ كم مرَّ من عمري، وكم بقي منه؟ وهل سيُكتب لي حسن العاقبة، أم أنني أفتن في آخر منعرج من حياتي؟ وهل كان لوجودي في الحياة أثرٌ في الخلق، نفعاً وبرّاً وإحساناً؟ أم أنني كنت ولا أزال عالة على العالمين، ضيفاً ثقيلاً على الثقلين؟ ولو خيِّرت بين حياتي هذه، وحياة جديدة أقودها، هل سأرضى بما أنا عليه، أم أنقم منه؟

ولكنَّك ـ أيها اللبيب ـ لو استسلمتَ لتسارع الزمن من حولِك، ولم تحاول الإصغاء لوقع الخطا المهرولة مِن حولك؛ فإنَّ تيار «العادة والروتين» سيجرُّك بعيداً، ولا يكون ذلك مرَّة واحدة، ولكن رويداً رويداً... وإنَّ إعصار «الملل والقلق» سيرمي بك طريداً شريداً، لا يلوي على شيء، ولا على أحد... ولن تسطيع منه فكاكاً ولا معه حِراكاً...

فاختَر أيَّ السبيلين تسلُك، ولا تذر الفُرُط، ولا السبهللة، ولا العفوية تصبغ فكرك وتلوِّن فعلك؛ ذلك أنك قد تكون ـ يومها ـ فقدتَ أهمَّ خاصيَّة من خواصِّ الإنسان السويِّ فيك، خاصيَّة «الإرادة»، فتصير عبداً لأيِّ أحد، وظلاًّ لأيِّ شيء، ثم تهون وتخون...

يفهم البعض أنَّ مراجعة الذات، ومحاورة الداخل، هو نوعٌ من القسوة، وهو عنوانٌ للقلق؛ والصحيح أنَّ الغفلة عن المراجعةِ والمحاورةِ هي القسوةُ بعينها، وهي الدليل على الاضطراب والقلق والفراغ؛ ولذا كانت لحظاتُ الجلوس والخلوة مِن أزكى أزمان العمر على الإطلاق وأطهرها، ولذا كانت الأوقات التي تعقب التأمُّل والمحاسبة الذاتية أحبَّ الأوقات إلى القلب إجمالاً وتفصيلاً، بل هي السعادة بلحمها وعظمها...

فمن لم يتعلَّم الإصغاء إلى لسان ضميره أسمعَه الزمن ضجيجاً صاخباً، ودوَّخه المكان باهتزازات لا فِكاك له منها.

ومن أدار ظهره لنسيم الحقِّ والصدق، ملَّك وجهه ـ شاء أم أبى ـ لِلَفْح الجور ولهيب الفجور؛ فليختر الواحد منا أيَّ الخيارين يليق به، ولا أحد يملك جريرة أحد، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

الذات

أيتها «الذاتُ»، أعياني التفكير فيكِ، وأضناني النظر في حقيقتكِ، فتحوَّل خطوي المتَّئد هرولةً نحو المجهول، وأنا ألاحقك يوماً بيوم، ساعةً بساعة... ثم عدتُ أدراجي، ولم أنل منكِ جواباً، ولا حتى اهتماماً...

أيتها «الذات» التي هي «أنا» المجرَّد، والتي هي «آناتٌ» أخرى مصفوفةٌ في عالم المعنى؛ هلاَّ انفصمتِ عني؟ وهلَّا انفصلت عمَّن تقمَّصك؟

إنك إن فعلتِ إذَنْ لأبصرتُكِ، ولسمعتُ حشرجة ظلِّكِ ... ولكن، هيهات؛ ذلك أني لا أبصر ولا أسمع ولا أعي إلَّا بكِ وحدكِ؛ فأنتِ في تمنُّعك: مرَّة تُقبِلين، ومرارا تُدبِرين، ولكنَّك أبداً لا تلتحمين، ولا تفترقين...

يا «ذاتيَ» التي هي في داخلي، أمرَني ربي وربكِ أن أصلِحكِ، وأن أتفكَّر فيكِ، وأن أرشِّحك للخلود؛ غير أنك مثل الزئبق تتأبّين وتراوغين، ومثل الجلمود تصلُبين وتصلِدين... وفي كلِّ حين أصطدم فيها بكِ أتفتَّت وينفرط عقدُ روحي، ثم يصيرُ (وأصيرُ) هباءً، فارغاً، تكاد الطير تخطَّفني، أو تهوي بي الريح في مكان سحيق...

هذه الأيام، أعود إليكِ، في جوف الظلام، وفي غسق الليل، والقمرُ قمرٌ قد خَفُت لونه، وتنحَّى جانباً... أعود إليكِ أيا «ذاتي» أناشدكِ الله: فهل تسمعين، وهل ترشدين؟ وهل تخشعين وتتَّقين...؟

نجاتي في نجاتكِ،

هلاكي في هلاكِ؛

فإمَّا وإمَّا...

إمَّا العذاب لا قدَّر الله... وإمَّا الرضا ورحمة الله...

«ذاتي» العزيزة، هذا سؤالي لكِ، صريحاً واضحاً... وإني أنتظر منكِ جواباً أصرح وأوضح... غير أني أريده فعلاً وعملاً، لا كلاماً وقولاً... ولقد سئمتُ الحديث، وتاقت نفسي إلى الدليل الحديد...

فهلا نطقتِ يا «ذاتي» ويا «نفسي»... هلاَّ أفصحتِ وأفحمتِ؟

أنتظر الجواب... ولن أبرح حتى يأتيني منكِ فصل الخطاب.

المعرفة / السلطة

أوَّل ما يعترض هذا العنوان أنَّ الخطَّ المائل (/) يمكن أن يستبدل به أيُّ حرف من حروف الربط، والتي تتبادر إلى ذهن القارئ، لا حسب طرح المؤلِّف، لكن حسب رؤية القارئ نفسِه؛ فمن خلال اختياره لأداة من الأدوات يمارس عملية المشاركة في تحديد المعنى، وفي توجيه الدلالة، وفي زرع جملة من القناعات، والدفاع عنها، بوعي أو بغير وعي منه.

فالخطُّ المائل (/) يمكن أن يكون حرف عطف (و)، فنقرأ مثلاً لـ «ميشال فوكو» كتاباً بعنوان (المعرفة والسلطة)، وقريبٌ منه مع تعديل في المصطلح نقرأ لـ «إدوارد سعيد» كتاب (المثقف والسلطة).

وقد نختار صيغة الإضافة «سلطة المعرفة»، ولسالم يفوت كتاب بهذا العنوان؛ كما قد نحوِّل الخط المائل إلى الضمير المنفصل (هي)، فتكون الصيغة «المعرفة هي السلطة»، وبهذا الاسم نقرأ عنواناً ـ لم يترجم فيما يبدو إلى العربية ـ لكاتبه «جون هنري».

غير أنَّ «ألفان توفلر» اختار صيغة أضمَرت المعرفة بل أخَّرتها، وركَّزت على التحوُّل، فركَّب مصطلحاً جديداً هو «تحوُّل السلطة: بين العنف والسلطة والمعرفة».

وقد سبق أن عالجتُ واقعنا الحضاري «بين السلطة واللاسلطة»، وذلك في جملة من المحاضرات بهذا العنوان؛ وكنتُ أتساءل حينها عن «سلطة المعرفة»، وعن «علم السلطة»، وعن «السلطة والمعرفة»... ويملي ذلك الطرح ـ في سياقاتنا الحالية ـ جريانٌ للنهر في الاتجاه المعاكس، وتحوُّلٌ في مسار التأثير مِن المسبَّب إلى السبب؛ لكأنَّ الثمرة تينع قبل غرس الشجرة، أو كأنَّ الإنسان يرشد قبل أن

يولد، أو أنَّ العالم (أعني عالمنا) بات يُطلب منه أن يكون بالمقلوب.

وأعود اليوم إلى هذا السؤال: أي سؤال العلاقة بين المعرفة والسلطة.

سيكون من المستغرب أن أبدأ من «الألفباء»، ومن بداية السكة؛ وأن أسأل سؤالاً قد يبدو فجّاً، وهو: هل توجد علاقة بين المعرفة والسلطة؟

لا شكَّ أنَّ الجواب سيختلف باختلاف التصوُّرات والإدراكات، بخاصَّة بين «ما ينبغي أن يكون»، و «ما هو كائن»؛ ثم يختلف الجواب «فيما ينبغي أن يكون» بين توجُّهٍ «مثالي طوباوي»، وتوجُّه آخر «نفعي براغماتي»، وقد يكون ثمة وسطٌ بينهما في توجُّه «توافقيٍّ منهجيٍّ».

****

الذي أثار السؤال في أحشائي، هو مدى تأثير المعرفة على السلطة في «المدرسة الاستشراقية» بالخصوص؛ حتى «أصبح الشرق هو معرفة الغرب به»، لا هو الشرق كما هو، أو كما يريد أن يكون؛ فوُجد عددٌ من «أصحاب المعرفة» (حتى لا أصفهم بالعلماء والعارفين بالضرورة) لهم أثرٌ بالغ في مصير العالم الإسلاميِّ والعربيِّ، وجدير بنا أن نقرأ بجدية ما أبدعه «إدوارد سعيد» في كتابه (الاستشراق) في هذا الصدد.

ثم يجدر بنا أن ننتبه إلى ما حلله مالك بن نبي من أثر «للمكتب الثاني» في مذكراته الحارقة «العفن»، وبالذات طاعون «ماسينيون» ومن حام حوله، وأثرهم في مسار الأحداث في العالم العربي، بخاصة «مصر، والجزائر»، وكيف تمكن هذا المكروب أن ينخر في عظام المجتمع والقيَم، وأن يحوِّل الانتصار والاستقلال إلى صورة من صور الانهزام والانبطاح.

وفي كتاب (الوجه الآخر للبترول)، وأنا أقرأه بنهم شديد، لكاتبه المحقِّق الصحفي «إيريك لورون»، نقرأ عن العديد ممن له أثرٌ مباشرٌ على مصير العالم في علاقته بالثروة وبالسلطة، ولعلَّ مثالاً واحداً هو «أرنولد هامر» يكفي أن يوضِّح

الصورة بجلاء؛ هذا إذا لم نهتمَّ بحقيقة الأمير «عبد الله الطارقي» المحيرة جداً.

وقبل ذلك، كنت أقرأ عن «عهد السلطان عبد الحميد الثاني»، لكاتبه «أوروخان محمد علي»، تبينتُ بقناعة تامة، أنَّ «الدولة العثمانية» انهزمت وارتطم قطارها بحجرة «الانهيار»، ففقدت المعرفة أولاً، ثم ضيعت السلطة بالتبع؛ ولا يختلف الأمر حين نقرأ عن سقوط «الأندلس»، وكتاب عبد الرحمن الحجي «التاريخ الأندلسي» أبرزُ شاهد على ذلك.

****

الآن، كيف يمكن أن نعيد الرابطة بين «معرفةٍ» نمارسها، وبين «سلطة» نبتغيها؛ لا بمدلولها السياسيِّ، فذاك آخِر همومنا، بل هو ليس البتة من همومنا؛ وإنما السلطة بالمدلول الفكري، والحضاري، والثقافي، والتربوي...؟

وهل فيما نأتي وما نذرُ، وفيما نعلِّم ونؤلِّف، وفيما نطرح من أفكار، ونعالج من إشكالات... هل في ذلك بذرةٌ «لسلطة المعرفة» على «العفوية»، وعلى «الاعتباطية»، وعلى «اللاأدرية الحركية»، وعلى «الجهل المغلَّف»، وعلى «الحرفية الساخرة»... أي على جميع مظاهر «الاستبغالِ الفكريِّ»، و«الاستهجانِ المنهجيِّ»، و«الإخصاءِ الحركيِّ»؟

مطالعة كتبٍ، وتحقيق مسائلَ، ومعالجة مقالات، وتأليف بحوث، وإلقاء محاضرات، وتوجيه طلبة مسترشدين، وبناء مناهج، وفتحُ مدارس ومعاهد، وتربية جيلٍ، واقتراح بدائل، وجمع طاقات من العلماء في سياقٍ توافقيٍّ، وتصحيح مفاهيم، وزرع تفاؤل، والمصابرة على مصائب، والتنبيه إلى انحراف توحيديٍّ، وبناء فكرٍ على فعل، وتكريس ممارسة معرفية منفتحة، والزهد عن نمطيةٍ وظيفية قاتلة... وغير ذلك من «الأفعال» المؤسَّسة على «فكر ومعرفة»؛ مما يشغل بحر نهارنا، ويعمر محيط ليلنا...

هل هذا مما يندرج في سياق «سلطة المعنى»؟ بل، هل هو مما يرضي ربنا، وينجينا عند بارينا؟ وهل يحقِّق النصرة لدينه، والخلافةَ لأمته؟ وهل يبشِّر بغد أفضل وأكثر شروقاً لدين التوحيد على حساب الإلحاد والجحود؟ وهل يربط برباط وثيق بين «المعرفة والسلطة»، ويعيد ترتيب الوجهة والغاية؟ وهل يحقق لنا الرساليَّة التي خُلقنا لأجلها، وأمِرنا بالعيش في كنفها؟ وهل سيكون سبباً في التفريج عن البشرية الحائرة، وعن الإنسانية المنهوكة؟

سائلٌ، بل وابلٌ، من الأسئلة، التي تعيدنا إلى نقطة البداية في «سؤال العلاقة بين المعرفة والسلطة»، وربَّ عودة إلى نقطة الانطلاق خيرٌ ألف مرَّة من مواصلة السير في اتجاه خاطئ؛ ولا ريب أننا في هذه النقطة، نربط بوثاق ووشاج من الإيمان بين «فكرنا وفعلنا»، بين «علمنا وعملنا»، بين «معرفتنا وسلطتنا».

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 2/ 282]، فالتقوى سلطة على النفس، وسلطة لفعل الخير، وسلطة في دحر الشر، وسلطة لصالح الزمان والمكان...

وهو القائل تعالى شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 11/ 49]، والعاقبة الحسنة سلطة على المصير، وضبط لإيقاع المسير، وتعلُّق بالحكيم الخبير.

وهو القائل جلَّ من قائل: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 9/ 72]؛ ورضوان الله تعالى هي أكبر سلطة، ذلك أنَّ الله هو «**مالك الملك**»، وهو المصدرُ الأوحدُ الحقُّ لكلِّ سلطة، فإذا ما وهب السلطة لأحد فلا أحد ينزعها عنه، وإذا سلبها من أحد فلا أحد يضمنها له، سبحانك ربِّي ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 3/ 26].

سؤال الكتابة: العُضال المحموم

حين يكون قدَر الإنسان أن يمارس الفكرة والفكر، وحين تكون الكتابةُ هي جهادُه وهجرته؛ تتبدَّى له حزمةٌ من الأسئلة التي لا تفارقه، حتى ولو تنكَّر لها ألف مرَّة، منها:

لماذا أكتب؟ وماذا أكتب؟ ومتى أكتب؟ ولمن أكتب؟ وكيف أكتب؟ وهل لما أكتب جدوى؟ وما السبيل لمعرفة آثار ما أكتب؟ وهل ما أكتب ملائمٌ للعصر وللمرحلة؟ أم أنه نشاز في سيمفونية الزمان والمكان؟ وهل يَضرب قلمي بأوتاد وجذور في عالم المعنى؟ أم أنه مجتَثٌّ من أصله، عارٍ من أوَّله إلى آخره؟

وإذا تقدَّم الكاتب خطوة إلى الأمام، وارتقى درجة نحو السماء، فإنه يسَّاءل بقلب نابض وضمير حيٍّ:

هل أدَّيتُ واجبي بما أكتب؟ وهل أرضيت ربِّي؟ وهل نفعت عيالَه وخلقه؟ وهل زرعتُ الكلمة الطيبة في حقول البشر وسهوب البشرية؟ وهل شاركت في مهرجان الخير والبرِّ بما علَّمني الله؟ وهل أتقنتُ وأحسنتُ؟ وهل صدقتُ وأخلصتُ؟ وهل كانت هجرتي (أعْني كتابتي وهمَّتي) لوجه الله وحده؟ أم كانت لمآرب أخرى؟

غير أنَّ ذات الكاتب إذا تنصَّل من لَبوس الحقِّ، وإذا تكبَّر عن الخلق، ثم إذا هو جحد ربَّ الحقِّ والخلق، فإنه يقيء دوماً أسئلة من قبيل:

ما حدُّ الشهرة التي نِلتها بكتابتي؟ وهل سيَرضى الحاكم عني فيُجزل لي العطاء؟ أم هل ستقف الجماهير ورائي، وتنعتني بالبطل المغوار؟ وهل يفنى اسمي من الوجود بعد موتي؟ أم أنه سيبقى محفوراً في ذاكرة العالم؟

ما بين هذا وذاك، تكون الشهرةُ دائماً هي معيار الصواب في منطق الرّعاع، ومن ثمَّ تجدهم يُعلون مِن شأن «نزار» و«أحلام» و«أدونيس»، ويُخفِضون من مقام «علي عزَّت» و«بن نبي» و«طارق»، ولقد عمِلت ذهنية «البوب» (pop) على حساب عدد المصفِّقين، وعدد الذين يفغرون فَاهُم أمام مرايا الكلمات والنغمات، ويسهرون في عدِّ التغريدات والتحبيبات، ويفرحون لفرح الجحافل المعجَبين؛ غايتهم في ذلك تعيين الأفضل في الترتيب، وتحديد الرقم الأوَّل في السباق.

البعض من الكتَّاب والمتكلِّمين حالهم مثلَ حال «شعلة الجريد»، تلتهب بسرعة وشدَّة، ثم تخبو بأسرع من ذلك وأشدّ؛ تكثُر جعجعتهم ويقلُّ طحينهم؛ بل مثلَ إناء من حديدٍ مثقوبٍ يُنزَّل في بئر فارغ، فيقلب الدنيا ضجيجاً، ثم حين يصعد... يصعدُ ولا شيء فيه إلَّا الصدأ والقبح.

غير أنَّ البعض الآخر، ممن أنار الله قلوبهم، وأرشد عقولهم، وثبَّتهم على الحقِّ المبين، ثم أنزلهم منزلة المقرَّبين المكرَّمين... هؤلاء القلَّة، حتى ولو لم تُكتب لهم الشهرة، وحتى لو لم تردِّد «صالات الفجور» مقالهم، ولم تنقل «قنوات الجور» أسماءهم؛ فإنهم سيغدون مثل تلك الزهرة العطِرة، التي جمَّلها الجميلُ بالحُسن، وأذكاها الجليل بالعطر، وحبَّبها العزيز إلى قلوب المخلَصين، سواء في ذلك رأوها أم لم يروها، سمعوا عنها أم لم يسمعوا... «**وكفى بالخير سماعه**».

وأنا، حين أنظر إلى ما كتبتُ، وحين أعود بالذاكرة إلى أوَّل مقال نضدته، وإلى أوَّل بحث أعددته، وإلى أوَّل كتاب نشرته... ثم أتابع خطَّ السير في علوِّه ودنوِّه، في تسارعه وتباطؤه، في جودته ورداءته... حين أفعل ذلك وقد فعلتُ؛ فإني لا أملك أجوبةً، بل أسئلة... ولا أنهي الفكرة، بل أشرع فيها... ولا أقدِر على الحكم، بل أقيس الجهد ونبضات القلب، وكفى...

ولا أقول: «**أتيت بما لم تستطعه الأوائل**»،

لكنني أقول: «**قصاراي أني حاولت، وعلى الله قصد السبيل**».

ويعاودني ـ مع ذلك ـ «سؤال الكتابة» كلَّما خمَّرت فكرةً في «أحشائي»، ويظلُّ «السؤال» يحفر في سفوح عقلي بلا هوادة، ولا ينفصل عني حتى أنهي السطر الأخير من المكتوب؛ ثم حين أودعه القدَر الحكيم ليصل به حيث يشاء، وليفعل به ما يريد... لا أرتاح من «سؤال الكتابة» بل يشتدُّ عليَّ وقعه، ويُلهبني ضِرامه، فأظَلُّ ألهج بالدعاء لربِّ الكاتب، ولربِّ الكتاب، ولربِّ القارئ لما كتب... أن ينزل القبول على القلوب الوجلة، وأن يفتح باباً عنده فيصعد منه كلمي الطيِّب، ثم يَرفع إليه ـ بِجُودِه سبحانه ـ عملي الصالح... ثم يغفر لي زلاتي، وينزلني منزلة الأبرار...

ولا يعنيني إذ ذاك رضي «القراء» أم لم يرضوا، فكلُّ الرضا في رضا المولى الجليل...

فهل ـ أخي الحبيب ـ تملَّكك يوماً عضال «سؤال الكتابة»، فتقلَّبت في فراشك مثلي؟ وتلويت على جنبيك مثلي؟ وعانقت الهمَّ والتوتر المستميت مثلي؟

أنتظر منك الجواب... أو بالأحرى، لا أنتظر الجواب.

أن أبلُغ مقام الرشد، وكفى![1]

لستُ مولَعاً بالكتابة لأجل الكتابة، ولستُ مُغرماً برصِّ رفوف المكتبات بعناوين جديدة، أو بإثراء التراث العلميِّ للبشرية بنظرية فريدة. بل ليس لديَّ أيُّ اهتمام بخلود اسمي على صفحة التاريخ، ولا بعلوِّ ذكري في العالمين.

أن أبلُغ مقام الرشد، وأن أكون راشداً مرشداً... وأن يكون أمري رشَداً، وفكري رُشداً، وفعلي راشداً... هذه منيتي وغايتي ومقصدي؛ وهذا بكلِّ ما تعنيه الألفاظ من معاني مشحونة، هو «غايةُ الغايات»، وهو «سبب الأسباب».

إذْ، ما الفائدة من تأليف عملٍ علميٍّ ضخم، شهير وبديع، ثم إفراغ الجهد في نشره وتوزيعه وتبليغه إلى أقاصي الدنيا؟ ما الفائدة من كلِّ ذلك إذا كنتُ مع كلِّ ذلك غير راشد، أو كنت وقد دام أثري في عداد الفانين أتجرَّع الغصص والندامة في عالم البقاء... هنالك؟!

ما الذي يؤمِّله جهابذة العلماء العالميين، وقد لقوا ربهم أشقياء، غير مؤمنين به، ولا موقنين بدينه؟ أفلا يكون علمهم وما خلَّفوه من أثرٍ نافعاً لغيرهم، حجَّة عليهم؟ ماذا يفيدهم ذلك وهم الساعةَ يُساءَلون عن كلِّ حرف، وكلمة، وجملة، وحُكم، وفكرة، ونظرية، وكتاب... يُسألون بأمرٍ من الله لملائكته الكرام: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 37/ 24]، ثم بتقريع لهم: ﴿مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: 37/ 25]؟ ثم يأتي التقرير ماحقاً، مع أسلوب الالتفات: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: 37/ 26].

---

(1) المقال يحمل أنفاس مرحلته، وقد كتب بتاريخ: 16 فيفري 2011م، بالعاصمة.

هل ينتفع «بيكون» بالمنهج العلميِّ المنسوب إليه، وهو لم يهدِه إلى إله المنهج الحقِّ؟

وهل يستفيد داروين من نظرية التطور، وهو قد تنكَّر للخلق وللخالق؟

وهل يزداد نيوتن رفعةً يومَ اللقاء، وقد اكتشف الجاذبية، وهو غير مسلِّم لربِّ الجاذبية؟

ومن ذا الذي ينقذ أديسون، وهو الذي أنار بيوت الناس بالكهرباء، وأظلم قبره بالكفر والجحود؟

ونسبية آينشتاين، فيما تنفعه، وهو لم يمُت على دين الحقِّ، وعلى التقوى والإيمان الصدق؟

ثم، ما الذي ينجي هاوكينغ، وهو المقعَد على كرسيه، المحلِّق في أجواء الكون بعقله، المدير ظهره لإله الكون ظلماً وعدواناً؟

أنا لا أقلِّل من شأن العلم ولا العلماء؛ فالعلم دوماً نور؛ ولكنِّي أتحسَّر من علماء نفعوا بعلمهم غيرهم، ولم ينتفعوا هم به شرو نقير عند ربهم. ولا ريب أنَّ مُنتهى العلم معرفةُ السبب الأوَّل (الخالِق)، ومَن اقتصر على سببٍ أو أكثر معرِضاً عن الفاعل الحقيق كان ظلوماً جهولاً: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: 30/ 7].

لذا، فإنَّ ما أكتبه في بناء «منظومة الرشد» هو لحمةٌ من قلبي، وقطعةٌ من عقلي، وشريحةٌ من وجداني، وعصارةٌ من عملي ومجاهدتي... أتعنَّى وأتألَّم وأنا أخطُّه؛ ذلك أنَّه يولَد في سياق الفعل والحركة والبناء؛ لا في حُجرات للدرس مغلقة، ولا على طاولات للمكتبات مزيَّنة.

ما أكتبه هو «خطوط خلفية» و«صورة قلمية» للَوحةٍ فنية، عنوانُها «حركية الفعل الحضاري» لمشاريع المنظومة وغيرها. آملُ من خلاله أن يتناسق الرسم، ويتناغم الإيقاع، وينسجم اللون... ليس إلَّا.

وإلَّا، فلو علمتُ علم اليقين أنَّ الكتابة لا تصُبُّ في هذا المجرى، ولا تسير في هذا الاتجاه، فإني سأصوم عنها اللحظة، أصوم إلى الأبد، وسأستغفر الله مِن «معصية التأليف»، وأتوبُ إليه مِن «سيِّئات هدر الوقت بين ثنايا الكتب والمكاتب والمكتبات».

يعلم الله أنَّ الكثير مما كان في الغيب أوَّل مرَّة، ثم بعد «نفورٌ إلى العلم» تحوَّل إلى فكرة حدسية في العقل انطلاقاً، ثم تهجَّم على الوجدان، وانسكب بعدها نهراً رقراقاً على سفوح الجوارح، إلى أن صار واقعاً ماثلاً للعيان: مدرسةً، أو طالبَ علم، أو اختياراً حضارياً، أو معهداً، أو موقعاً رقميّاً، أو موقفاً إنسانيّاً، أو علاقة طيِّبة... أو حتى فكرةً صالحة تهدي صاحبها إلى أرشد طريق، وأقوم سبيل... يعلم الله أنَّ هذا المقصِد هو ما يوجِب عليَّ ملازمة القلم والقرطاس؛ معتقِداً بصدقٍ أنَّ الأوَّل سيف الجهاد، وأنَّ الثاني ميدان الاستشهاد.

أمَّا الهمُّ المحوري الذي يشغلني، ويؤرِّقني، ويدُعُّني، فهو مفارقة تمكُّن الكفَّار، وبسطهم إرادتَهم على الأرض، مع تخلف المنسوبين إلى الإسلام والقرآن، وما ذلك إلَّا لِضياع البوصلة، وفقدان الوجهة، وغياب المرجع... عند هؤلاء وأولئك، مما عبَّر عنه عالم خرّيت في كتاب عنونه بـ: (الإسلام بين الشرق والغرب)، ولو شاء لقال: «الإسلام (الضائع) بين الشرق والغرب».

فمقالاتُ الرشد، وموسوعةُ الرشد، وبذورُ الرشد، ومشاريعُ الرشد... ولِدت وتولَد كلَّ يوم مرَّات عديدات، مِن رحم التوتُّر والمعاناة، مع مخاض عسير غيرِ يسير... وفي أثناء ذلك أسأل الله أن ينيلني شرف الالتحاق جندياً صغيراً بجيش محمَّد ﷺ، وأستمع بشوق وعشق أناتِه وحسراتِه مشفوعةً بحبِّه، وهو يردِّد أنشودته الخالدة: «أمَّتي... أمَّتي».

ما أحلمك يا حبيبي، يا رسول الله، وما أشقى شانئيك وما أخذلهم؟

لا أعلم هل ضحيت أم أني مجرَّد متشبِّه بالمضحين، ولا أدَّعي أنَّ صوتي المبحوح بلغ آذانَ الناس... لكنني أستعين بالله وأدعوه، أن يبلِّغ هذه الحروف والكلمات والأفكار المرتجَّة المنحوتة بصبر ومصابرة، وأن يقبض عن الألسن والعقول اسمَ صاحبها، فلا يُذكر إلَّا بدعاء عن ظهرِ الغيب. ثم ينسب الخير كلُّه إلى غيره، وإلى الجمع من دونه لا إلى الفرد.

أسأل الله أن يخترق فكريَّ الرقيق ـ مفتولاً بفكر مَن معي ومَن حولي، وبفكر مَن أنا معه وحوله ـ بحول الله وقوَّته ومشيئته، أسأل الله أن يخترق حُجبَ البشرية الحائرة، وقد استمرأت الضحضاح، وغاب عنها الرواد الشهداء الراشدون، فنأت بكبريائها عن الحقِّ وعن القسط، ثم ضلَّت الطريق، وأضلَّت على إثر ذلك الملايير من النفوس الخائرة... لكني أعلم يقينا، أنَّ التفكير، والكتابة، والكلام، والصمت، والنظر، والأمر، والنهي، والحركة، والعمل... كلُّ ذلك يصبُّ في محيط هذه الغاية الصعبة المنال.

لهذا، ومن هذا، وفي هذا، وبهذا... تعيَّنَت المنظومةُ، وفُرض بناء النموذج، ولزِم التفكير في البديل... لكنني، صِدقاً، أرتجي من وراء ذلك رُشدي، ورُشد أمتي؛ وأستدعي بذلك رضا ربي عني، ورضاه عن أمتي؛ وأسأل الله الجنة مع الصفح، ولا أحتمل جهنم ولو جدلاً.

وفي الواقع لا أجد للكلمات حرارة إلَّا حين تلامس خطَّ الزمن، وتحرِّك ساكناً في دنيا الناس، وتغير شيئاً مما أمر الله به أن يغيَّر، وتخاطب بعشق قلوباً واجفة، وعقولاً محتشدة، وأفئدة عامرة بالذكر... وفي ذروة المعنى أبحث عن الضمير الذي يصغي وهو موقن في الله الواحد الأحد، ويحترق وهو متوكل على الفرد الصمد، مما أسميه: العقل المؤيَّد المولِّد للفعل المؤيَّد.

وقصيدتي الصامتة الناطقة تتغنى بمعزوفة مقامها: أن أبلغ مقام الرشد، وكفى!

ما بعد «بؤرة تفكيري، وخطِّي المنهجي»

صفة العلم هو النظر، ووظيفته التفسير والتنبُّؤ، وخاصيته الضبط والوضوح، وغايته تحقيق سعادة الإنسان، وآلته العقل، ومادته الوجود، ودليله القرآن، ومحطَّته الزمان والمكان... ومثاله المطلق سيد الخلق محمَّد ﷺ.

العلم شرفٌ كلُّه، والعالِم كريم بذاته، والمتعلِّم سعيد بفعله متفائل بمستقبله، والجاهل شقيٌّ بتضييعه للفرص وملاحقته للسراب.

كيف نبدأ من حيث ينتهي العلم؟ وكيف نحوِّل مادة العلم إلى واقع؟

وكيف نركِّز تنظير العالم ليتحوَّل إلى طاقة فاعلة؟

كيف نجعل كلَّ الكتب، والمقالات، والمحاضرات، والمواعظ، والمقولات، والنظريات... تنتهي إلى آليات للتفعيل والفعالية، لا إلى توصيات ونصائح لا تمتُّ إلى الواقع بصلة؟

ما بعدَ العلم، وما بعد الفكرة، وما بعد النظر... حلقة فارغة في الفكر الإسلاميِّ اليوم، عموماً.

تختمر الفكرة في ذهني، ويستحكم الإشكال، وتتوالى الافتراضات، فتتهجَّم عليَّ الاختبارات والاختيارات... وأستجمع ملكات الذهن، فأجمِّع الأفكار، وأكتب ما أظنُّ ـ أو أعتقد ـ في تلك اللحظة أنه الحلُّ الأخير، والجواب النهائيُّ، والدواء الأكيد لهذا المرض العضال!

ثم أنتهي بصياغة رأي، أو نموذج، أو نظرية متكاملة المعالم... ثم ألوذ إلى تأليف مقال، أو تنضيد كتاب، أو إلقاء محاضرة، أو إعداد دورة تدريبية...

ويكون آخر العنقود فكرةٌ ناضجةٌ، مستساغة، طيبة، طاهرة، حلال... تُسبي الناظرين، وتريح المنتظرين.

في هذه النقطة بالذات، أتحوَّل إلى «راصدٍ» لِما كتبتُ فيه، وما نظرَّت له، وما حلَّلت به... أي أنتقل إلى «المستوى الثاني» من النظر، وإلى «السلَّم» الأعلى من الإدراك، وهو مستوى «ما حول»، وسلَّم «الميتا» كما يسمَّى (meta).

بهذه الرؤية الجديدة أجدُ أنَّني تحوَّلت مرّة أخرى إلى مقترِح، وواعظ، وناصح... أدفع القارئ بالكلمات إلى تنفيذ ما كتبتُ فيه، وأحثُّ المستمع بالكلمات إلى تمثُّل ما ألقيت عليه...

ولكن، هيهات، ثم هيهات...

وأعود إلى البحث عن «ميلاد فكرة» جديدة، فأعيد نفس المراحل مرحلة مرحلة، بلا كلل ولا ملل... وهكذا، إلى ما شاء الله تعالى.

متى العمل؟ وكيف العمل؟

لولا المشاريع الأرضية، والواقعية، والعملية، والتربوية، والفكرية... التي تشغلني وأشغلها، والتي تغمرني وأغمرها، لكنتُ في قلق مميت، ولعِشت في دوَّامة قاتلة؛ لكن ـ ولله الحمد ـ فإنَّ الانتقال من فعل إلى فكر، ومن فكر إلى فعل... جعلني أؤمن بهذا السبيل، ولا أجد له بديلاً.

هذه «بؤرة تفكيري»، وهذا «خطِّي المنهجي»، وهذا محطُّ جهدي، ومحلُّ جهادي، منذ أمد، وإلى حين، بإذن الله تعالى...

التفعيل، الفعالية، الإنجاز، العلم النافع، الواقعية... تعدَّدت الصفات، والمؤدَّى واحد... إنه: «الرشد» بكلُّ أبعاده، وبجميع مواصفاته.

قد يطول الوقت، بل سيطول يقيناً، لإيجاد الجواب المريح نسبياً، لكنَّ الانكباب والبحث والتنقيب، بعقلية العابد، وروح المجاهد، وأداء القائد، وخلُق الصادق...

كلُّ أولئك ضرورة ولا ريب، وواجبٌ شرعيٌّ ولا شك ... فالجديد النافع دائماً يولد من رحم المعاناة.

هل أنا في حاجة إلى مزيد من القراءة؟

أم إلى مزيد من الكتابة؟

أم إلى مزيد من التأمل؟

أم إلى مزيد من الإنجاز؟

أنا، وأنت، وهو، وهم، ونحن... جميعاً، في حاجة ماسَّة إلى كلِّ ذلك، وإلى أكثر من ذلك... في حاجة أولاً أن ندرك هذا البعد الحضاريَّ الدقيق، وأن نتحرَّك على أساسه...

وقبل ذلك، وبعده، نحن في حاجة ملحَّة وأكيدة إلى توفيق من الله تعالى، القائل في محكم التنزيل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا عمل، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 2/ 282] وهذا علم. والقائل في آية أخرى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ وهذا علم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذا عمل.

عمل يسنده علم، وعلم يرفعه عمل... ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 35/ 10].

والله الموفق للصواب.

كتبتُ هذه العباراتِ مقالةً مسوَّدة في شهر أيلول/ سبتمبر 2008م، ثم بيّضتها ونشرتها في بوابة فيكوس في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2010م، ثم نشرت في كتاب (ذي قربتي)، عام 2013م؛ وها أنا بعد مضي سبع سنين من المسوَّدة، وخمس سنين من النشر الأوَّل، أعود إلى نقطة «بؤرة التفكير والخط المنهجي» لأُسائل نفسي وقد أنسأ الله في الأجل[1]:

(1) قبل ذلك، في عام 2006م، ضمن سلسلة «ما بأنفسهم»، نشرتُ محاورة تحت عنوان: «ترياق الحائر»، تحمل نفس النفَس المتقد، وتنتهي كما بدأت بنفس المستوى من المد والجزر، ومن الحيرة والتوتر اللذين أحمد الله عليهما؛ لأنهما وقود الحياة وسرّ الوجود.

هل كنت وفيّاً لهذا الخطِّ؟ وهل اجتهدتُ أكثر في «ما بعد العلم» وفي «العمل الذي يسنده علم، والعلم الذي يرفعه العمل»؟ ما هي الثغرات التي اكتشفتها في الطريق؟ وما هي الصعوبات التي اعترضتني؟ وهل تحوَّل الهمُّ من مفردٍ إلى جمع، ومن عقل وحيد إلى مجموع علميٍّ؟ وهل بلَّغتُ هذا الخطَّ للمسلم وللإنسان بعامَّة، في مختلف مستوياته؟

لا ريب أنَّ جملة الأسئلة التي ينبغي طرحُها لا حصر لها ولا عدَّ، وإذا ما نظرتُ إلى المنجز، حمدتُ الله تعالى، ولكن حين أركِّز على الناقص، وعلى زاوية قصوري وتقصيري، ألوم نفسي، وأسائلها مساءلة شديدة.

ولا ريب أنَّ الخطوات والمشاريع الفكرية والحركية مما أنجز ليست جميعه في المستوى المطلوب، وليست جميعها دون المستوى المطلوب؛ ولكن بالنظر إلى «الوعاء الحضاري» فإنَّها تعدُّ مثالاً واعياً لحركية الفكر والفعل، وقد سَلِمتْ ـ بحمد الله ـ من الكثير من الانزلاقات؛ على رأسها «الأنانية والفردانية»، أي من أمراض «الأنا الفردي»؛ فجاز أن تنسب إلى «المجموع»، وحرم أن يشار بها إلى «شخص أو قائد أو زعيم».

غير أنَّ تجربة القراءات الحضارية أثبتت أنَّ النجاة من «الأنا الفردي» مرحلةٌ هامة وبارزة، ولكنَّ الأصعب منها أن تتجاوز مرحلة «الأنا الجماعي»؛ أي أن تتخطى محورية الـ«نحن»؛ ذلك أنَّها أنانية تتلبَّس بلبوس الإيثار والتفاني والذوبان في المجموع؛ لكنَّ «نحن» لا بدَّ أن يكون جزءاً مِن «نحن» أوسع منه؛ إلى أن نصل إلى «نحن المسلمين»، و«نحن بني البشر»، وما دون ذلك من أفكار ومشاريع وانتماءات هي «آنات» جزئية داخل جسم شامل.

فهل نقدر على تجاوز هذه المرحلة، أي تجاوز «الأنانية الجماعية»؟

لا ريب أنَّ ذلك يمثل التحدِّي الحقيق في هذه المرحلة، ولكنَّه ضرورة لتحقيق المراد، وجلبِ معية الله الواحد الأحد المريد، ولا مهرب مِنَ الاعتراف أنَّ أخطاء قد تقع، وأنَّ صعوبات قد تعترض الطريق، ولكنها بحول الله لن تحوّل وجهة المسيرة، ولن تنسينا أولوية المصير.

لو سألتُ نفسي اليومَ مرَّة أخرى:

ما هي بؤرة تفكيرك؟ وما هو خطك المنهجيُّ؟

لن يكون الجواب فوق أو أعلى أو خارج «سؤال الأزمة»؛ أي «حركية الفكر والفعل»، والبحث عن «نموذج راشد» عوض «النماذج الشمولية»، لكنَّ النقطة الأصعب هي أن يتمَّ ذلك الجهد تحت قبَّة «فكر جمعي»، و«متَّحد علمي»، و«جماعة علمية»؛ والحقُّ أنَّ هذا الشرط بات معقَّداً وصعباً، لو استثنينا عدداً قليلاً من الباحثين «بصفة ظرفية» (طلبة الخلائف، حضور الحلقات، أعضاء المجمع العلمي)؛ يمكننا القول: إنَّ «التداول المعرفي» هو العقبة الكؤود التي تقف حاجزاً أمامنا، وأنَّ الرهان على تحقيقها قائمٌ على الصبر، وعلى اعتبار المرحلية؛ ولكنه كذلك قائمٌ على «المعطى الكوني»، وعلى إمكانية بلوغه، عوضاً عن محلية الفكرة ومحلية الفعل.

إذن، في المرحلة القادمة لزم التركيز على «صناعة المعرفة، مقدِّمةً لصناعة الفعل الحضاري، باعتماد الجماعة العلمية رحماً، ومعتكف البحث العلميِّ مستقرّاً مكانيّاً، ودوام ثني الركبة ومداومة التفكير صبغة زمانية».

كلُّ ذلك بغاية «رضوان الله تعالى»، وبرسالة «ترشيد الأمة، بمنهج علمي، من منطلق قرآني».

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

الأصوات المنبعثة من القبور تقول الحقَّ إخلاص

ما تشهده البلادُ الإسلاميةُ من اضطرابٍ مستمرٍّ، بات مألوفاً ومعتاداً إلى حدِّ الأُنْس؛ حتى صار الاقتصار على دمشق دون بغداد، أو التركيز على القاهرة وإغفال طرابلس، أو الاهتمام باليمن والسكوت عن الساحل... نوعاً من «المعارك الخفية»، يُعتمد فيها على نظرية «مصباح اليد»، التي تؤشِّر إلى أنَّ تركيز المصباح على جهة ما في الظلام، لا يعني أنْ لا شيء يحدُث في الجهات التي لم يسلَّط عليها الضوء.

ويبقى السؤال الأهم: يدُ مَن تحمل هذا المصباح؟ ثم هل هذه اليدُ لها عقل يوجِّهها؟ أم هي يد غُفلٌ طائشةٌ، لا قلب يوجِّهها ولا عقل؟ أم أنَّ كثرة الأيادي تحيل إلى جميع ذلك؟ ثم لماذا يبقى الذين يسلَّط الضوءُ عليهم دائماً مشدوهين، لا يتحرَّكون، كأنَّهم أصيبوا بشلل؟ أم هو فعلُ الانبهار من قوَّة الضوء المسلط على شبكة العين منع من الحركة والتحرك؟

هذه مقدِّماتٌ للتساؤل عن جدوى الاهتمام بوضع المسلمين اليومَ، والحديثُ عن ذلك بات مكرَّراً ممجوجاً، بسبب تكاثف المحن والأزمات، وتناقل وسائل الأخبار المملِّ لكلِّ خبر مقنطٍ من حال المسلمين، وصمتها عن عرض جوانب مشرقة من واقعهم، حتى على افتراض قلَّتها؛ بقصد إدامة «صورة الميئوس منه».

أمامنا نصٌّ تاريخيٌّ من العهد العثماني، بالذات في عصر السلطان عبد المجيد، منه نحاول أن نلجَ إلى بعض أسباب الداء، وبديهي طبعاً أن نقترح الدواء المضادَّ له، والرسالةُ هي جزء من الوصية الأخيرة التي كتبها فؤاد باشا، عندما أحسَّ بدنو أجله في بلدة (نيس) في فرنسا سنة 1868م، ثم أرسلها إلى السلطان عبد العزيز

(عم السلطان عبد الحميد الثاني) ملخِّصاً فيها أفكاره ومقترحاته في إصلاح شؤون الدولة العثمانية:

«مولاي السلطان!

لم يبق من عمري سوى أيامٌ قلائل... وربما أقلُّ، وأريدُ أن أحصر هذه المدَّة الباقية في وظيفة كبيرة ومقدَّسة، فأعرضَ أمام جلالتكم آرائي وأفكاري الأخيرة.

ربما أكون قد رحلتُ عن هذه الدنيا عندما ينظر صاحب الجلالة إلى هذه الأسطر، لذلك فإنه يستطيع ـ في الأقلِّ هذه المرة ـ الاعتمادَ على كلامي؛ لأنَّ الأصوات المنبعثة من القبور تقول الحقَّ بإخلاص على الدوام.

مولاي السلطان!

إنَّ المقام الذي أودعه الله إليك محاطٌ بالأخطار بقدر ما هو مشرِّف ومَجيد، ولكي تستطيع القيام بالوظيفة التي أخذتها على عاتقك خيرَ قيام، كان واجباً عليَّ أن أحيطك علماً بوضع مؤلم للغاية.

إنَّ دولة آل عثمان في خطرٍ.

فبسبب أخطائنا تقدَّم أعداؤنا بصورة مذهلة، وتخلَّفنا نحن، وهذا دفع الدولة إلى هاوية الأزمات.

هناك حلٌّ واحد فقط للخلاص من هذه الهاوية، يا مولاي! يجب أن تقطع علاقتك حالاً مع الأسلوب القديم لإدارة الدولة، لقد آن الأوان لإعطاء قوة جديدة للدولة. إنَّ بعضاً من المغترّين بأنفسهم (أو الوطنيين على حدِّ زعمهم) سيقولون ـ وسيحاولون إقناعكم ـ بأنَّ من الممكن إرجاع الدولة العثمانية إلى سابق قوتها بالوسائل القديمة.

هذا خيال يا مولاي!... وما أعظمه من خطأ!

لو كان جيراننا كما كانوا أيام أجدادنا، أي لو دام الوضع القديم، فلا شكَّ أنَّ الوسائل القديمة كانت قادرة على إخضاع جميع أوروبا لأوامر سيدنا، ولكن أوروبا اليوم ـ مع الأسف ـ ليست أوروبا ما قبل مئتي سنة، فقد تقدموا إلى الأمام وخلَّفونا وراءهم.

ولا شك أننا أيضاً لسنا كما كنا سابقاً، فالدولة العثمانية تملك اليوم كثيراً من المعارف التي لم تكن معروفة أيام أجدادنا العظام، ولكن ـ كما قلت سابقاً ـ لا تكفي هذه الدرجة من المعرفة، فلا تزال هناك مسافة شاسعة بيننا وبين العصر الذي نعيش فيه.

ولكي تستطيع الدولة العثمانية البقاء في قارة أوروبا يجب أن لا نتفوق على أجدادنا فحسب، إنما يجب بلوغ قوة جيراننا، بل التفوق عليهم. ولكي أكون أكثر وضوحاً أقول: لا تستطيع الدولة العثمانية الوصول إلى السلامة إلَّا إذا أصبحت لها قدرة مالية كإنجلترة، وقدرة علمية وفنية كفرنسا، وقدرة عسكرية كروسيا.

إنَّ الممالك التي يحكمها سيدي حائزة على جميع الشروط اللازمة للتفوق على أية دولة من دول أوروبا، ولكن لكي نستطيع الاستفادة من هذه الشروط يجب تجديد جميع الأجهزة السياسية والإدارية وأجهزة العدالة، فهناك مجموعة من الأساليب والقوانين القديمة التي كانت ذات فائدة في الماضي، أمَّا الآن فهي ليست فقط دون فائدة، ولكنها اليوم ضارَّةٌ بلا شك.

إنَّ الدين الإسلامي قد تبنى العلمَ دائماً، والعلمُ لا يفرِّق في الدنيا بين مسلمٍ ومسيحيٍّ، فلا بدَّ من قبول وتبنّي أيِّ شيء مفيد لبني الإنسان بصرف النظر عن مكان اختراعه.

إنَّ الإسلام لم يأمر أحداً مطلقاً بالسؤال عما إذا كان هذا الشيء مخترعاً في

المدينة المنورة أو في باريس. إنَّ عرض هذا الموضوع هو لِبيان أنَّ دولتنا بتغييرها الأساليب القديمة لا تكون متصرفة ضد الدين...».

****

حاولت أن أضع الرسالة الآنفة بصيغة تلائم هذا العصر، وتحيل بلا واسطة إلى حالنا ومآلنا؛ فغيَّرتُ بعض الألقاب، مثل «جلالة السلطان»، «الدولة العثمانية»... ثم اعتصرتُ أبرز وأهمَّ فائدة نستخلصها منها، فكانت النتيجة دانية قطوفها، وخرجت بهذه الثمرات اليانعات، وهي في نقاط:

* **تبادل الآراء وعرض الأفكار بصدق وإخلاص**: أمام كلِّ وضع، وحيال كلِّ قضية، وعند كلِّ خطر، لا بدَّ من الاعتماد على «الآراء والأفكار»، التي هي أغلى مادة وأهمُّ وسيلة للخروج من الأزمات، وتخطِّي المحن، مهما علا غبارها. ثم إنه لا يمكن أن تستثمر تلك «الآراء والأفكار» إذا ما طغت «الأنانيات»، و«الاعتبارات»، و«الثنائيات»، و«الإقصاءات»، و«الاستعجالات».

* **اعتبار المآل، والاستماع إلى صوت الضمير**: لا يتمحَّض الخير إلَّا إذا ارتبط بالمآل، بأن يتذكَّر الجميعُ، بلا استثناء، وفي كلِّ وقت، أنَّ مآلهم إلى الله تعالى سبحانه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: 24/ 39]، وأنَّ الموت نهاية أولى لكلِّ إنسان، مهما كان مقامُه وحسَبه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 29/ 57]. ولذا وجب على كلِّ مسؤول في أيِّ منصب كان، أن يستمع دوماً لصوت ضميره، المنبعثِ من داخله، وأن لا يتنكَّر له، ففيه الخلاص للبلاد، ومعه السعادة للعباد، وبه رضوان ربِّ البلاد والعباد.

* **الشرف لصيق بالأخطار، فلا مبرِّر للغفلة**: كلَّما ارتقى امرؤٌ منصباً، أو نال حظوة، ازدادت نسبة المخاطر في حقِّه وفي حقِّ من حمَّل تبعاته؛ تماماً مثل اعتبار أنَّ الزيادة في السرعة ملازمة للزيادة في احتمالات الانزلاق والحوادث؛ ولا يجوز

لربَّان يقود سفينة، عليها شعبٌ وحضارة ومصير، أن يغفل أو يغفو لحظة، وإلَّا أودى بالناس إلى الهاوية. ولا يبرِّر الغفلة أيُّ اعتبار، كما لا يُسمح بالنوم إلَّا لمن انتفى أن يقبض بالمقود بين يديه.

* **بسبب أخطائنا تقدَّم أعداؤنا بصورة مذهلة، وتخلَّفنا نحن**: أخطاءُ الفرد الواحد، في شأن يخصه وحده، لها أثر ولا ريب، غير أنه قد لا تتعدَّى حدوده ولا تنتشر أضراره؛ أمَّا أخطاء المجموع فرداً فرداً، أو مجتمعين، فيما يتعدَّى ضرره، ويصيب مفاصل المجتمع بالشلل، فهو الحالقة، ذلك أنه ينتصب سبباً من أسباب تخلُّف الأمة، ويعطي الفرصة للأعداء أن يتقدَّموا على حسابنا؛ وهذا الأمر مشاهَد إلى اليوم ولا ريب. فلا بدَّ إذن من توبة حضارية لمعاصي من صنف الآثام العامة.

* **يجب أن تقطع علاقتك حالاً مع الأسلوب القديم لإدارة الدولة، لقد آن الأوان لإعطاء قوة جديدة للدولة**: كلُّ مؤسَّسات الأمَّة اليوم، من الدولة إلى الجمعية، ومن المدرسة إلى المسجد؛ تعاني من عُضال يمكن تسميته «مرض سوء الإدارة»، ومن علاماته الظاهرة: غياب التخطيط، وتعارض الآراء إلى حدِّ التناطح، ونقص الفعالية، وفرعنة المسؤول وغطرستُه، ومراعاة الاعتبارات على حساب المبادئ، والعجز عن التقويم، ورفض النقد، والإقصاء والصدام، واللافعالية... وغيرها كثير. ومهما كانت نوايا ربَّان السفينة، فإنهم لو أساؤوا في «إدارة» سفينتهم بما فيها وبمن فيها؛ أي إدارة المركبة، وإدارة العلاقات، وإدارة النظام... إلخ، إنهم لو أساؤوا، فلا بدَّ أن يأتيهم الهلاك من مصدره.

* **تقدَّم أعداؤنا إلى الأمام وخلَّفونا وراءهم**: هي قاعدة كلية قرآنية ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: 47/ 38]، فلا أحد من الناس، أخذ عهداً من الله أن ينصره دائماً، أو أن ينصره حتى بدون اتخاذه الأسباب، ولقد كان هذا اعتقادُ اليهود ولا يزال؛ والقاعدة سارية المفعول على المسلمين، وعلى

غيرهم؛ فإن هم تقاعسوا وناموا، هبَّ غيرهم إلى مفاصل الحياة فأحياها، وصاروا عبيداً له وتبعاً و«المغلوب مشدود بولعه بالغالب». والحقُّ أنَّ القرآن قرر أنه ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 4/ 123].

* **لا تزال هناك مسافة شاسعة بيننا وبين العصر الذي نعيش فيه**: يتغنى الناس بالماضي التليد، ويغفلون عن الحاضر، ولا يأبهون بالمستقبل؛ فتتحوَّل وجهتهم رويداً رويداً إلى الوراء، كسيارة يركِّز صاحبها على «مرايا النظر إلى الخلف»، ولا يعتني بالمرايا المتوجهة نحو الأمام؛ ولا ريب أنَّ الإنسان ابن عصره وابن بيئته، وأنَّ الكثير من المسلمين باتوا اليومَ «ماضويين» في وسائلهم، وفي أفكارهم، لا يمتُّ حالهم إلى حال عصرهم بصلة؛ وليس المطلوب تغييرُ المبادئ، فهذه لا تتغير، ولكنَّ الوسائل هي التي تتطور وتتبدل وتتغير؛ أما رفض تغييرها فهو نوع من تحنيط الحضارة، ثم الادّعاء أنَّ المومياء المحنَّطة بها حياة، وأنَّ فرعونَ لا يزال قادراً على إدارة شؤون البلاد من عالم فنائه.

هذه سبع ملاحظات أساسية استنبطتها من رسالة فؤاد باشا، وهي تحمل أكثر من ذلك بكثير، وتستدعي العقل التوليديَّ لكلِّ عالم، والقلب الحيَّ لكلِّ عامل؛ فتكتمل سيمفونية الحركة، وتتناغم الجوارح مع معطيات العقل والقلب، وتلتصق جميع ملكاتنا بمكوك الإرادة، المنطلق من «حراء» النبوة والوحي؛ فيتحقق بحول الله تعالى لنا، نحن أتباع القرآن وأتباع نبي القرآن، عليه أفضل الصلاة والسلام؛ يتحقق لنا ما وعدنا ربُّنا، من تمكين ومن خلافة في الأرض، رضا منه عنا ورضا منا عنه، تعالى شأنه، وهو القائل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 9/ 72].

من سياسة إطفاء الحرائق
إلى التخطيط الاستراتيجي المؤيَّد

سؤال من أخي الباحث عن الحقيقة، ممَّا جاء فيه:

«قد وصلنا في قراءة «النور الخالد» إلى فصل «الأمانة» من صفات الرسول ـ ﷺ ـ، وكان رائعاً في استجلاء جوانب الأمانة والحثِّ على تمثُّلها في حياة المؤمنين المعاصرين، وشباب «الخدمة»، وبخاصة في الفقرة الأخيرة منه. وإنَّا لَنشعُر دوماً بأهمية هذه التوجيهات، ونتصوَّر أنها لو كانت بحقٍّ ديدن المسلم لاستمرَّ نور الرسول ـ ﷺ ـ نهراً من الخيرات لا ينقطع، ولَتَعلَّم العالِمون العاملون من المسلمين كلَّ ما يزيح هذه الأباطيل والأضاليل التي نتخبط فيها».

ثم قال، وهو من أرباب الهَمِّ وأصحاب الهمَّة، لا خفر الله له ذمَّة:

«لقد أحسستُ أنَّ فقه الأمانة كافٍ لأن يُسهم بقوة في حلِّ هذه الإشكالات، ويحمل المسلمين إلى تمثُّل دينهم، ويرقى إلى المطلوب منهم أن ينجزوه للعالَم ولأنفسهم، نسأل الله أن يلهمنا ذلك».

«أقول هذا أخي محمد ونحن نعيش ـ والأسى يملأ الجوانحَ ـ خلافات وشقاقات وقلاقل تُدمِي القلوب وتقضُّ المضاجع، ذلك مع عجزنا عن احتواء أزمة التعايش في أوطاننا... فلا نزال في حيرة من أمرنا: كيف نُقنِع الأطراف بالتفطُّن إلى المكايد، ليتجنبوا الوقوع في الفخاخ، ويقفوا في وجه المتربصين؟! فالكل يرى الحق إلى جنبه مقصوراً».

«أخي محمد، معذرة وقد شغلتُك بهذا، ولكنه واقع أُمَّتنا، وما لنا بدٌّ من السعي في إصلاحه قدر مستطاعنا، ولن نصل إلى ذلك إلا بالنُّصح والتناصُح، فاشفوا الغليل برأي منكم حصيف، يدَّخره الله لكم سبباً للفلاح، ومَن أحسَنُ عملاً ممن سعى في رأب الصَّدع وجمعِ الكلمة، فجزاكم الله خيراً، وجعلكم مفاتيح لكلِّ خير... والسلام»[1].

****

الجواب من عَيِيٍّ قاصرٍ مِثلي... وربي الرحمنُ هو الأعلم والأحكم:

أستاذي وحبيبي، سلام وتحية تقصُر عن حملها الرواسي... مِن أخ لك لم تلِدْه أمُّك، وصديقٍ لك، معترِف بقدرك، مقصِّر في حقِّك... أخيك الأصغر محمد.

بعد حِلٍّ وترحال مسترسل من تونس إلى سلطنة عمان، ثم إلى المغرب الجار ذي القربى، متجوِّلين بين مدنه العديدة الجميلة، ها قد حططتُ الرحال[2]، وتنفسَّت الصعداء، ثم جلستُ لأُوفِيَ بوعدي لك، أن أكتب جواباً لكتابك السالف، مستعيناً بالله سائلاً لطفه وسنده ورحمته.

أخي اللبيب، سألتَ عن «أمر عظيم» في «أمر عظيم» هو حال أمتنا هنالك في رَبْع من ربوع بلاد الإسلام الفسيحة، وهو ذات الحال في أكثر من قُطْر وبلد من أقطار المسلمين وبلادهم: الفُرقة، وضيق الأفق، والفتن الرخيصة، والأيادي الخفية، والأحلام الخفيفة.

ولِي في ذلك ـ والله أعلم ـ مِمَّا أنا فيه، ومن بعدِ تشرُّب فكر الأستاذ، ومعايشة أنفاس «الخدمة» مشرقاً ومغرباً، لي في ذلك رأيٌ، لعلَّ فيه بعضَ الصواب، وإلا فارْمِ به أرضاً ولا تلتفت إليه أبداً، وهو أنَّ إدارة الأمم، والمجتمعات، والجماعات،

(1) الرسالة من أخي وصديقي الدكتور مصطفى ناصر وينتن.

(2) في استانبول، تركيا.

والمؤسَّسات، والهيئات... لا تكون إلا في مستوى المسؤولية، والخطورة والأهمية التي نعطيها لها، فإنْ نحن أمددناها بعُشْر وقتنا وطاقتنا لم تُعطِنا إلا العُشر، وإن نحن سلَّمناها النصف قابلَتنا بالنصف، وإن جُدنا بالكل فإننا ـ بحول الله ـ نجدها تسخو علينا بكل ثمارها ولا غرو.

الصراحة والصواب والنصح تحتِّم علينا مجتمعةً، أن نعترف أننا ندير اليوم وضعية معقَّدة، ومصيراً مجهولاً، وسفينة موَّارة تَرنَّحُ بها الأمواج يمنة ويسرة، ومجتمَعاتٍ تفور وتغلي، وهيئات شاخت واهترأت، نَقودها ـ أو كأننا نقودها في ما يبدو ـ بكثير من الهمِّ، وببعض الجهد، وبقليل من التخطيط والتنظيم، والتوافق والعمل الجماعي، والبحث المنهجي.

لكأنَّ المهمَّ هو أن نكون، لا أن نكون كما يجب أن نكون، هذه هي عقدة المسألة.

إنَّ نصف الرِّجْل هنا ونصفها هنالك، ونصف اليد هنا ونصفها الآخر هنالك، ونصف العقل لهذا ونصفه الثاني لذلك، وبعض القلب لهؤلاء والبعض المتبقي لأولئك... لا يصنع التغيير ولا يُرتجى من شطره بزوغ الفجر الجديد.

أخي وحبيبي، لو سألتُ عنك أين أجدك؟ فإني ـ ولا ريب، وهذا من أمارات كرمك وسخائك وحبك للخير وابتغائك الرضا والقبول ـ إذا سألتُ عنك، فسأجدك في كل مكان، لكن للأسف لن أجدك في أيِّ مكان، فأنت في الجامعة وأنت في الجمعية، وأنت في المدرسة، وأنت في الشركة، وأنت في الحيّ وفي الحزب، وأنت متجوِّل عبر المدن والبلدان، وأنت حامل هَمِّ القريب والبعيد... وهذا كله ـ وايْم الله ـ صبر واجتهاد وأجر ومثوبة.

لكن أين الخلل؟

الخلل هو أنك لم تُعطِ أيَّ مَهَمَّة حَقَّها ومستحَقَّها، ولم تَهَبْ لأيِّ رسالة جميعَ مَلَكاتك ومواهبك وطاقاتك... فلا العلم والتحقيق العلمي وجد منك «الباحث

المرتقَب»، ولا المجتمع والمؤسَّسات وجدت منك «المتفرِّغ الدائم»، أي إن منطق «إطفاء الحرائق» بات هو سيد الموقف، وهو صاحب القول الفصل فيَّ، وفيك، وفيه، وفينا جميعاً.

أمَّا ما وصفته بالمشكلات والقلاقل، في حيِّزك وفي كثير من حوز بلاد المسلمين اليوم، فهو جرح غائر عميق لا شفاء منه إلا على أيدٍ متوضئة خبيرة تصل الليل بالنهار جلوساً وتخطيطاً وتنفيذاً، لتأتي بما يلزم في إجراء ما يشبه «العملية الجراحية المخِّية أو القلبية».

فهل يا ترى يتسنى للطبيب العامِّ أن يقود هذه المهمَّة الشاقَّة الخطيرة؟!

ألا تجد أخي أننا اضطُررنا رغَباً ورهَباً، وبفعل جريان الأحداث فينا، على وقع «مُكرهٌ أخاك لا بَطَل»، اضطُررنا إلى أن نتحول إلى «أطباء»، لكن في «الطب العامّ» لا المتخصِّص، وعجزنا عن تحقيق الخرِّيتية الضرورية للنهوض بالأمم والمجتمعات.

فأين الحلّ إذن؟

الحَلُّ هو أن نَصدُق ربَّنا ونَصدُق دينَنا ونَصدُق أمَّتنا ونَصدُق أنفسَنا... ثم نغلق على أنفسنا أياماً طوالاً لنصوغ «مخطَّطاً استراتيجيّاً شاملاً» قابلاً للتنفيذ مع نيَّة التنفيذ، مخطَّطاً يجمع إلى الغاية الوسيلةَ، وإلى الأهداف الواقعيةَ، وإلى التوكُّل والاستسلام المطلق لله الامتثالَ لأمره والعملَ بمقتضى سننه وشِرعته.

لعلَّ المناصب والوظائف تتبدَّل جرَّاء هذا الاختيار الصعب، بل لعل كثيراً من المكتسبات المادية والدنيوية والمعنوية يُضَحَّى بها، ولعل ما يشبه التوجيه النظامي يكون هو المحدِّد، ولعلّ القَدَر يجمع بين ثُلَّة مِنَّا في «مركز ـ أو مراكز ـ للتفكير الدائم المتواصل».

قد نجوع في هذا السبيل، ولكنا لا نغادر، وقد نغرق فيه ولكنا لا نساوم.

أخي، ما كنت أدعو إليه لسنوات مضت، بصوتٍ مبحوح خافتٍ قاصر لقصوري ... ما كنت أنادي إليه نظريّاً بلا نموذج سابق مع عجز مني حقيق، الذي كنت أبحث عنه هائماً عاشقاً... ها أنا اليوم أجده عمليّاً ماثلاً في الواقع، أجده في نهضة تجديدية جادة ضمن دوحة «الخدمة» وجنَّتها، نهضةٍ لا تعرف العفوية ولا تؤمن بالأشباه والأمثال والنظائر، هي إلى السماء وإلى ربِّ الأسباب متوجهة قاصدة حثيثة، وهي على الأرض وضمن دائرة منظومة الأسباب عاملة ناصبة كادحة، معتقدة أنَّ ذلك من تمام التوكُّل على الله، سِمَتُها «الرَّبَّانيةُ» مع «الرُّبَّانية» مقترنتَيْن بـ«الفتح» ثم «الضَّمّ»[1].

فهل نحن كذلك؟

لا شك أننا مؤهَّلون لذلك في دائرتنا القريبة والبعيدة، ولكن واحسرتاه، نحن كذلك بالقوة لا بالفعل، بالتمنِّي والرجاء لا بالعزم والحزم... لذا، فلا أملَ يُرتجى من نقص وتقصير مع القدرة على الكمال والتمام. هذا ـ ولا ريب ـ ما تجده في قلبك أخي وحبيبي، وهو ما أجده مَطلعَ كل شمس ومغرب كل شمس.

فلنكُن إذن صادقين، «والله يحبُّ الصادقين»، ثم لنكُن مع الصادقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 9/ 119]، وذلك هو الفَلاح المبين: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة: 5/ 119].

أخي وقُرَّة عيني، تحياتي إليك وإلى المرابطين من أحِبَّتي وأساتذتي ورفقائي، من يعرفني ومن لا يعرفني مِمَّن معك، والسلام عليك وعليهم جميعاً.

---

(1) أراجع هذه العبارات، بداية عام 2016م؛ وأنا أتحسر على ما آل إليه الأمر في تركيا، من صراع وصدام حرمنا نهضةً للأمة كانت قاب قوسين أو أدنى. فاللهم رحماك.

الكوميديا الإنسانية

نفتح جهاز الكمبيوتر، ونلج إلى مواقع الأخبار، ثم نطالع مقالات وأعمدة حول «سلوكٍ عدوانيٍّ عدائيٍّ» في العالَم من حولنا؛ ثمَّ نرسم باللون الأحمر المناطق الساخنة، وبالأخضر المناطق الباردة؛ فتشتدُّ حيرتنا أنَّ أغلب اللون الأحمر يقع على جغرافية العالم الإسلاميِّ، وأنَّ أغلب اللون الأخضر يقع على جغرافيات مُلحدة (الصين، اليابان...)، وتقع جغرافية الديانات السماوية ـ المسيحية غالباً ـ بين اللونين؛ حتى وإن كانت غالباً هي الصانعة للنار، والمصدِّرة للرمضاء.

ثم نتساءل: هل توجد علاقة تلقائية أوتوماتيكية بين عقيدتنا وسلوكنا، بخاصة أوان الفتن؟

بمعنى أنَّه، هل بمجرَّد أن يسجَّل اسمك تحت خانة «مسلم» تصبح مستسلماً لله، مسالماً لعباده، أي «مسلماً» اسماً ومعنى؟

وهل المسلمون، فيما هم فيه اليومَ، مجرمون مذنبون، أم هم الضحايا المظلومون، أم هم مزيج بين ذاك وذلك؟

يقرر علي عزت بيجوفيتش أنَّ هذا السؤال، وهذه الجدلية، وهذا التشويش «تحيِّر عقول المفكِّرين الجادِّين، حتى أكثرهم استنارة».

والمقرَّر لدى «علماء الأفكار» أنَّ سلوك الإنسان ليس بالضرورة وليد اختياره الواعي وعقيدته المدرَكة. فهو في كثير من الأحيان ثمرة «تنشئته، ومواقفه التي تشكلت في مراحل الطفولة»، وهو كذلك منسوب «الأفكار التي انطبعت عنده من خلال سياقه التاريخي، والاجتماعي، والنفسي» بتعبير مالك بن نبي... وهو

ما نسميه في أدبيات نموذج الرشد أثر مباشر: «للوعاء الحضاري» و«للنسيج الحضاري...»[1].

فما من شكّ أنَّ من نشأ ـ مثلاً ـ في بيئة شيوعية، يكون أقربَ إلى السلوك الجشع مِن الذي نشأ في بيئة مفتوحة اقتصاديّاً؛ وأنَّ من تربَّى على مبادئ ليبرالية يكون ألصق بالأنانية الفردية ممن تربى على التجمع والاجتماع. ولقد عالج ابن خلدون في مقدمته أثر البيئة والتنشئة في سلوك الأفراد، وحلل فعل «البداوة» على الإنسان تحليلاً بديعاً.

يقول بعض النقَّاد: «يوجد ملحدون على أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي»[2]، وبالمقابل نستنتج أنه: «يوجد معتنقون للدين على غير أخلاق، ولكن لا توجد أخلاق منفصلة تماماً عن فكرة الإله والخلود»؛ وهذا يعني أنَّ علاقة الإنسان بالدين ذات مستويين: عقديٍّ تعبديٍّ، وسلوكيٍّ أخلاقيٍّ...

وليس الالتزام بالمستوى الأول (العقدي التعبدي) مقدِّمة ضرورية للالتزام بالمستوى الثاني (السلوكي الأخلاقي)؛ كما أنَّ التحلي بالمستوى الثاني لا يعني أنَّ صاحبه منقطع تماماً عن المستوى الأول. «فكل خلُق حميد له جذور في الدين»، سواء أدرك الناس ذلك أم لم يدركوا، «وليس كل تعبد مثمراً للخلُق الحسن بالضرورة»؛ ولذا نقرأ في الحديث الشريف: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلَّا بعداً**».

ولكنا نجد جواباً أكثر وضوحاً لدى بديع الزمان النورسي، حين يفرِّق بين «الصفات الإيمانية، والصفات الكفرية»، ويقول معنًى: «إنَّ الخير الصادر من الكافر هو ثمرة صفات إيمانية انغرزت فيه وبقيت آثارها عليه؛ وإنَّ الشَّر الذي يصدر من

(1) انظر- محمد باباعمي: الوعاء الحضاري، منطق البحر والأمواج، أو السباحة ضد التيار.

(2) انظر- علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب.

المسلم هو نتيجة الصفات الكفرية التي ترسبت في نفسه، ولم يمحها إسلامه؛ ومن ثمَّ فإنَّ الخير مربوط دائماً بالصفات الإيمانية، والشرَّ معقود أبداً بالصفات الكفرية». ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 5/ 27].

ويسمي عبد الحميد أبو سليمان الصفات الإيمانية «صفات الأصحاب»، والصفات الكفرية «صفات الأعراب»؛ ويُرجع شقاء الأمَّة إلى «تغلُّب صفات الأعراب فيهم على صفات الأصحاب»؛ ثم يذكر أنَّ العهد الأموي امتاز بالحنين إلى صفات الأعراب، فضمُرت صفات الأصحاب، وتغلَّب الاستبداد والجور على الحق والعدل.

ويقارب الأستاذ فتح الله كولن المشكلة بـ«قاعدة كلية» تفسر هذا التوجيه، وهي أنَّ «الخيرية رهينة بصفاتها» لا بموصوفاتها؛ فالخير خيرٌ، سواء صدر من مسلم أم من كافر، والشرُّ شرٌّ سواء اقترفه مسلم أم كافر. وهذا بالطبع لا يعني أنَّ الله يتقبل الخير من غير المؤمن في مستوى الجزاء الأخرويِّ؛ ذلك أنَّ القبول رهين بالتقوى: أمَّا في مستوى الثمرة الدنيوية والاستخلافية فالقاعدة هي: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 17/ 20]، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: 4/ 123].

والحقُّ أنَّ أوان الفتن والخلافات والصراعات تكون محكّاً للمرء فيفضح مكنوناته، ويصدر منه خلاف ما يُظهر؛ إلا أن يكون صادقاً، وتبدو الهوة غالباً بين تعبُّده وسلوكه؛ وهو ما يفسّر الكثير من «الظلم»، و«الغيبة»، و«الكذب»، و«الافتراء»، و«النميمة»... التي نقرؤها ونسمعها ـ للأسف ـ حول أحداث اليوم، وهي تصدر ممن ينتسب إلى «الإسلام» في حقِّ من ينتسب إلى «الإسلام»؛ ولهذا عدّ القرآن الكريم النفاق تردٍّ إلى أسفل سافلين، وجعل من أكبر المقت أن يظهر الإنسان خلاف ما يخفي: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 61/ 3].

فلنراجع إذن أقوالنا وأفعالنا أوان الفتن، ولنقِسها بمعايير القرآن الكريم والسنة الطاهرة، ولنحذر من ترسُّبات الأفكار المطبوعة فينا بوعيٍ أو بغير وعيٍ، جرَّاء التربية والإعلام والسياسة... فقد تنتقم انتقاماً شديداً، وقد تستيقظ فينا مثل التنين، ذلك أنَّ الأفكار المخذولة تجثو على النفس، وتنقضُّ على صاحبها من الداخل، مثل: «ثعابين البطن»، ثم تزهق روحه رويداً رويداً، إلى أن يتردى في الهاوية ويهلك، من حيث لا يدري...

أمَّا الأفكار الحية المحيية، فتلازم صاحبها وتحميه، ثم تنقذه في أسوأ الظروف والأحوال؛ وأكبرُ فكرة حيويةً عرفتها البشرية على الإطلاق هي: فكرة التوحيد.

يقول مهندس الحضارة، أستاذي مالك بن نبي رحمه الله:

«لقد غربت الشمس حقاً، ولكن الدفء الذي يشعّ في جوف الليل مصدرُه شمس النهار السابق.

إننا نظل نستشعر الدفء في الغرفة بعد انطفاء النار في المدفأة.

إنَّ الأخلاق دينٌ مضى، كما أنَّ الفحم في باطن الأرض حصاد قرونٍ ماضية».

وسيبقى صوت «الحقِّ» مدوياً في جميع أركان الأرض، مهما اكفهرَّت السحب، ومهما ادلهمت الليالي، وسيكون «الدين» أبداً مصدراً لكلِّ «خير»، والتنكر له مصدراً لكلِّ «شرٍّ»؛ ذلك أنَّ «الصدق» لا يفهم إلَّا باعتبار «إلهٍ»، و«حياةٍ أخرى»، وشيء «فوق المادة والفناء»... وإلَّا، فإنَّ الصادق يكون مهرجاً، أو بهلواناً، أو أيَّ شيء آخر... إلَّا أن يكون إنساناً كريماً.

القسم الثاني
في الحضارة، والثقافة، والمعرفة

الحقيقة والصورة
سؤال الوجود، وسؤال المعرفة

كتب كارل ماركس عن الشرق، وهو يقرر بروح الغربي المتفوق: «إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ولا بدَّ أن يمثلهم أحد».

الأسباب هي يد الله في قدره، فلا يحقُّ لنا أن نردَّ يده، ونطلب ذاته لكن، كم من الناس يدرك أنَّ ثمة مسافة بين «اللفظ والوجود»؟

وكم منهم يدرك ابتداءً أنَّ للكلمة ظلالها وخلفياتها وبيئتها في النموذجِ الإدراكيِّ للقائل، ثم أنَّ لها ظلالاً وخلفيات وبيئة أخرى في النموذج الإدراكيِّ للسامع أو القارئ، وبالتالي فكلمة «فنٍّ» مثلاً، إذا حاولت توصيفها، فإنَّها تقع على ذهن السامع بحيثيات غير الحيثيات التي جعلتك تتخذها موضوعاً ومُخرجاً، وتلقي عليها أحكاماً.

ولكن المسافة تزداد بُعداً، إذا تعلق الأمر بسياقٍ ثقافيٍّ حضاريٍّ عريق، كأن يتم الحديث عن «الشرق» مثلاً، أو عن «الإسلام»، أو «المسيحية» أو ما شابه من المصطلحات الواقعة في حدود التماس بين جغرافيات محتكّة عبر التاريخ. وهنا تكرَّم كارل ماركس ليعفي «الشرق» من مهمَّة «التمثيل والدفاع» ويمنح الغرب حقَّ «المحاماة»، معتقداً أنَّ «الشرق هو ما يعرفه الغربي عن الشرق، وليس هو حقيقة الشرق كما هو».

ولقد انبرى الإعـلام اليوم، بشتى وسائله وتقنياته، ليقوم بـدور المحامي و«المتحدث باسم»، وليشكل «صوراً وتمثُّلات» للأحداث والوقائع، وليجعل

الناس يعتقدون أنَّ «الصورة هي الحقيقة» سواءً بسواء، بل وأنَّ الصورة باتت أهمَّ من الحقيقة، ذلك أنها (أي الصورة) هي التي تشكِّل الفعل، وهي التي تحرِّك العاطفة، وهي التي تهزُّ العقل، وليس الحقيقة كما هي.

ولقد فهمَت مراكزُ التفكير العالمية هذه المسافة، وأدركت خطورتها، فصيَّرتها مجال بحوثها، وحقول مناوراتها، ومن ثم تولدت «صناعة الصور الذهنية»، فكانت أخطرَ صناعة حربية على الإطلاق:

فصورة الإرهابيِّ مثلاً تجيز كلَّ أنواع الفتك والدمار، حتى لو لم يتمَّ تحديد «من هو الإرهابي؟...».

وصورة حقوق الإنسان تجيز كلَّ أنواع التدخُّل، حتى ولو لم يتم الجواب عن سؤال: «ما حقوق الإنسان؟ وأي إنسان؟ وبأيِّ معيار؟...».

ولنعُد إلى ما قاله كارل ماركس عنَّا، أي عن الشرق والشرقيين: «إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ولا بدَّ أن يمثلهم أحد». فنجد أنه صدق في حكمه، لكن ليس «لأنهم لا يستطيعون» بحكم تكوينهم، وتركيبتهم، وضعفهم المفطور، وأنهم من جنس أدنى... كما هو الأمر عند نيتشه، مثلاً. أو عند وليام جيب، حين قرر أن «الذَّرية واللفظية» سمة خِلقية للشرقي وللعربي بالخصوص. صدق ماركس (وهو كاذب)، باعتبار أنَّ «حالة التخلف والتشرنق والانهزام» التي لحقت الشرق، والعالم العربي بالذات، هي سببٌ ونتيجةٌ طبيعيةٌ لعجز الإنسان الشرقي عن «تمثيل نفسه» بلغته وأدبه، وبإعلامه وقانونه، وبحضوره الدولي وسطوته الكونية... ومن ثم يبحث عمَّن يمثله، ولقد كانت روسيا المحامي الشرعي للكثير من بلاد العالم الثالث، كما كانت ولا تزال أمريكا الممثل الشرعي للكثير من الدول في العالم المتخلف...

وانظر إلى القنوات التلفزيونية العربية الصادرة مِن بعض بلادنا العربية، أو بعض البلاد المتخلفة الأخرى، تجد أنها «الناطق الرسمي» للسياسة الأمريكية، فكلَّما حدث أمرٌ يمسّ أمريكا طبَّلت له وغنت، وكلَّما صدرت كلمة من وزير الخارجية الأمريكي أو من الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض، ناهيك عن الرئيس، أوقفت جميع بثها لتنقل الخطاب على المباشر... وهكذا، ليس لأنَّ ما يقال هو «الأهم» ابتداءً، ولكنه يصبح مهمّاً بالضرورة بالاستثمار في ضعفنا، وبالزرع على أرض جهلنا، وبِلَيّ عنق وجودنا، وبإقصاء كلِّ مقدَّراتنا...

فنحن (الشرق) إذن، باختصار «سفهاء قصَّر» لا يليق بنا أن «نقول»، أو «ندافع» أو حتى «نَصِفْ» واقعنا... وإذا ما تجرأنا فذلك لا يكون إلَّا بعد إذن من «سيدنا»، وبعد «عرَق مُهراق» يسيل من جبيننا، وتلعثم في لساننا، وتردد في ترتيب أفكارنا... ومن عبثِ الدهر أنَّ سلطاناً عربياً كان لا يُبين، وقيل عنه عند وفاته إنه «حكيم العرب»، ثم صفق الكثير وهللوا لذلك، بلا حياء.

فلنستوعب الدرس، ولنقسِ المسافة بين «الحقيقة والصورة»، ولنعمل على أن نرشد قولاً وفعلاً، فنمثل أنفسنا، وحضاراتنا، ودِيننا، وتاريخنا... لا أن ندفع الثمن لمن يمثلنا، ولا يكون ذلك إلَّا بالعلم الجاد، ضمن حراك جماعيٍّ حقيق، وإلَّا فلا صبح لِلَيلنا، ولا غد ليومنا، ولا حقَّ لوجودنا.

قانون الحركة ، ومنطق الحضارة

استوقفني طالب في مسجدٍ، بعد الصلاة، بعدما ألقيت محاضرة بين العَشاءين؛ استوقفني وأغرقني في بحر من المشاكل والسلبيات التي يسجِّلها وينتقدها على مجتمعه، متحسِّراً متأسِّفاً، عليه علاماتُ اليأس والقنوط، كأنما طلع الليل البهيم من هضبة ناصيته؛ فسألتُه بنية تلطيف الجو:

«أنت طالب علمٍ؟»،

قال: «نعم».

قلت له: «كم ساعةً تجلس للمطالعة والبحث يوميّاً؟»،

فأجاب: «ما علاقة هذا بما طرحته من همٍّ واهتمام؟».

قلت: «واللهِ، لو أنك تجتهد وتعمل يوميّاً عشر ساعات متواصلة، أو أكثر من ذلك، فإنَّ المشاكل والسلبيات ستحول وتزول يوماً ما بحول الله تعالى، وستكون أنتَ إن شاء الله ممن يغيِّر الله به حالنا إلى حال أفضل وأحسنَ؛ أمَّا إذا كنتَ تعمل ساعتين أو ثلاثاً في اليوم، أو أقلَّ من ذلك، فلا ريب أنك ستكون جزءاً من المشكل، وستصبح أنتَ بعضاً من السلبيات المعرقِلة لركب الحضارة، إن لم يكن اليومَ فغداً».

****

أفكِّر جدياً في سؤال الأزمة من منظور «نموذج الرشد»، الذي يتلخص في «حركية الفكر والفعل»، ثم أعيدُ النظر في مدلول «الحركية» و«الحركة»؛ وفي الأبعاد المادية والفكرية والحضارية للحركة.

ففي الفيزياء تشير «الطاقة الحركية» (cinétique L'énergie) إلى نوعٍ من الطاقة التي يملكها الجسم بسبب حركته، وهي تُساوي الشغل اللازم لتسريع جسمٍ ما من حالة السكون إلى سرعة مُعينة؛ وينسب إلى «لايبنيز» (1689م) مفهوم «القوة الحية» (viva vis)، وإلى «لورد كلفن» (1849م) مفهوم «الطاقة الحركية».

ويمكن حساب «طاقة حركة» الأجسام، في شتى الحقول والمجالات، وقد وضعت لذلك معادلات رياضية يعرفها أهل الاختصاص؛ من ذلك قياس «طاقة حركة الأجسام الجاسئة»، و«طاقة الحركة الدورانية»، و«طاقة حركة السوائل»، و«طاقة حركة الأجسام طبقاً للنظرية النسبية»...

لكن، هذا لا يعني أنَّ أوَّل من ابتكر مفهوم الحركة، وحساب الحركة، في التراث البشريِّ، مقتصر على العلماء الغربيين، في عصر النهضة وما بعد النهضة؛ وإنما يعيد بعضُ علماء «تاريخ العلوم» أصل «قوانين الحركة الثلاثة» المنسوبة لـ«إسحاق نيوتن» إلى علماء مسلمين؛ بخاصَّة الرئيس ابن سينا (1037م) في كتابه (الإشارات والتنبيهات)، وابن الهيثم (1040م) في (المناظر)، وأبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي (1164م) في (المعتبر في الحكمة).

ولا يمكن أن نتخطى مهندس الميكانيكا والحركة بديع الزمان ابن الرزاز الجزري (1206م)، مخترع «المضخات»، و«النواعير المائية»، و«الآلات ذاتية الحركة»، و«الآلات الضاغطة»، و«الرافعة»، و«المحركة»؛ وقد بسط كلَّ ذلك في كتابه البديع (الجامع بين العلم والعمل النافع، في صناعة الحيل).

إلَّا أنَّ صورة الزمن وصوت التاريخ مِلكٌ للذي يجتهد ويعمل، والنسيان حليفُ من يخمُل ويكسَل؛ ففي عصور الحركة والاجتهاد برز علماء كبار، سجَّلوا أكبر الاختراعات في شتى المجالات، وحين تخلَّف المسلمون واشتغلوا بالجدل، ومارسوا التقليد؛ انتقلت الحضارة إلى غيرهم؛ ثم صاروا تبعاً للإنسان الغربيِّ

المتحرِّك الفعَّال، حتى ولو كانت حركته في الاتجاه الخطأ، وبأغراض استعمارية إمبراطورية معلَنة غالباً[1].

****

ما هو التفسير الفلسفي للحركة؟ وكيف نفسِّر الحركة؟

ليس هذا المقال مقالاً فلسفيّاً؛ ولذا لن أطيل البحث في هذا السؤال من هذه الزاوية؛ لكن ينبغي التنبيه إلى أنَّ الفكر الماديَّ تبنَّى «مبدأ التفاعل الذاتيِّ»، ودافَع عن وجود تناقضٍ داخليٍّ في الأشياء يدفعها إلى التحوُّل بصورة مستمرَّة، ومنشأ هذا التفسير هو «مبدأ عدم التناقض» ويمثل له بالآتي:

«خذ قضيباً ودحرج به حجراً تحدث حركةٌ؛ ولكن لا ينتهي الأمرُ عند هذا الحدِّ، بل يبقى السؤال هو: لماذا حين اصطدم القضيب بالحجر حَرَّكه؟

تقول الفلسفة المادية: «إنَّ السبب هو التناقض؛ إذ إنَّ القضيب احتلَّ مكان الحجر، فلم يكن للحجر إلَّا الفرار[2]، ذلك أنَّه استحال أن يجتمع ضدَّان في موقعٍ واحد، وحين نمعن النظر نرى أنَّ كلَّ حركة إنَّما تحدث بهذا السبب».

إلَّا أنَّ نسبة العلَّة إلى ذات الشيء المتحرِّك، توقِعنا في الدور؛ لأنَّ علَّة الثابت ثابتة، وعلَّة المتغيِّر متغيِّرة متجدِّدة؛ ولقد برهن صدر الدين الشيرازي (1640م) أنَّ الحركة في الرؤية الكونية التوحيدية «ليست جوهريةً فحسب، بل أوضح أنَّ مبدأ الحركة في الطبيعة من الضرورات الفلسفية للميتافيزيقيا؛ وفسَّر على ضوئه

(1) انظر: أوليفي لوكور غرانميزون: الجمهورية الإمبراطورية، في سياسة الدولة العنصرية؛ دار القصبة، الجزائر. 2009.

(2) لاحظ بأنَّ اليد التي تحمل القضيب، أي السبب الخارجي الأول غائب عن منظومة الفلسفة الغربية؛ فالعلم يبدأ من مرحلة القضيب لا قبله؛ وإنما اليد والسبب الخارجي من مهمَّة الدين؛ وما دام الدين باسم العلموية قد قيد وألزم على السكوت، فلا يوجد من يتكلم عن السبب الأول، وعن ما وراء الحسِّ؛ إلَّا أن يفكَّ قيده، ويسمح له بمساحة القول على الأقل. وانظر- هوستن سميث: لماذا الدين ضرورة حتمية؟

صلة الحادث بالقديم، وعدَّه من المشاكل الفلسفية، كمشكلة الزمان؛ وبهذا قدَّم (الشيرازي) تفسيراً جديداً للزمان، يردُّه فيه إلى الحركة الجوهرية للطبيعة، وبهذا أصبح الزمان في مفهومه الفلسفيِّ هذا مقوِّماً للجسم، أي بُعداً رابعاً لعالم المادة، ولم يعد شيئاً مجرّداً مستقلاً عنه، بل وهو نسبيٌّ تبعاً لنسبية الحركة وتغيراتها التدريجية، وهو عين ما أثبته لاحقاً «أنشتاين» وبرهن عليه رياضياً، في نظرية النسبية العامَّة، والخاصَّة.

والحق أننا ندرك أنّ الحركة لا يمكن أن تكتفي ذاتياً عن السبب، وأنَّ الوجود المتطوِّر لا يخرج من القوَّة إلى الفعل إلَّا لسبب خارجيٍّ، وليس الصراع بين التناقضات هو العلَّة الداخلية لذلك؛ ولهذه المقدِّمة آثار معرفية وحضارية خطيرة[1]؛ ذلك أنَّها تعترف بضرورة الحركة في الكون، إلَّا أنها لا تُرجعها إلى التناقض، ولا إلى أيِّ سبب ذاتيٍّ آخر؛ وإنما مرُّدها إلى سبب خارجيٍّ، هو الذي يحوِّل الشيء من «حال السكون والثبات» إلى حال «الحركة والتغيُّر».

****

هل الفكر الإسلاميُّ في شقيه ـ النظري والزمني ـ يميل إلى السكون والثبات؟ أم أنه ينحو نحو الحركة والتغيُّر؟

(1) ينفي غاليانو الخلق عن الله (السبب الخارجي)، وينسبه «للطحالب والطبيعة» (السبب الداخلي)، ويجعلها مريدة عاقلة، لها رأي، خالقة، فيقول: «قبل الماقبل، في أزمنة طفولة العالم، عندما لم تكن ثمة ألوان وأصوات، كانت هي، الطحالب الزرقاء، موجودة، وكانت تطلق أوكسجيناً، فمنحت لوناً للبحر والسماء. وفي يوم طيب، في يوم استغرق ملايين السنين، خطر لطحالب زرقاء كثيرة أن تتحول إلى طحالب خضراء. وراحت الطحالب الخضراء تولِّد، قليلاً قليلاً، إشنيات، فطوراً، وتولِّد كلَّ الألوان والأصوات التي أتت، أتينا، في ما بعد، لنملأ البحر والبر صخباً... ومن العالم القديم الذي كان، تنظر هذه الطحالب إلى العالم الذي صار، لا أحد يعرف رأيها».
انظر ـ محمد باباعمي: الطحالب الآلهة؛ مقال. ملحق كتاب «أصول الإيمان». تأليف مصطفى وينتن، ومحمد باباعمي، تحت النشر.

لو أنه كان ساكناً ثابتاً في جميع مناحيه، لما استطاع أن يولِّد حضارة، ولا أن يحافظ على وجوده الفعَّال ضمن حضارة، لها بصمتها في التاريخ البشريِّ، إلى اليوم. أمَّا لو أنه كان مطلقَ الحركة والتغيُّر، لا ثابت يحكمه، لما اكتسب صفة المعيارية والارتكاز، ولم يكن صالحاً ليقود حضارة، ولا ثقافة، ولا أمَّة.

شاء لي القدر أن أقطع بالسيارة من الجزائر إلى مكة المكرمة، في رفقة مباركة، عام 2006م، وكنت كلَّما تعبت وأحسستُ بالملل والقلق ـ رغم أني على متن سيارة مكيفة فارهة من الطراز الجيد ـ تذكَّرت أنَّ رجالاً لم يبالوا بالحرِّ ولا بالقرِّ، قطعوا هذه المسافات، على خيولهم ونوقهم ودوابهم وأرجلهم، ليبلِّغوا فكرة آمنوا بها إلى أقاصي الدنيا؛ وبسبب هذه الحركة، وهذا الصبر، أنا ـ وأنت ـ اليوم معتنقٌ للإسلام، والحمد لله؛ فلو أنَّ الأوائل من شباب الصحابة والتابعين استمرؤوا الراحة، واستطابوا الكسل، لَما كنَّا اليوم من أمَّة محمَّد ﷺ.

فنحن إذن ثمرةٌ ونتيجةٌ وأثرٌ لحركة مَن سبقنا، بصفة مباشرة أو غير مباشرة. وإنَّ ثمرات اليومَ بذور البارحة، وإنَّ أشياء الحاضر أفكار الماضي. وبالمقابل سيكون الغد تمثُّلاً وأثراً للماضي وللحاضر في تفاعلهما مع حركة البشر، ومع مقدرات القدر.

الذي بقي مستقرّاً ثابتاً من يوم نزل الوحي إلى يومنا هذا، هو التوحيد، والقرآن، والحقُّ، والخلُق، والقيمة، والمعيار... أي كلُّ ما ليس للإنسان في بنائه وتشكيله والمحافظة عليه دورٌ؛ أمَّا الذي تغيَّر ولا يزال يتغيَّر فهو الوسائل، والمناهج، والأحكام الجزئية، والأهداف، والأولويات، ونمط العيش.... وكلُّ ما هو داخلٌ تحت مسؤولية الإنسان مباشرة.

ولا ريب أنَّ «الأساس الروحي المطلق لكلِّ حياة، كما يصوِّره الإسلام هو أساس ثابتٌ، يكشف عن نفسه في التنوُّع والتغيُّر. والمجتمع الذي يتأسَّس على مثل هذا

المفهوم للواقع يجب أن يوفِّق في حياته بين عناصر الدوام والتغيُّر معاً. وينبغي أن يكون له مبادئ أبدية كي تنظم له حياته الجماعية، ذلك لأنَّ الثابت الأبديَّ يثبت أقدامنا في عالم التغير المستمر»[1].

الإسلام نظام ارتضاه المطلق للمقيَّد، الثابتُ للمتغير، الدائمُ للفاني؛ أي الله ﷻ للإنسان المكرَّم من قِبله؛ إنه نظامٌ يقوم على مبدأ الحركة الدائمة والصاعدة نحو تكاملِ الحياة والإنسان في أفضل صيغة أرادها الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 95/ 4]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 23/ 14].

والمقرَّر أنَّ «المسلم الذي يقيم حياته على الإسلام يتحرَّك خلال جماعته ومجتمعه حركة إيجابية خيرة بنَّاءة، والجماعة التي تقيم حياتها على الإسلام تتحرك خلال مجتمعها حركة إيجابية خيرة بنَّاءة، والمجتمع الإسلامي الذي يقيم حياته على الإسلام يتحرك خلال المجتمع البشري حركة إيجابية خيرة بنَّاءة»[2].

هذه الملاحظة تدفعنا إلى أن نستخلص أنَّ «الإسلام كحركة ثقافية يرفض النظرة الإستاتيكية القديمة للكون، ويتبنى نظرة ديناميكية، يتَّسم فيها الكون بالحركة والتغيُّر»، أي أنَّ «الإسلام دينُ الحركة، وليس دينَ السكون والجمود كما هو شائع خطأً عن الدين بالمفهوم الغربي للدين».

والنتيجة العملية أنَّ المسلم الحقَّ خلية نشاط وعمل وإنتاج وعطاء يجعل حياته في خدمة الآخرين: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 9/ 105]، «**أحبُّكم إلى الله أنفعكم لعياله**»؛ والتحقيق أنَّ «التديُّن الصادق ما يكاد يستقرُّ في ضمير المؤمن حتى يدفعه دفعاً إلى الإحساس العميق بأنَّه قوَّة فاعلة إيجابية، وأنَّ تصوُّراته للعقيدة مهما تكن سليمة، وأنَّ مشاعره مهما تكن نبيلة، لا قيمة لها ما لم

(1) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني؛ ص246.

(2) محمد مهدي شمس الدين: الحركية في الإسلام؛ مقال منشور في موقعه الرسمي.

تُفرغ في حركة مستمرَّة، وقدرة دائمة على البناء والتعمير، وتنمية الحياة، وتجميل الوجود»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 49/ 15] ، وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: 53/ 39-40].

وفي الحديث الشريف: «إنَّ الله يكره الرجل البطال»، وعن ابن مسعود بلفظ: «إني لأكره الرجل فارغاً لا في عمل الدنيا ولا الآخرة»، وعن ابن عمر بلفظ: «إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللا[2]؛ لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة»، وعن عروة ابن الزبير موقوفاً، أنه قال: «يقال: ما شرُّ شيءٍ في العالم؟ قال: البطالة»[3].

في كتاب (روح الجهاد)، للأستاذ فتح الله كولن، وفي مقال تحت عنوان: «لا انسجام بين الجهاد والدعة»، نقرأ: «إنَّنا ننتظر ونترقب هذا الإنسان منذ سنين طوال. هذا الإنسان الذي استوعب روح الجهاد وأشبع بعشق النضال والكفاح. أمَّا الذي لا يستطيع أن يضحِّي بأحاسيسه المادية وفيوضاته المعنوية ولم يعقد العزم من أوَّل الطريق، فلا نأمل منه شيئاً،بل نقلق ونخشى من عواقب المشكلات التي ستأتينا منه حالما يظهر في الساحة»[4].

---

(1) صبحي الصالح: الإسلام ومستقبل الحضارة؛ باب «الدعوة الإسلامية بين السكونية والحركية»؛ دار الشورى، 1990م؛ ص340.

(2) السبهلل: «بلا شيء، وقيل: بلا سلاح ولا عصا؛ يقال للفارغ النَّشيط الفَرِح: سَبَهْلَلٌ، وكلُّ فارغٍ سَبَهْلَلٌ». وانظر ـ ابن منظور: لسان العرب، وتاج العروس، ومختار الصحاح؛ مادة سبهل.

(3) العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي: كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس؛ دار إحياء التراث العربي؛ ص250. وإن كان في صحَّة الأحاديث المروية قول؛ إلَّا أنَّ معناها يعضد بعضها بعضا، ويتوافق مع الروح العامَّة للإسلام، ويلائم مقاصدها العليا.

(4) فتح الله كولن، روح الجهاد وحقيقته في الإسلام؛ دار النيل، مصر؛ ص111.

وكم من إنسان قاد خطابات رنانة، وتكلَّم باسم الإسلام، ودعا إلى القيَم العليا، موظِّفاً في ذلك الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأحكام الفقهية الصريحة؛ لكنه حين «ظهر في الساحة»، وحين «تحمَّل المسؤولية» و«دالت إليه الدولة»، استغلَّ منصبه في تكثير ثرواته، ومال إلى البذخ والسرف، فترك الحركة، وهجر الجهاد، ولسان حاله يحشره مع الذين ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: 9/ 87]، ومع من قال: ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى﴾ [التوبة: 9/ 49].

****

هو قانون صارمٌ، وسنَّة لا تتبدَّل:

إنَّ من يتحرَّك يصل إلى مقصده، وينال مبتغاه؛ وإنَّ من يسكن في مكانه يفُته القطار، وتطحنه عجلة القدر؛ فمَن أراد قطف الرطب من النخل تحرَّكَ، وصعد، وعرِق، وتحمَّل وخز أشواك الجريد؛ أمَّا من بقي أسفل النخلة، وانتظر أن تلقي عليه التمر، فلن يسقط عليه سوى المتعفِّن من التمر، هذا إذا هبَّت الريح؛ أمَّا إذا لم تهبَّ فلا تمرَ ولا قطف ولا كرامة.

هذه مريم عليها السلام، وهي في ساعة المخاض، تكابد آلامه وأحماله؛ أمرها الله تعالى بأن تتحرك لتأكل، ولو شاء لأنزل الله مائدة من السماء، بلا جهد ولا حركة؛ فقال: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريم: 19/ 25-26].

فمن شاء أن يَطعم، ويشرب، ويلبس، ويسكن، ويبني حضارة، ويحقق الأمن لأمته، فما عليه إلَّا أن يبادر إلى «هزّ جذع النخلة»: نخلة الحياة الفارهة، الغنية الثرة، التي لا تبخل على مجتهد عاملٍ، ولا تكرم متعطلاً كسولاً.

هذا الذي نسمِّيه «قانون الحركة، ومنطق الحضارة» في سياق نموذج الرشد، فهل من حراك حوله؟

متى تخلف المسلمون؟
جدلية الجوهر والعرض والمنهج

حين أوغل المسلمون في الجدل حول جوهر الأشياء، وذاتها، وماهيتها؛ ولم يستثنوا من ذلك حتى «ذاتَ الله تعالى»، وحقيقة الغيب؛ وحين توهموا واشتغلوا بمحاولة تغيير جوهر التراب ليكون ذهباً فيما سمي بـ: «حجَر الفلاسفة»، الذي يمكنه في زعمهم أن «يحيل المعادن الرخيصة ذهباً، ويهب للأشياء الخلود»؛ حينها توقَّف عقلهم عن النفاذ إلى ما هو أعلى وأسمى.

ويوم لم يشتغل المسلمون بعرَض الأشياء، وبما يطرأ عليها، وما يزول أو يتحوَّل فيها؛ مما يمكن التدخُّل فيه والتأثير عليه؛ يومَها فقدوا الصلة بالعلم، بل وحتى بالإيمان، وارتبطوا أكثر بالإيديولوجيات والخرافات والأوهام.

أمَّا المنهج فهو العلاقة، والطريقة، والوسيلة، والأسلوب... الذي به يتعامل الإنسان مع أعراض الأشياء؛ وبواسطته يمارس التأثير على فعالية الأشياء، وعلى هدفيتها، وعلى وظيفتها؛ وبذلك يكون المنهج هو محلُّ الاجتهاد، ومحلُّ إعمال العقل؛ فإذا ما مات المنهج أو مرِض جاءت على إثره النتائج ميِّتة مريضة؛ ولم يشفع لها بعد ذلك أنَّ الأساس صحيحٌ، ذلك أنَّ الصحة لا تعني الفعالية بالضرورة.

لكن للأسف، مِن الناس من يخلط بين الصحَّة والصلاحية، بين الكفاءة والفعالية؛ ويعتقد أنه ما دامت الفكرة صحيحةً فهي بالضرورة صالحة؛ وأنها ما دامت كفأة فهي بالضرورة فعَّالة؛ لكن القرآن الكريم في بيانه الحكيم يعلِّمنا أنه ليس أصحَّ ولا أكفأ مِن كلام الله تعالى، هذا جوهره وهذه حقيقته؛ أمَّا إذا أسقطت الفكرة

القرآنية على خطِّ الزمن، ونيط بالإنسان دورٌ ومسؤولية في صلاحيتها وفعاليتها، فهنا قد يتغيَّر الأمر، وقد يظهر الخلل؛ يقول سبحانه عن كلامه الحكيم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 2/ 26] ؛ لكن سبب الضلالة والهداية ليس هو «جوهر القرآن وذات القرآن» حاشا ثم حاشا؛ وإنما هو نية الإنسان وفكره وفعله ومدى اجتهاده: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 2/ 26-27].

لو لم يتجادل المسلمون حول «رؤية الله تعالى»، وحول «هل صفات الله هي عين ذاته»، ولو وفروا علمهم وفكرهم وجهدهم ووقتهم للإيمان والعمل وفق كون «الله تعالى يراهم»، ولو أنهم اجتهدوا في البحث عن «كيفية ومنهج» الطاعةِ، التي ترضي الله تعالى، كما أمرهم وكما أراد منهم؛ طاعةٍ تكسِبهم حبَّه وقربه ومعيته؛ لو فعلوا ذلك لَما انتهوا إلى حالة «من التكفير والتضليل»، ولا إلى تقسيم بعضهم البعض إلى «مذاهب وفِرَق وشِيَع» تتلاعن وتتقاتل؛ ثم لما آل الأمر إلى أن يكونوا في حاجاتهم اليومية تبعاً وعالة على الكفار والمشركين والملحدين... من كلِّ جنس ولون، ومن كلِّ فكر ودين.

الصدق مأمور به شرعاً، لا محالة؛ ولكن ما هو الصدق؟ وكيف نعرِّفه؟ وما أنواعه؟ وما هي ماهيته؟ وماذا قال فيه الشعراء والكتَّاب؟ وغير هذه من المباحث الثقيلة في جوهر الصدق وذاته وحقيقته؛ لا يقدم خطوة، ولا يحقق نفعاً، ولا يغير واقعاً؛ لكن لو بحثنا في علاقتنا نحن بالصدق، وفي مظاهر الصدق التي تغيِّر من حالنا، وعن المناهج التربوية التي نزرع بها خلق الصدق في الناشئة، وعن موانع الصدق التي نمارسها في إعلامنا، وسياستنا، واقتصادنا... ثم عن كيفية التخلُّص منها، وإيجاد الأساليب والمناهج العملية التي بها نجسِّد الصدق فكريّاً وحضاريّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً... لو فعلنا ذلك بصدق، وصدَّقنا به، ونويناه، ثم عملنا بمقتضاه،

مبتغين وجه الله تعالى؛ لكان حالنا أفضل مما نحن فيه، ولتغير ما بأنفسنا إلى ما يرضي الله تعالى.

ولو أننا خرجنا من الدائرة الفاسدة للتعاريف الحدية «للحركة»، و «الطاقة»، و«الآلة»، و«الوسيلة»، و«الغاية»، و«القيمة»، و«النهضة»... وما لا آخر له؛ ثم اجتهدنا في البحث عن كيفيات إحلال روح الاختراع والابتكار لوسائل الحركة، ولمحركات الطاقة، ولآلات الحاجة البشرية... لما كنا تبعاً لغيرنا في كلِّ شيء، ولا عالة على أعدائنا في كلِّ أمر.

تخلف المسلمون حين انشغلوا عن الأعراض والمناهج، وأسرفوا في التنقيب والبحث في جواهر الأمور وذواتها وحرفياتها.

والمقرر شرعاً وعقلاً أنه لا يكون الخروج من الحفرة التي وقعنا فيها، إلَّا من الجهة التي سقطنا منها.

التفكير المزدوج، والواقع الأعوج

العقل هو الذي يضبط إيقاع الحياة على نغمةٍ من التناسب والتناغم وعدم التعارض؛ ثم يتحمَّل القلب مهمَّة الإحساس والشعور، والقبولِ أو الرفض، ومن ثمَّ الحبِّ أو البغض؛ إلَّا أنَّ الضمير هو ذلكم المزيج من وظيفة العقل ووظيفة القلب معاً؛ فهو «الترمومتر» الذي يهبُ العقل حرارةً وعاطفةً، ويمنح القلبَ منطقاً ومعقوليةً. أمَّا الحواسُّ فهي التي تلتقط ذبذبات العالم البرَّاني لتحوِّلها إلى العالم الجوَّاني، وهي التي تُبِين ـ كذلك ـ عن حال العالم الداخلي، ليبرز على شاكلة انفعالات ظاهرة للعالم الخارجي.

وإذا ما لحقَ العطَلُ إحدى هذه الواردات الأربع (العقل، والقلب، والضمير، والحواسُّ) ظهرت تشوُّهات في فكرِ صاحبها، أو في قوله، أو في فعله؛ وقد تظهر في كلِّ ذلك، حتى لكأنَّ صاحبها تحوَّل إلى دابة عجماء، أو قرد أمرد.

و«التفكير المزدوج» هو شكل من أشكال هذا العطَل، وهو مظهر من مظاهره؛ إلَّا أنه في حالات معينة يُصيب صاحبَه لأسباب خِلقية أو مَرضية، وفي حالات أخرى يركَّب فيه كما تركَّب ساعةٌ على قلبِ مريضٍ مُزمنٍ؛ ولا ينبري لعملية التركيب إلَّا جهات ثلاث: إمَّا السياسة والحزب، وإمَّا المدرسة والفكر، وإمَّا الإعلام والفنُّ.

ومن خواصِّ هذا «الفكر المزدوج»، أنه يجمع المتناقضات ببرودةٍ متناهية، ويمارس التناقضات بهدوء مميتٍ، ولذلك نميِّزه بجملة من الأمثلة؛ ومن ذلك أنه:

يعتقد أنَّ الحرية ضربٌ من المستحيل، وأنَّ الحزب أو المدرسة أو القناة وصيٌّ عليها.

ينسى كلَّ ما يتعيَّن عليه نسيانُه، ثم يستحضره في الذاكرة حينما تمسُّ الحاجة إليه، ثم ينساه مرَّة ثانية فوراً... وفوق كلِّ ذلك يطبِّق الأسلوب ذاتَه على الحالتين، ذلك هو دهاؤه الكامل...

يفقد الوعي عن عمدٍ ووعي، ثم يصبح ثانية غير واعٍ بعملية التنويم الذاتي التي يمارسها على نفسه.

لو عمدنا إلى تتبُّع هذه الخصائص ضمن واقعنا نحن، في زماننا نحن، على جغرافيتنا نحن؛ لا ريب أننا سنكتشف حالات من «التفكير المزدوج» تتراوح بين المعقَّدة والبسيطة؛ ولكن أيهما أشدُّ حضوراً، وأظهر أثراً، وأكثر نديّاً: التفكير المستقيم، أم التفكير المزدوج؟ الواقع القيِّم، أم الواقع الأعوج؟

لا أميل إلى تقرير الحكم، ما لم نحدِّد معالم العيِّنة، وما لم نضبط حدود الـ«نحن»، وما لم نشغِّل بكفاءة وفعالية وارداتِنا التي حبانا الله بها (العقل، والقلب، والضمير، والحواس)، وما لم نكن جادِّين في قراءة «الصورة الشمسية» لفكرنا وقولنا، و«الخط البياني» لحالنا وواقعنا... قراءةً جماعية لا فردية، واعيةً لا عشوائية، مستقلَّةً لا تابعة، ذاتيةً لا قهرية، متفانيةً لا متقطعة... قراءةً نراهن عليها إذا ما رمنا الصواب لفكرنا، والصلاح لعملنا، والسعادة لحالنا ومآلنا...

فهل نحن مدركون؟

المعطى الكون ، تلازم الهمِّ والهمّ

إذا قرأ شخص كتاباً يقول: «إنَّ الأسُود شرسة»، ثم صادف أن قابل أسداً شرساً، فالأرجح أنه سوف يقرأ المزيد من كتب ذلك المؤلِّف، ويصدِّق ما جاء فيها. وإذا أضيفت إلى ذلك الكتاب «تعليمات عن كيفية التعامل مع أسدٍ شرسٍ»، ونجحت التعليماتُ نجاحاً كامِلاً عند تنفيذها، فلن تقتصر النتيجة على زيادة تصديق المؤلِّف، بل إنَّ المؤلِّف سوف يجد الدافع إلى كتابة كتابات من نوع آخر.

نحن هنا نرى جدلية مركَّبة إلى حدٍّ ما، تسمَّى «جدلية الدعم»، ومعناها أنَّ ما يقرأه القرَّاء يحدد ما يخبُرونه في الواقع، وهذا يؤثِّر بدوره في الكاتب فيجعله يتناول موضوعات حدَّدتها سلفاً خبرات قرَّائه...

ثم إنَّ التأكيد على «شراسة الأسد» تدفع إلى زيادة «شراسة الأسد» في الواقع، وعلى إرغامه على أن يكون «أكثر شراسة» مما هو عليه حقيقة.

بناء على هذا المنطق في التحليل، نقول: إذا قرأ شخص كتاباً يقول: «إنَّ المسلمين اليومَ قصَّر، وهم متخلِّفون حضارياً وثقافياً؛ ولذا وجب أن يوجد من ينوب عنهم، ممن هم في مقام الحضارة والقوَّة والهيمنة»، ثم قابل في حياته «بلاداً إسلامية متخلِّفة، وبلاداً أخرى تابعة، وبلاداً مشتعلة فتنة وقد ألِفت الظلم والقهر، حتى صار من أبجديات حياتها»؛ لا ريب أنَّ هذا القارئ سيبحث عن كتب مِن هذا القبيل، وسيصدِّق كلَّ مقال أو مؤلَّف أو جريدة أو قناة، تقول له: «إنَّ العرب، أو المسلمين قوم همَّج، وهم أهل لأن يُستعمروا».

ومن ثم تتولَّد «جدلية الدعم» فيكتب الكتَّاب ما حدَّدته تجربة قرَّائهم، والمعيار

هنا هو عدد المبيعات، والغرابة، وكثرة الأحكام التعميمية غير القابلة للتحقُّق... فتتولَّد وتترعرع قنوات وجرائد «مشروطة»، ويشتهر كتَّاب وصحفيون على المقاس، ويتحوَّل العرب والمسلمون إلى مادة مثيرة، ليكونوا «أكثر إرهاباً»، و«أكثر تخلُّفاً» مِن غيرهم، لأنهم أُرغِموا على أن يكونوا كذلك.

مَن يجرأ على «السباحة ضدَّ التيار»؟ ومن يقدر على مخالفة الحكم الجائر، وبيان بعض الجوانب الإيجابية من واقع المسلمين، حتى ولو كانت قليلة؟ ومن ينفِ عن المسلم صفة الإرهاب، والتخلُّف، والتبعية؟ ومَن هذا «الوقح» الذي يكذِّب ما تنفثُه سموم وكالات الأنباء والقنوات والمواقع العالمية؟ ومن ذا الذي يذكر حادثة واحدة، أنه في يوم من الأيام قابل أسداً غير شرس، أسداً وديعاً؟

المعرفة تصنع الواقع، والواقع يغذِّي المعرفة؛ ولذا فإنَّ نابليون قد حمل معه حين فتح مصر ستين عالماً، ومشروعاً معرفياً أشدَّ فتكاً مِن الجيش والعسكر، فحوَّل العالم الإسلامي إلى «موضوع للدرس»، فكان نقطة تحوُّل في علاقة الشرق بالغرب، يوم أظهر أنَّ المعرفة الشرقية، بما فيها معرفةُ الشيوخ وعلماء الشريعة، باتت معرفةً قاصرة، بل مبرِّرة ومنبطحة وتابعة، إلَّا ما شذَّ وندر.

****

إلى هنا يبدو ما أكتبه نظرياً، بعيداً عن «حالتنا»، وعن «واقعنا»، وعن «سياقنا»؛ غير أنني في التذكير بأنَّ «نموذج الرشد»، يرمي إلى «المعطى الكوني»، ويتجاوز المحليَّات الضيِّقة، والطرح المجتزَأ، ولكنه لا يلغيه ولا يدَّعي أنه غير مجدٍ، وإنما يحيله إلى أهله وأصحابه والمتخصِّصين فيه. احتراماً لمقام الراصد، وإيماناً بتوزيع المهام، ودفعاً للتداول المطيافي، بين شتى المستويات.

فالمعطى الكوني إذن «همٌّ» يشغل البال، ويؤرِّق الفكر؛ وهو مثل كرةٍ صغيرة، كلَّما حاولت إخفاءها في قاع الحوض، طفت على السطح، وشغلتك بالهمِّ مرَّة

أخرى، ولا سبيل إلى التنصُّل من هذا «الهمِّ»[1] إلَّا «بالهمِّ»[2] بمعناه المتقدِّم، أي العزم والعزيمة والبدء، والانتقال من طور الإحساس إلى طور الفعل، ولا مهرب حينها من الصدق غايةً وخلقاً، والصدقية منهجاً ووسيلةً.

فأنت تكتب وتقول: «إنَّ المعطى الكوني ضرورةٌ حضارية»، ويتأكد الكثير من القرَّاء أنَّ ذلك صادقٌ، وهو جوابٌ حقيق لما نراه من تخلُّف وتبعية في جميع الحقول، ولقد يزداد القرَّاء قناعة، ولكنَّنا هنا نقف على عتبة أنَّ «القارئ لا يعبِّر عن موافقته، ولا عن رفضه»، فالغالب فيه أنه يساير ويُعجَب ويعبِّر عاطفياً ولفظياً، ولا يتداول معرفياً وفكرياً وعلميّاً هذا الطرح الحضاريَّ.

فيبقى «المعطى الكوني» بسبب ذلك في محلِّ الوقوف معلَّقاً بين «همٍّ» و«همٍّ».

ثم إذا أنت طرحت جملة من الطرق والمناهج التي تساعِد على التفكير في «المعطى الكوني»، فالبحث يكون رهينة بالممارِس، وبالمجرِّب، وبالعامل بعلم، وبالخبير الذي يهب المعرفة مكانة في العمل؛ وهنا مرَّة أخرى تجد نفسك أمام حاجز عنوانه: «انفصام الفكرة عن الفعل»:

حيث الفاعلُ يفعل وكفى، والقارئُ يقرأ وكفى... فلا علاقة بين المخطَّط والمبنى، ولا بين المقدِّمة والنتيجة، ولا بين الوزن والقصيدة... وهنا يموت «الهمُّ» مرَّة أخرى، وعلى عتبة أخرى، فيصعب «الهمُّ» أو يستحيل.

لكن بين «همٍّ» دائم، و«همٍّ» واجب، يسكن الضمير، ويزرع السفوحَ ورداً وزهراً، فيملأ الدنيا فكراً وفعلاً، ويحيل المستحيل إلى ممكن، والممكنَ إلى واقع،

(1) الهمُّ: مَا يَشْغَلُ بَالَ الإنسان، مَا يُؤَرِّقُ فِكْرَهُ.
(2) الهمُّ: أَوَّلُ العزيمة.

والواقع إلى عيانٍ حضاريٍّ، والعيان الحضاريُّ إلى «همٍّ» جديد، و«الهمَّ» الجديد إلى «همٍّ» أكيد...

وهكذا تدور عجلة الحياة، وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: 90/ 4]. ثم نقابل الحقيقة الكونية بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 29/ 69].

من موشور «القواعد الكلية»

كثيراً ما يسأل طالب العلم والباحثُ المبتدئ: كيف أطالع كتاباً مع ضمان الفائدة القصوى؟ وما هي أساليب الاختصار والنقل والتلخيص؟ وماذا آخذ وماذا أترك؟ وكيف أضمن أني استوعبت محتوى ما طالعت؟

هو وابل من الأسئلة عنوان الحيرة والاهتمام، تستدعي الجواب العمليَّ لكن بلا اختزال ولا تسطيح؛ ذلك أنَّ «المِلح» لا يؤكَل وحده، إنما يتوزَّع على كميات كبيرة من الطعام، ومَن قصد الاستعجال والعجلة، كان كمنِ الْتَهَم كيلوغرامات من الملح الخالص في جلسة واحدة، لا ريب أنه سينتهي إلى حالة هستيرية لا توصف.

أنا حالياً أعيد قراءة كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) مرَّة أخرى، ذلك أنَّه كتاب لا يمكن الانتهاء منه، أو القول: «لقد استوعبتُ ما فيه، وخلصتُ إلى تمام معناه». فهو عصارة حياة قلبية وعقلية وعملية نادرة المثال، فمن قرأ فيه لا بدَّ أن يستنزف جميع ملكاته وطاقاته القلبية والعقلية والعملية؛ وإلَّا أخطأ الهدف، وخسِر الرهان.

وحتى أصوغ المنهج جواباً على سؤال «طالبِ العلم والباحث المبتدئ»، أنبِّه إلى أنَّ العمل على استنباط واستخراج واعتصار «القواعد الكلية» من متن الكتاب، بعناية فائقة، وبحضور ذهنيٍّ متواصل؛ مثل هذا الجهد يقرِّب الفائدة ولا ريب، ويجعل المعنى طيّعاً سلساً قريباً ولا شكَّ.

فهذه «القواعد الكلية» التي تستلُّ من المتن، هي تمثِّل «الجهاز العظمي» لجسم الكتاب، يمكن أن نعيد بناء الصورة عليه إذا أردنا. أو هي بمثابة الصورة القلمية

للّوْحَة الفنية، تمدُّنا بالأبعاد الخلفية وبالمساحات والمشاهد الخفية؛ فيأتي اللون ليصبغها بلمسته الجمالية الفنيَّة البديعة، ولكلِّ قارئ وباحث لونُه الخاصُّ به، ونماذجه الإدراكية المختصَّة به؛ ومن ثم كان تغيُّر الزمن واختلاف العصر مما يعيد للجسم تعريفه، وللوحة الفنية رسمها؛ فالقاعدة ثابتة والتطبيق متغير، ومثال ذلك:

* **الحياة لا تتوقف كثيراً على فهمنا لها**: يكثُر بين الناس اليومَ قولهم: «لم أفهم»، «غاب فهمي»، «ضاعت معايير الحكم عندي»... وغيرُ ذلك من العبارات التي هي وليدة الانتكاسات المتوالية، بخاصَّة في مستوى عالم المسلمين المتردِّي؛ غير أنَّ «عدم فهم الظاهرة» شيءٌ، وكونَ «الظاهرة فاقدة لمنطق وحكمة داخلية تسيِّرها» شيءٌ آخر. فنحن حقّاً لم نفهم ما يقع، إلَّا أننا واثقون أنَّ وراءه حكمة، وكثيراً ما لُذنا بقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 2/ 216]؛ ذلك أنَّ مستنَد هذه «القاعدة الكلية»، ومنتهى هذا المعنى تتمةُ الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. غير أنَّ هذه القناعة لا تقعِدنا عن محاولة الفهم، أي عن البحث في الأسباب لمعالجتها؛ وبخاصَّة ما كان «بسببنا نحن»، فكم من نتيجة مقدِّمتها في أنفسنا، لا يمكن تغييرها إلَّا إذا «غيَّرنا ما بأنفسنا». ولا ريب أنَّ قاعدة «**الحياة لا تتوقف كثيراً على فهمنا لها**» تغدو معياراً للفكر وللحركة، في منطق «نموذج الرشد»، الذي يعالج «الفكر» و«الحركة» في علاقتهما الحية، أي «الفهمَ» و«الحياة» في بعدهما الفلسفي العمليَّ المركَّب.

* **لا يوجد في الواقع دينٌ خالص، ولا علمٌ خالص**: من خلال القاعدة الأصولية التي تقول: «الخير لا يتمحَّض، والشرُّ لا يتمحَّض»؛ يمكن أن نفهم هذه القاعدة التي تفصح على أنَّه: في كلِّ دين نفَسٌ من العلم، وفي كلِّ علم روح من الدين؛ ويبقى الإسلام هو الصورة المركَّبة الوسط التي لا هي بالدين الصرف المعرِض عن العلم، ولا هو بالعلم البحت المتنكِّر للدين. وتحقيق ذلك أن «الدين والمادية هما

الفكرتان الأوليان»؛ أي هما الجزء الذي لا يتجزَّأ. و«الإسلام يعني أن نفهم وأن نعترف بالازدواجية المبدئية للعالم، ثم نتغلب على هذه الازدواجية».

* **أن تحيا حياةً خيِّرة هو أمرٌ أكثرُ من أيِّ دين وأكثر من أيِّ فلسفة**: الإدراك محله المجال الجوَّاني للإنسان، والحياة مجالها الجانب البرَّاني للإنسان؛ فكم من إنسان عاش حياة متوازنة سعيدة وهو ليس بفيلسوف ولا بعالم دين؛ ولذلك خصَّ القرآن الكريم الهداية بالمتقين ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ولم يجعلها مختصرة على «العلماء المتبحِّرين». وفي سياقٍ آخر قال عن القرآنِ الكريم إنه ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: 72/ 2]، والرشد هو النضج في الفكر والنضج في الفعل في آن واحد، وهو ليس من خصوصيات المتبحِّر بالضرورة. وليس في هذا التوجيه ما ينقص من قدر الفلسفة أو الدين، ولكنه دعوة إلى «الطريق الثالث» الجامع بين متطلبات الروح، ومتطلبات المادة.

* **الإسلام تسمية لمنهج أكثر من كونه حلاًّ جاهزاً**: كثيراً ما ترددت عبارة: «أريد الاستقرار»، «أبحث عن السعادة المطلقة»، «أنا قلق من تقلبات الحياة»؛ والصواب أنَّ الإسلام ليس حلّاً جاهزاً مثالياً طوباوياً؛ وإنما هو «كبَد ومكابدة»، و«صبر ومصابرة»؛ وفي ذلك يكون الأجر؛ ولذا كان «الجهاد» و«الاجتهاد» ـ وهما من مظاهر التوتر الدائم ـ مِن متطلبات الإيمان الخالص لله تعالى. والحقُّ أنَّ الإسلام يجب أن يُنظر إليه على أنه «منهجُ حياةٍ»، ثم يتم نسج حركية التاريخ، وحبك مسارات الحياة، بالاستقاء من ذلك المنهج، والآية الكريمة واضحة في ذلك: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 5/ 48].

* **الصلاة هي شفرة الإسلام**[1]: تصاغ هذه القاعدة في قولنا: «يمكن أن نبني الإسلام بأكمله من خلال التأمُّل في الصلاة»، فالصلاة ليست عملاً روحيّاً صرفاً،

(1) يمكن أن نحيل القارئ كذلك إلى فصل «مفهوم الألوهية ومعنى الصلاة»، من كتاب (تجديد الفكر الديني) لمحمد إقبال؛ ففيه بيان فلسفيٌّ واضح لهذه الفكرة التي طرحها بيجوفيتش.

ولا هي عمل ماديٌّ محضٌ؛ ففيها من الحياة النظافة والتأمل والنظام والجمال... وغيرها. وفيها من الروحانية النية والخشوع ومحاسبة النفس... وغيرها. واعتبار الصلاة عماد الدين، من أبرز معانيه هذا الجمع بين الدنيا والآخرة، بين البرَّاني والجوَّاني، بين الآن والغيب. وما لم نولِ الصلاة هذا العمق ستبقى مجرَّد طقس من الطقوس الرتيبة المتكررة، بلا معنى ولا مقصد. وليس عبثاً أن يجمع الله تعالى بين «السعي إلى ذكر الله» أي الصلاة، و«الانتشار في الأرض ابتغاء فضله» أي التجارة، في سياق واحد، لا يمكن أن نقرأ مثله في أيِّ مصدر من الديانات القديمة، ولا في أيِّ كتاب من كتب الفلسفة القديمة ولا المعاصرة.

هذه أمثلة من القواعد الكلية، التي استقيناها من كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب)، وأجد من الضرورة إعداد بحث دقيق يتتبع كلَّ الكتاب بعناية، ويشترط فيه أن يكون جماعيّاً، وفنيّاً، وتداوليّاً.

وليس أَفيد للقارئ والباحث، بغية تشويقه، أن ننهي المقال بهذه القاعدة الجميلة، التي جاء فيها: «**حين نعلِّم الإنسان التفكير فإننا نحرِّره، وحين نلقِّنه فإننا نضمُّه إلى القطيع**».

اللغة والإرادة

في مباحث علم الأصول يعرِّف العلماءُ «الدلالةَ» على أنها «اقترانٌ بين تصوُّر اللفظ وتصوُّر المعنى»، فإذا قلتَ: «السماء» ـ مثلاً ـ انتقل تصوُّرك من «اللفظة» إلى «معناها»، الذي هو «ذلك الحيز الكوني العلويُّ الذي يعلوك ويعلو الأرض التي تستقلها». ثم يفرِّقون بين «المدلولِ اللغويِّ» و«المدلولِ التَّصديقيِّ» بأنَّ الأول لا اعتبار فيه للقائل، وإنما هو علاقة انتقال من «اللفظ» إلى «معناه» الموضوع له، بغضِّ النظر عمَّن صدر الحكم منه.

أمَّا «المدلولُ التصديقيُّ» فيعتبِر القائلَ، وينظر فيه إلى إرادتين هما: الإرادة الاستعمالية، والإرادة الجدِّية. فـ«حال المتكلِّم» هنا هو مصدر الدلالة التصديقيَّة، فإن قال ـ مثلاً ـ: «أنا عادل» لم نكتفِ بالقول، ولا بالدلالة اللفظية لهذا الحكم، وإنما ننظر في القائل، فإن كان عادلاً حقّاً صدَّقنا ادّعاءه؛ أمَّا إن كان جائراً في حقيقته وفي عادته وفيما عُرف عنه؛ فإنَّ نسبة الحكم إلى هذا القائل لا تعني إلَّا ضدَّها، وفي مثل هذا قال فرعون: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 40/ 29]، فهل سيرة فرعون تقرِّر الدلالة التصديقية للجملة، أم تنفيها؟

هذه مقدِّمة أصولية يراد من خلالها معالجة مشكلة حضارية، تبدأ من هذا السؤال:

هل يمكن لمن يفتقد الإرادةَ أن يكون للغتِه (لأحكامه، لخطاباته، لتقريراته...) دلالة تصديقيَّة معتبَرة؛ أي يكون له إرادة استعمالية، وإرادة جدِّية، مجتمعتان؟

نظرةٌ سريعة في وسائل الإعلام تضع أمام أعيننا مثالاً «لصحفيٍّ» يقال له ثم يقولُ، ويراد له أن يقول فينفِّذ ما يراد، وهو في ذلك لا يريد؛ أي أنه مسلوبُ الإرادة،

ولا اعتبار لإرادته ولا لاعتقاده الصدقَ أو الكذبَ فيما يقول؛ فإرادته منفصمة تمام الانفصام عن لغته، ولغتُه مجتثّة تمام الاجتثاث عن إرادته؛ ويسمَّى ذلك في عرف العصر: «الضمير المهني»، أو «متطلبات المهنة»؛ ولا يهمُّ بعد ذلك إن كان ما قاله مقدِّمة أو سبباً أو نتيجة لدماء تسيل، أو لأعراض تهتك، أو لبلدان تنتهك.

ثم لو تأملنا الكثير مما يردِّده الناسُ من كلام ومن أخبار يحشرونها من هنا وهنالك، لوجدناها لا تصدر عن إرادة من القائل لأنْ يبلِّغ دلالة تصديقية، وإنما هو «واسطة» بين الحدث والمحدَّث[1]؛ أي أنه يعتبر نفسه فاعلاً سلبيّاً، ويتخلَّى عن مسؤولية مقولِه وحكمِه؛ وهنا مرَّة أخرى تنفصم العلاقة بين اللغة والإرادة. ولذا سمّى القرآن الكريم الناقلَ لهذا النوع من الأخبار الكاذبة «فاسقاً» حتى قبل أن يُتمَّ عملية النقل، فقال جل وعلا محذراً منه ومن فعله الشنيع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: 49/ 6]. وداعي التبيُّن كون صفة الانفصام بين القائل ومقوله بالتحوير والكذب هو نوع من التضليل المؤدِّي إلى فساد كبير.

ونوع ثالث ممن فقد قولُه آثاره الواقعية، وصار نوعاً من الكلام لمجرَّد الكلام، هو «الواعظ» حين يأمر الناس بالزهد ـ مثلاً ـ، ثم يسوق النصوص ليستدلَّ على حكمه، ويشنِّع العاقبة على من تملَّكت الدنيا قلبه، وعلى من ركن إلى ملذاتها وزهرتها؛ وهو ـ أي هذا الواعظ ـ مع ذلك، في حياته اليومية، وفي حقيقة أمره، أبعدُ الناس عن الزهد؛ إمَّا لأنَّ ما قاله يجانب الصواب في حدود الشرع، أو لأنَّه ممن «يقول ما لا يفعل»، و«يفعل خلاف ما يقول». ولقد سمى الله تعالى هذا الفعل الشنيع «مَقتاً»، فقال سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 61/ 3].

1 من هذا أضفنا إلى ثلاثية مالك بن نبي (العوالم الثلاث: الأشياء، الأشخاص، الأفكار) عالماً رابعاً هو (عالم الأحداث)؛ لأنه لا يندرج ضمن أيٍّ من العوالم الثلاث؛ وهو ظل لعالم الأفكار، لكنه لا إلى الفكر بصلة.

ينظر ـ محمد باباعمي: البعد الرابع في الفكر الحضاري عند مالك؛ مقال مخطوط.

ومثال آخرُ يتمثل في «رجل السياسة» الذي يَصدر من حكم «حزبه» أو «رئيسه» فاقداً كلَّ إرادة؛ وأسوأ منه ذلك الحاكم التابع لجهة خارجية تملي عليه ما يفعل وما لا يفعل؛ فلا يصدر عن مصلحة عليا لوطنه وأمَّته وشعبه، وإنما يصدر عن إملاءات قهرية تأتيه من هيئات سياسية، أو مالية، أو بحثية، وفي جميع الحالات تضرب على وتر «مصلحته الشخصية» على حساب «المصلحة العامَّة»، ثم هو يخون أمانته، ويرفع شعارات كلامية لفظية لا تمتُّ إلى الحق والصدق بصلة، وتذر لغتَه وكلامَه خواء لا أصل له ولا فصل.

ويمكن أن يمثَّل لهذا الانفصام بـ«المعلِّم» في القسم، حين يلغي إرادته لصالح «سيادة المقرر» خوفاً من التفتيش، فيقول ما لا يُفهم، ويأمر بما لا يُستطاع، فيعنت التلاميذ، ويرسم ندوباً وتشوهات على وجوه الملائكة مِن حوله، وهو مع ذلك غير مقتنع بما يأتي وما يذر، غير أنه مسلوب الإرادة، لا معنى لقوله ولا دلالة في لغته، إلا ما تحمل من ظِلال مشوَّهة في واقع الناس؛ وتأتي على إثر أمثال هؤلاء «البصائرُ حُولاً»، وتُفتح من جهتهم ثغرات يدخل منها الشيطان إلى كافة ساحات الأوطان.

فاللغة خاصية من خصائص الإنسان، كرَّمها الله سبحانه الذي كرَّم ذات الإنسان، وامتدح نفسه تعالى بأنه ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 2/ 31]، أي اللغةَ وملكة الكلام والحديث والكتابة؛ غير أنَّ ذات اللغة لو افترض صدورها من آلة مسجلة، أو من ببغاء، أو حتى من جبل يردُّ الصدى، لما كان لها أيُّ قيمة في ذاتها، إلَّا ما يعود إلى صاحبها الأول؛ ومن ثم كان بين اللغة والإرادة وثاق ووشائج، فإذا ما فقد المرء إرادته سلبَ لغته معناها ومغزاها، ومن ثم كان «مسلوب الإرادة مسلوب اللغة» بالضرورة، إذ المعتبر ليس هي الألفاظ والعبارات، وإنما المعاني والدلالات، بل المؤدَّى والثمرة العملية من القول والكلام والحديث.

فعلى مريد النطق أن يحقق في إرادته ابتداءً، ويضمن أنه ليس عبداً لأحد أو لشيء غير الله جلَّ جلاله، ثم إذا تحقَّق من ذلك، جاز له أن يقول وأن يحدِّث وأن يحرِّك لسانه بناءً على إرادته، وإلَّا كان الخرسُ أنفع له، والسكوتُ أوسع له، والحياءُ أسلم له.

فهل نعتبر؟

الصلاة: شيفرة الحضارة

الصلاة كتاب موقوت، والوقت صلاة أبدية؛

الصلاة شفرة الحضارة، والحضارة «خواء» إذا ما خلَت من صلاة؛

الصلاة روح كلِّ ثقافة؛ فأيُّ ثقافة خلت منها تحوَّلت إلى جيفة وزقوم يطعمه اللاهون الغافلون؛

الصلاة سيمفونية الوجود كلِّه، فليس هنالك مخلوقٌ لا يصلِّي جبلَّةً، يفعل ذلك بلسانه وبحركته ولا يَني، لو صمتَت ثرثرةُ البشرية لسمعت ما حولها ـ من حيوان ونبات وجماد ـ ينطق بأقوال الصلاة، ويأتي أفعالها؛ أزيزاً مثل أزيز النحل، لا ينقطع ولا يفتر أبدا؛

ثم لو ألقى الإنسانُ سمعه، وهو شهيدٌ صادقٌ، لهالَه سجود الملائكة، وقد أطَّت السماءُ به أطّاً «**وحُقَّ لها أن تئطَّ**»؛

الإنسان خُلق ليكون مصليّاً؛ فالصلاة أنزلت من السماء لتمنح الإنسان مبرِّر وجوده؟

مَن لم يصلِّ لله الواحد الأحد صلَّى لغيره بالضرورة؛ إذ لا يوجد إنسان عبر التاريخ لا صلاة له؛

نقطةُ الالتقاء بين الزمن والمكان، بين المادة والروح، بين السكون والحركة، بين الفكر والفعل: هي الصلاة في صورتها الصحيحة الكاملة؛ وإذا لم تكن كذلك، تحوَّلت إلى «طقسٍ من الطقُوس» التي تمارسها الشعوب البدائية، تلك الشعوب التي لم تنعم بصوتِ نبيٍّ قطُّ.

الصلاةُ مكاناً وزماناً محلُّ عناية العوالم العلوية: الملائكةُ الأبرار؛ وهي محلُّ اهتمام العوالم السفلية: الشياطين؛

فالأولى دائمةُ النظر والملاحظة للمصلِّي، إذا ما أحسن دعوا له، وإذا ما أخطأ استغفروا له؛ إلَّا أن يستنكف عن الحقِّ.

أمَّا **الثانية**، أي الشياطين، فهم على الدوام ملاحظون للإنسان وهو يصلِّي، كلُّ جهدهم في أن «يسهو، ويلهو، لينصرف عن صلاته بعقله، حتى ولو مارسها بجوارحه».

الحرب سجال بين هؤلاء وأولئك؛ إلَّا أنَّ القرار الأخير بيد المصلِّي وحده، أي بيد الإنسان المكرَّم بالاختيار.

أوَّل أمر بالصلاة كان من الله تعالى لإبليس، حين أمره بالسجود، ذلك أنَّ السجودَ قمَّة الصلاة وملخَّصها؛ إلَّا أنه أبى واستكبر، فلم يسجد؛ ثم تحوَّل الأمرُ إلى الإنسان الأوَّل، فتحمَّل الأمرَ وسجَد لله؛ ثم انقسمت البشرية على إثر ذلك: بين تابع لإبليس، وتابع لآدم؛ مصلٍّ لله، ومستنكف عن الصلاة أو مصلٍّ لغير الله.

هذا هو التصنيف الأكبر للإنسانية إلى يوم الدين؛ وكلُّ تصنيف آخر، هو إمَّا تابع وإمَّا زائف.

لا يملك الإنسان قوَّة ـ ولا آلة، ولا وسيلة، ولا طاقة ـ يفتح بها أبواب السماء؛ قُصاراه أن يسافر نحو أقرب نقطة من السماء، ثم يكون فيها وكأنه حبَّة رمل في فلاة؛ إلَّا أنَّ الإنسان بالصلاة يستدعي الأسباب السَّننية لأن تُفتح له السماء، فتلِجها الملائكة، وصلاةُ المصلِّي محمولةٌ بين أجنحتهم؛ ثم إنَّ كلَّ مَن هنالك ينادي: بخ... بخ...

الصلاة محطَّة زمنية في العمر كلِّه: «البلوغ»، وفي العام جميعِه: «صلاة العيدين، والحجُّ»، وفي الشهر بكامله: «صلاة الجمعة»، وخلال الأسبوع برمَّته: «الصلاة اليومية الراتبة»، وفي النهار إذا تجلَّى: «صلوات الصبح والظهر والعصر»، وفي الليل إذا يغشى: «المغرب والعشاء»... ثم إنه بين محطَّة ومحطَّة هنالك فرصة

للخِلفة، والاستدراك، والسنَّة، والنافلة... بل وحتى الدعاء، باعتباره صلاةً... لذلك لا تنقطع الصلاة أبداً مِن حياة الإنسان، إذا ما أحسنَ صبغ وقته بصبغة صلاته. ويا حسرةً على مَن يصبغ صلاته بصبغة وقته الرديء، الخاوي، الفارغ، الحائر، والمضطرب.

الصلاة ناطقٌ رسميٌّ عن حقيقة الانتماء، وعن منهج التفكير والقول، وعن خيارات الحركة والسكون؛ ففِكر المرء وفعل المرء فاضحٌ لصلاته، وصلاة الإنسان وخشوع الإنسان عربونٌ عن إيمانه وعمله.

الصلاة لا تعرف التصنيف، ولا تفهم لغة التخصُّص، ولا تلتفت إلى مدلول الطبقية... فهي هي، لكلِّ الأمكنة «**جُعلت لي الأرض مسجداً**»، في جميع الأزمنة ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 70/23]، وللناس كافَّة (حاكم ومحكوم، عالم ومتعلم، غني وفقير، صحيح ومريض). وإذا ما خصِّصت الصلاة بأيِّ نوع من التخصيص، استحال أن تكون لله الواحد القهار.

الصلاة كفى بها خيراً أن ينطق اللسان باسمها، أو ينسبها لنفسه: «صلاتي»، أو لأهله وعشيرته: «صلاتنا»، أو يقرأها مكتوبة في قرطاس، أو جهاز... بحروفها العربية، أو بأيِّ لغة أخرى؛ مجرَّد ورود خاطر عن «الصلاة» تتنزل البركات، وتحلُّ الطمأنينة، وترشح الخيرات.

بل وحتى الكافر ـ الذي لم تتشوه فطرته ـ حين يشاهد مصلٍّ، على المباشر أو عبر الشاشة، يلين قلبه، ويسمع من أعماقه صوت الضمير، ويحس يد القدرة تلامس شغاف قلبه المجروح.

الصلاة صلة بالله، والصلة بالله ـ حقّاً ـ تكسب المصلي صلة بالناس بإحسان، وتمنحه حسن الصلة بالكون من حوله؛ الصلة بالله الحقِّ هي جماع الخير كلِّه، وجحود الله الحقِّ هو جماع الشرِّ كله.

السباق المحموم
(من الإشاعة إلى الفعل المؤيد)

الإشاعةُ، والقولُ، والفعلُ المجرَّد، والفعلُ المؤيَّد:

(هم) أربعةٌ متنافسون على الحلبة، يوم دُعيتُ لشهود السباق المحموم؛ وقد كان كلٌّ (منهم) مزهوّاً بنفسه إلَّا واحداً أظهر من التواضع والهدوء ما لا يخفى على العين، وقد حاول بعض (منهم) إظهار قدراته أمام الجمهور الذي لم يكن بالغفير، ولقد بدت المركَبات المتنافِسة متشابهةً أوَّل وهلةٍ، ولم يمكن تبيان الفروق بينها بالوضوح المرجوِّ؛ ذلك أنَّ المظاهر غالباً ما تخدع العين، وتظهر غير ما تخفي...

فتعالت بعضُ الأصوات المشجِّعة لهذه أو تلك، ورُفعت بعض اللافتات المؤيِّدة للبعض بلغة إعلانية تهويلية لا حدَّ لها ولا حصر، ولا أوَّل لها ولا آخر.

ما إن سُمعت صفارة الانطلاق حتى بدأت السرعة تتزايد، وبعد بضع دقائق ـ لا تزيد ـ انعرجت «الإشاعة» بتهوُّر فاقدة توازنها، فارتطمت مركبتُها على حائط المضمار، وتلقَّى السائق ضربات موجعة مروعة، قصمت ظهره، وكسرت بعض عظامه، فأغمي عليه.

وما إن تقدَّم فريق المعاينة حتى اكتشف أنَّ محرِّك هذه المركبة (مركبة الإشاعة) قد سخُن وانفجر، ذلك أنَّه صنع من مادة «العاطفة»، والعاطفة سراب ووهم شبيه بالحقيقة لمن لا يفرِّق ولمن لا يعقل.

أمَّا هيكل مركبة الإشاعة فمادته البراقة نسجت من «الكذب، والافتراء، والوهم،

وسوء الظن، والحقد، والرياء»، أمَّا المقوَد فكان مسكوباً بمعدن رخيص اسمه «الغرور والكبرياء». وسائق المركبة مهزوز الفؤاد، مهزوم الوجدان، لا يستقرُّ على حال.

غير أنَّ الجمهور واصل متابعة السباق بتصفيق شديد، وبعد ساعة أو يزيد، نفد وقود المتسابق الثاني أعني «القول»، وتوقفت المركبة وسط السباق، وخرج منها سائقها آسفاً متحسِّراً، ذلك أنه اعتمد «الكلمات» وقوداً للحضارة والحركية والمنافسة، فأسعفته ابتداءً، ثم بدأت تخفتُ وتبهتُ رويداً رويداً، إلى أن استنفدت طاقتها، وعجزت عن إمداد المركبة بالحركة، وعن شحذ السائق بالعزيمة والإرادة؛ فنزل «الخور، والوهن، والضعف» ضيفاً ثقيلاً على قلب هذا السائق المسكين، وحلَّ الندم بديلاً عن الشعور بالقدرة والطاقة. فانتهى وهو يعضّ أنامله من الغيظ، ويردد عبارات مشحونة بـ: لو... لو... بلا كلل ولا ملل.

وبقي على الحلبة متنافسان اثنان، وحمي السباق بينهما، كان أحدهما، وهو «الفعل المجرد» متخذاً الأسبابَ بعناية، جمع إلى الفكرة الفعلَ، وحسِب لكلِّ منعرج ولكلِّ هضبة ولكلِّ ممرٍّ خطير حسابه بعناية فائقة، وكان السائق ممتلئاً حيوية وإرادة وحضوراً ذهنياً، وكانت عضلاته تستجيب لأوامر عقله المنظَّم بكفاءة وفعالية، تماماً مثلما تستجيب مركبتُه لأوامر المحرِّك المتقَن الصنع. وبدا قبيل نقطة الوصول أنَّه قد يكون الفائزُ، إلَّا أنه بخطأ بسيط غيرَ محسوب تلقَّى ضربة من جهة اليسار، فترنحت به المركبة، ودارت حول نفسها مرَّات، ثم توقَّفت، وخرج السائق وهو يضرب بيديه على رجليه، متحسِّراً متأسِّفاً.

وبقي المتنافس الأخير، وهو «الفعل المؤيَّد»؛ فقد اكتسب ذات الخصائص التي كانت لصاحبِه، متَّخذاً جميع أسباب الفوز، من فِكر وتخطيط وإتقانِ صُنعٍ، ثم تدريبٍ للسائق بأسلوب جيِّد محكَم؛ وزاد إلى ذلك ما لم يكن في الحسبانِ، ولا يدخل ضمن التقدير الماديِّ، ولا تستطيعه المخابر والمصانع، وهو: التوكُّل على الله والاحتساب، والثقة في الله والدعاء، وكلُّ ما مِن شأنه أن يُكسبه التأييد

الرباني، وكان أبداً يستذكر الملائكة في غزوة بدر، وهي مسوَّمة تحارب إلى جوار المتَّقين المؤمنين. فهو لم يُلغِ الأسباب القريبة التي هي «يد الله في قدره»، وهو لم يَغفل عن الأسباب الكبرى، التي هي عين الله لعبده.

فبلغ مقام الجمع، ونال التأييد من ربه.

بهذا انتهت المنافسة، وعدتُ إلى مكتبي في معهد المناهج، ووجدتُ رسالة من شابٍّ متوتِّر قلقٍ، نفَث جميع ما في جعبته من ملاحظات وملاحظ، ومن نقد مشروع وانتقاد غير مشروع؛ ليعبِّر عن مدى سخطه من جهة، وعن بعض رضاه من جهة ثانية؛ إلَّا أنَّ «الإشاعات» التي كررها ما لبثت أن تبخرت وذهبت جُفاء، و«الأقوال» التي مارسها لم تحرِّك ساكنا، إلَّا بعض المعاني المقبولة التي انتفعتُ بها، أمَّا «الفعل المجرَّد» من جهته، وهو الناقد الناقم فمعدومٌ، ولا يقدر عليه حسبَ تعبيره وحقيقته، ذلك أنه يفتقد الأسباب والمقدمات، وهو يستعيض بالعمل القولَ، وما أيسر على المرء أن يلاحظ على مُصارع ـ جيد أو دون ذلك ـ ملاحظات، وهو جالس في المدرجات.

أمَّا «الفعل المؤيَّد»، وحقيقة التأييد، فذلك ما لم ينتبه إليه أبداً، ولقد كان بحقٍّ غافلاً عنه، مديراً ظهره له، وهو لا يعلم أنه لا يعلم.

****

أفقتُ من النوم، وجدتُ أنَّ المنافسة لم تكن سوى أحلام جميلة صادقة، وأنَّ دخولي المكتبَ وقراءتي الرسالة لم تكن سوى افتراض؛ وأنَّ جماع ذلك كله والجواب السديد عليه، هو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: 13/ 17].

المسؤولية على عاتقي، والجواب عند ربي، واسمعي يا جارة...

في نقطة الانعطاف: ابن سينا مرجعاً

على الرغم من أنني اشتغلت بالزمن ردحاً من الزمن، وعالجت البرمجة الزمنية في بحوث متفرقة، بذلت فيها الجهد الكبير؛ إلَّا أنني في «نقطة الانعطاف» التي وصفتها بأنها من نوع «الجامعة البحثية»، أجد نفسي مضطراً لإعادة النظر في مخططي الفعلي، وفي حساب ما بقي لي من العمر، في حدود نعمة الله تعالى، الذي ينسئ في الأجل لمن يشاء، ويسوق للمكرمات والمبرَّات من يريد.

أقرأ في كتاب (تاريخ ضائع) لكاتبه «مايكل مورجان»، توصيفاً لنقطة انعطاف شهدها ابن سينا في خضم حياته الموَّارة، جاء فيه:

«إنَّ ابن سينا يشعر بأنَّ هذه هي فرصته الأخيرة ليجد منزلاً وحياة يتناسبان مع عقله وطموحاته الكبرى، حتى وإن لم تكن بالشكل التام».

ثم يواصل البيان فيقول: «خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً من التمزق، وصل ابن سينا إلى قرار حاسم، وهو أنه إذا ما أراد فكّ لغز المعرفة بجسد الإنسان والحياة فإنَّ عليه القيام بذلك بانشغال تام، فعليه أن يحسِّن من قدراته التركيزية، وأن يحيا عالمين: عالم البقاء المادي، وعالم العقل».

أمَّا ابن سينا، موضوع هذه الفقرات، فيقول في كتابه الكبير (القانون في الطب):

«وقد تبين في العلوم الحقيقية أنَّ العلم بالشيء إنما يحصل من جهة العلم بأسبابه ومبادئه إن كانت له، وإن لم تكن فإنما يتمَّم من جهة العلم بعوارضه ولوازمه الذاتية. لكن الأسباب أربعة: مادية، وفاعلية، وصورية، وتمامية».

بتفكيك هذا النص، وبإعادة تركيب ما ورد فيه من دلالات وأفكار عن «العلم»

وعن «ما حول العلم»؛ يمكن التنبه إلى نقاط أساسية، أجد أنها تلامس قرارة نفسي، وتفضح كوامن فؤادي، وتضعني وجهاً لوجه أمام الحقيقة، ولا تذر لي فرصة للتملص، ومن ذلك:

«**فرصته الأخيرة**»: لا يمكن لأحد أن يقرِّر هل هذه هي فرصته الأخيرة أم لا؟ ذلك أنَّ الأجل والأعمار بيد عالم الغيب والشهادة، لكن في منطق الإيمان يعتقد المرء في كلِّ مرة أنَّ هذا المنعرج، أو ما عرَّفناه بنقطة الانعطاف، لعلَّها هي فرصته الأخيرة. من يدري؟

«**ليجد منزلاً وحياة يتناسبان مع عقله وطموحاته الكبرى، حتى وإن لم تكن بالشكل التام**»: إنَّ النظر إلى عبارة ابن سينا من جهة الباطن والحقيقة، تحيل إلى «منزل» أي مكان ينزله الإنسان، بغضِّ النظر عن شكله وعن نوعه، وإنما الشرط الأساس فيه أن يكون متناسباً مع «العقل والطموحات الكبرى»، وايم الله في هذا السندان تحطَّمت المشاريع الكبرى، وكم من مرشَّح للعلم لم يحظ بهذا الظرف، فبات موظَّفاً صغيراً، أو مردِّداً للصدى خامداً، ولم يُنتج شيئاً ذا بال في عالم الفكر والعلم والمعرفة. وإني اليومَ أجدني مواجهاً لهذا السؤال الصغير الكبير؟

«**خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً من التمزق...**»: أمَّا أنا فخلال ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً، لا أقول من التمزق، ولكن من التحول الجذري: بين التراث والمطياف، بين مكتب الدراسات والأكاديميا، بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والخدمة... وما بين ذلك من التحول مكاناً وموضوعاً واهتماماً. ولقد شغلت حيزاً من الطاقة في التراث، وآخر في التربية، وثالثاً في الاجتماع، ورابعاً في التأليف والبحث، وخامساً في تأسيس المشاريع، وسادساً في القرآن، وسابعاً في الإدارة، وثامناً... وغير ذلك مما أملاه الواقع، وانتقلتُ بينه راضياً مرضياً؛ اليومَ وأنا في بداية مرحلة جديدة، لا شيء مما مرَّ قد توقَّف، وإنما كلُّ ذلك مواصل

طريقه بي وبدوني؛ والحقُّ أنَّ أعظم امتحان هو القدرةُ على التخلِّي وترك المقود بيد من هو أكفأ منك، أو أكثر ارتباطاً؛ ولقد كان امتحاناً صعباً بحقٍّ. اليومَ أسائل نفسي مرة أخرى: هل «بذور الرشد» و «الجامعة البحثية» هما المحطة الأخيرة؟ أم أنهما محطَّة لها ما بعدها، وأنَّ التأسيس والتحوُّل بات قدري؟

«**إنَّ من عليه القيام بذلك بانشغال تام، فعليه أن يحسِّن من قدراته التركيزية**»: هذه العبارة هي بيت القصيد، فالانشغال التام، أي التفرغ التام، والانصراف إلى «البذور» وإلى إنتاج المعرفة، هو الرهان وهو محلُّ الاختبار. وذلك مرتبط بتحسين قدراتي التركيزية، ومعلوم أنَّ السياق يؤثر سلباً وإيجاباً في ذلك؛ فهل أتمكن من تحقيق المراد. في بحر هذا اليوم ـ فقط ـ تم استدعائي إلى أكثر من خمس لقاءات وجلسات وبرامج. فلو استجبت لهذه الضغوط القريبة والبعيدة، لما تمكنت من التركيز، ولصرت، مثل بعض المشتغلين، عرضة وضحية لكلمة «نعم». ولضاع العلم وانساب من بين أصابعي، مثل الزئبق.

«العلم بالشيء إنما يحصل من جهة العلم بأسبابه ومبادئه»: هذه قاعدة كلية، وهي محلُّ انشغالي واشتغالي في إطار نموذج الرشد والمنظومة، ذلك أنَّ أخص خصائصها «ذاتية اتباع الأسباب»، وسواء في ذلك «القرآن الكريم» من خلال «البذور». أم النموذج في إطار معالجته فكرياً وفعلياً. أم التربية والمدرسة، أم هزارفان والمناهج... إلخ. المهم أنَّ تتبع الأسباب واتباعها هو المحكُّ، وبخاصة أنَّ الأسباب قلَّما تواتي في وعائنا الحضاري، والمعوَّل على المبادرة والشجاعة والعقل الجمعي وتقبل الصواب والخطأ، وعلى قاعدة «حجوا قبل أن لا تحجوا». وعبارة «حتى وإن لم تكن بالشكل التام» أي هي نوع من إرادة الملاءمة مع الصبر والرضا، عوض البحث عن «المثالي» وعن «اللائق تماماً». والأجر والحمد لله بقدر الاجتهاد والمشقة، لا بمقدار بلوغ المراد والنتائج.

الطفل والمدينة (مقال في العقيدة، يعالج: الخلق، والحرية، وخاصية الخلود)

كرةٌ نزلت ـ مثل قطرة ماءٍ ـ على سفوح عقلي العطشَى، فغمرتها سُقياً وريّاً؛ واهتزَّت لها تربة قلبي الجذب، فربَت وأنبتت ما كان مِن قبلُ عدماً في عالم الملكوت؛ ليصير بعد حين حقيقة ماثلة، وجوهراً حاضراً...

أن أتجوَّل شوارع المدينة باحثاً عن «سبب كلِّ شيء»، لأربط بحبل مِن علاقة بين الأسباب ومسبباتها، فحملتُ زادي، ومشيت بعيداً... بعيداً... إلى أن وصلت...

****

دخلتُ من الباب الشرقيِّ للمدينة، فيمَّمت وجهي نحو حافلةٍ في محطة، وركبتُها... ثم سألت السائق بهدوء: مَن صنع هذه القطعة المتحرِّكة من الحديد؟

فأجاب باختصار، وقال: لا أعرفه، ولكن أعرف أنَّه عالم مبدِع في الميكانيكا، وفي فيزياء المواد والحركة...

ثم قصدتُ ناطحة سحابٍ تقع وسط البلد، مثل عروس ممشوقة القامة والقوام، وسألت بوابها: من صانع هذا الجبل المشذَّب من كلِّ جانب، الشامخ الفاره؟

فقال: لا أعرفه، ولكن أعرف يقيناً هو صاحب علم غزير في الهندسة، وفي قوانين الفيزياء...

****

غادرت المدينة، وقد سألت أكثر من فيها، عن أكثر ما فيها: سألتُ عن الشوارع، وعن البنوك، ومحلات البيع، والمصانع، والأنفاق... وكان الجواب هو نفسه كلَّ مرة: لا أعرف، ولكن هو...

غادرت المدينة، وغبتُ عنها ألف عامٍ كاملة، ثم عدت على قدَر لأستكمل مهمَّة البحث مرَّة أخرى؛ فسألتُ عن الحافلة، والعمارة، والمصنع، والنفق... وغيرها...

****

لم أجد الحافلة، ولا حتى ما يشبهها، كلُّ شيء قد تغيَّر وتبدَّل، قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً؛ أمَّا وظيفة الانتقال مِن مكان إلى مكان، فقد بقيت هي هي.. وأمَّا وسائل الانتقال، فلا شيء منها بقي على حاله... كما كان قبل ألف عام...

وبحثت عن العمارة، فقلتُ: لعلَّها تختلف عن الحافلة كونها لا تغادر المكان؛ إلَّا أنني لم أجدها، لا هي ولا المكان؛ فلم أهتد إلى موضعها السابق؛ مَن يدر لعلها صارت تتحرك مثل وسائل النقل؟ فخاب ظني في الاهتداء إلى ذات الناطحة؛ لكنَّ وظيفة السكن، وإيواء الناس إلى بيوتهم، بقيت هي هي، كما عهدتُها منذ ألف عام... لم تتبدَّل ولم تتغير...

****

فجأةً، تذكَّرتُ أني في زيارتي الأولى، قبل ألف عام، كنتُ قد التقيت بطفلٍ يافعٍ في الخامسة من عمره، يلعب في حديقة غنَّاء مع أترابه، كأنهم الحمام حول الأيك؛ فسألته: عن اسمه، وعائلته، وأحاسيسه، وبعضِ قناعاته ودعاباته... فأجابني بذكاء فائق، وبلاغة غير معهودة...

قلت، وقد عدتُ: لعلِّي أجد هذا الطفل، ولعلَّه مثل فتية الكهف، لم يمرَّ عليه نهر الزمن، فلم يشِخ ولم يمُت... لكنَّني، لم أجد ذات الحديقة، فقصدتُ أقرب

حديقة مني، وإذا فيها ثلَّة من الأطفال يلعبون ويمرحون، يضحكون ويبكون... قلتُ في نفسي: لم يتغيَّر اللعب ولا المرح، ولا الضحك ولا البكاء...

ثم بحثت عن ذلك الطفل الذي لم تغادر صورته مخيِّلتي، رغم طول الوقت... فلم ألفِه بينهم، بلحمه وعظمه؛ لكنَّ جميع الأطفال كانوا شبهاً له، لا شيء تغيَّر فيهم: فلا رأس أكبر من العنق، ولا يد غيرت مكانها، ولا عين حوَّرت وظيفتها...

****

ثم سافرتُ ثانية، وغبت الغيبة الطويلة... ابتعدت فيها عن جغرافية الأرض، وعن محيط بني البشر... وعدت مرَّة أخرى، بعد مليون عام، فكانت النتيجة نفسها: عالَم الأشياء كلُّه تطوَّر، وعالَم الإنسان صمَد على شكله، وصورته...

الجسم، والقوام، والنبرات، والملامح هي هي... كذا الأعراض، والعواطف، والملامح، ونوازع الحبِّ والبغض، والخير والشّر... جميعُها هي هي... لا شيء طرأ عليها...

****

سألت حائراً نفسي، مرَّات ومرَّات، عن الفرق بين الحافلة والعمارة والطفل؟

ما الذي جعل الأوليَان يتغيَّران، وجعل الثالثَ يصمُد؟

هل يمكن للعقل وحده أن يفسِّر هذا الفارق بعلم يقين؟

وهل ثمة أدلة مقنعة على ذلك؟

للجواب على السؤال، اهتديتُ إلى ثلاث عبارات، جمعتها في عبارة واحدة، جاء فيها:

«الله والحرية لا ينفصلان...فإذا سلَّمنا بحرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله، فإننا بذلك نعترف بوجود الله، إما ضمنا، أو صراحة... والله وحده هو القادر أن

يخلق مخلوقاً حرّاً، فالحرية لا يمكن أن توجد إلَّا بفعل الخلق»[1].

ثم، أحسست بصوت ينبعث من عالمي الجواني، وأنا أقرأ لعلي عزت قوله: «إنَّ الله لا ينتِج ولا يشيِّد، إنَّ الله يخلق»[2].

****

رحتُ أستعرض جملة من الأسئلة تكملة للفهم:

ألم تكن الحرية فارقاً بين آدم عليه السلام، قبل الامتحان، وأبينا آدم عليه السلام، بعد الامتحان؟

أولم تكن فرقاً جوهرياً بينه وبين الملائكة حين أسجِدوا له؟

ألم يعترضوا على ذات الحرية، التي قد تحمله على الإفساد في الأرض، وسفك الدماء؟

أليست الحرية هي الحدُّ الفاصل بين «الإلهي» و«الإنساني»؟

وهل يمكن لإنسان أن يصنع شيئاً (ماكينة، عمارة، آلة...) أو أي شيء آخر، له حرية الاختيار؟

****

حافلة مدينتنا، ليس لها الحرية في أن تسير أو تتعطَّل، وليس لها الحرية أن تختار مَن تحمل ومن لا تحمل، ولا أن تتمرَّد أو تحتج على مالكها... والعمارة، كذلك، لا حرية لها في قبول السكَّان أو رفضهم، في أن تكون هنا أو هنالك، في أن تؤدي مهمتها أو تضرب عنها...

لذلك فقط تتهالك الحافلة، وتتقادم العمارة، شكلاً ومضموناً... إنها لا تحمل

(1) ينظر: علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، مؤسسة بافاريا، ط2: 1997، ص:83.

(2) م.س.

وجهاً ميمِّماً شطر السماء؛ هي أرضية بكلِّ ما فيها...

أمَّا بني الإنسان (الطفلُ هنا) فهو يختار في كلِّ شيء، وقد مُنحت له الحرية:

أن يقول: نعم، أو يقول: لا.

أن يتقدم أو يتأخر،

أن يطيع أو يعصي،

أن ينشط أو يحرن،

أن ينساق أو يتمرد...

هو حرٌّ؛ وحريته نفَس ربَّاني فيه، نزل عليه من السماء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: 66/ 12]... حرية الإنسان ليست مكوِّناً أرضياً ترابياً (مثل لحمه وعظمه)... حرية الإنسان، هي فوق التراب، وأكثر من الترابي...

****

ولذا، فما دام الله تعالى له صفة الخلود (من ذاته سبحانه)، فهو بفضلٍ منه وهب الإنسان صفحة الخلود (من غيره).. فالإنسان لا يختار أن يوجد أو لا يوجد، أن يولد أو لا يولد... ولكنه حين يوجد ويولد (أي حين يُخلق) يكون مصيره أبدياً، دائماً، خالداً... ثم، قد يتمنى أن يفنى مثل باقي الحيوانات، أو مثل التراب، فلا يُسمح له بذلك ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: 78/ 40].

الفرق ظاهر في نوع الحياة التي يحياها هنالك في الشوط الثاني من وجوده: أي في مرحلة الخلود، والحرية، والهبة الربانية التي بدونها لا معنى للاختيار...

****

المدرسة (والجامعة، والدولة، والمجتمع...) حين تقتل الحرية في الإنسان، هي بالضرورة تعتدي على الجانب العلويِّ فيه، تغتال أعظم هبة، وتكفر أكبر نعمة،

وتظلم أقدس مظهر من مظاهر إنسانيته:

الحرية... التي بها يتوجه نحو السماء، نحو الأبد، نحو الخلود...

والدرس العقدي إذا لم يجعل الحرية محوراً معرفياً وحقيقة وجودية، انحرف بزاوية واسعة عن مصدره (القرآن الكريم)، ومقصده (سعادة الإنسان)؛ ذلك أنَّ العقيدة والعبودية ضدَّان لا يلتقيان؛ فمن لم يكن موحِّداً لله كان عبداً لغيره؛ ومن لم يلتفت نحو السماء أخلد إلى الأرض، ومن لم يتعلق بالله تعالى حبّاً تعلق بغيره هوى، ومن لم يسجد للذي وهبه الحرية خنع لمن يسلب منه إنسانيته...

ليست مشكلة العالم اليوم، شرقِه وغربه، سوى تلك الأسطورة التي قتلت الإنسان، حين اغتالت فيه حريته، واستعبدته بخبث ومكر وكيد؛ وليست مشكلة البلاد الإسلامية سوى تلك الغفلة التي جعلت بعضهم يؤلِّه باسم الحاكم، أو الأمير، أو الوصي (آلهة من الحلوى)، وجعلت البعض الآخر يؤلِّه غيره باسم الحاجة، أو الجهل، أو التبعية الحزبية والإيديولوجية...

الاجتهاد، والحرية، والتسليم للّه:
الثلاثية المتلازمة

بسم الله الآمر عبادَه بالاجتهاد والمجاهدة، القائل في محكم تنزيله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 29/ 69].

والصلاة والسلام على سيِّد العالِمين العاملين، إمام المتقين المجتهدين، سيِّدنا ونبينا وقرة أعيننا محمد ﷺ، الذي ربى صحابته الكرام على الجهاد والاجتهاد؛ وآيةُ ذلك أنه ﷺ أقرَّ لمعاذ، رضي الله عنه، قوله: «**أجتهد رأيي، ولا آلو**». وعلَّم خليفته العادل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يردِّد أمام الأشهاد مقولته الشهيرة: «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟**».

وبعد، فهذه ورقة في هذا الملتقى المبارك[1]، بعنوان «الاجتهاد، والحرية، والتسليم لله: الثلاثية المتلازمة»، ألج فيها بهذا التنبيه، وهو:

أنَّ المحاضرة بُرمج فيها من هو أكفأ مني، وأقدر على فكِّ ألغازها، أستاذي العزيز، «الدكتور إبراهيم بيومي غانم»؛ لكن، قبل أسبوع من المؤتمر، تعذر حضوره، لظروف خاصَّة، فما كان مني إلَّا أن خلفته على ضعفٍ... فخذوا من الجذع ما أعطى... واغفروا لأخيكم كلَّ خلل وزلة، فهذا دليل قصوري في الاجتهاد... ودليل سعة صدوركم، ونبل محتدكم.

ثم إنه نظراً لطبيعة المؤتمر، ولتبايُن المشارب والجغرافيات، وكثرة الإحالات

(1) نص مداخلة الدكتور محمد باباعمي: «الاجتهاد، والحرية، والتسليم لله».. الثلاثية المتلازمة، في اليوم الثاني من مؤتمر: «الاجتهاد والقياس» بمركز اسطنبول للمؤتمرات ـ تركيا.

الفكرية والمرجعيات... فضَّلت منهجيةً تقوم على عرض «لوائح ومشاهد»، عوضَ الاسترسال النصيِّ/ اللفظيِّ؛ ومما لا ريب فيه أنَّ السياق محدِّد في كلِّ عمل فكريٍّ، وفي كل اجتهاد أصوليٍّ أو فقهيٍّ أو حضاريٍّ. من هنا أبدأ، في عرض اللوائح، وعلى الله المعوَّل:

****

اللائحة الأولى:

في الندوة التحضيرية لهذا المؤتمر، والتي شارك فيها ثلة من علماء الأمَّة؛ كنتُ أراقب بعناية ملامحَ وجه البروفسور حسن مكي، وهو يبدي حيرةً وأسفاً، وكان الحديث حينها يدور حول «شروط الاجتهاد والقياس»، وحول بعض التفاصيل المنهجية، لهذا الموضوع الشائك المكثف؛ وحين دارت إليه الدائرة، نطق بكلمة بليغة، قال فيها ما معناه:

«الحرية... الحرية... نعم الحرية... هي الاجتهاد... هي القياس... هي الإسلام... وأي حديث عن الاجتهاد دون معالجة مشكلة الحرية في واقعنا، هو نوعٌ من اللغو الذي لا طائل وراءه، لا فائدة جراءه».

مِن هذا الملمح اللوذعيِّ أنسُج مداخلتي؛ وعلى الله المعوَّل والاتكال.

اللائحة الثانية:

تدافع الورقة عن ثلاثية متلازمة تلازماً كليّاً مطلقاً، أي تلازماً رياضيّاً عكسيّاً؛ وتحاول الكشف عن أبعاد هذا التلازم[1]، والمعادلة يمكن عرضها كما يلي:

(1) علاقة التلازم لا تقتصر على علاقة واحدة دون غيرها العلاقات الأخرى؛ وإنما تحتمل مختلف العلاقات المنطقية وغير المنطقية مثل (السببية، والشرطية، والعلية، والباعثية، والحدسية، والاستنباطية...) فهي علاقة ذات بعد ثقافي أكثر من كونها علاقة ذات بعد علمي معرفي.

من اليمين إلى اليسار:

الاجتهاد ⇐ الحرية ⇐ التسليم لله (الإسلام)

من اليسار إلى اليمين:

الاجتهاد ⇒ الحرية ⇒ التسليم لله (الإسلام)

التلازم العكسي (réciproque implication)

الاجتهاد ⇔ الحرية ⇔ التسليم لله (الإسلام) ⇔الاجتهاد

ومن ثمرات هذا التلازم أننا يمكن أن نقرأ الشرق من يمين المعادلة إلى يسارها: أي أنَّ مشكلة الشرق ـ أو العالم الإسلامي بالأحرى ـ أنه حين ضيَّع (الاجتهاد)، ضاعت بالضرورة (الحرية) من واقعه الفكري والثقافي والديني والحضاري، وحين ضيع (الحرية) ضاعت بالضرورة حقيقة (تسليمه لله تعالى).

وبالتالي، فقَد البوصلة، ولحقته لعنة التبعية، فصار عبداً لغير الله، وتابعاً متسولاً على باب اللئام... يطلب من أعدائه أسباب الحضارة، ويستمطر شروط التمكين. أمَّا الغرب، فيمكن قراءته من يسار المعادلة إلى يمينها:

أي أنَّ الغرب حين فرَّط في (التسليم لله تعالى) افتقد بالضرورة (الحرية) بمدلولها الكوني الإنساني التوحيدي، وحين ضيع (الحرية) بهذا البعد، ضاع منه (الاجتهاد) في أوسع معانيه؛ فحلَّت الوضعية، والمنطقية، والنموذج الآلي المغلق، والعقلُ الفوتوغرافي، والمادية، والحلولية... محلَّ البعد التوحيديِّ، الإنساني، والنموذج العضوي المفتوح، والعقل التوليدي، والمعنى الإيماني... ونتيجة لهذا التلازم الرياضي بين (الاجتهاد، والحرية، والتسليم لله)، نقرأ واقع العالم اليومَ، مستعيرين الصورة الإدراكية التي رسمها علي عزت بيجوفيتش، بكتابه المعنون: (الإسلام بين الشرق والغرب).

أي أنَّ (الإسلام) ضاع بين شرق خامل كسول، فاقد لأسباب الحركية والاجتهاد، وغرب جاحد كفور، متنكر لله، بل معلن صراحة أنه: قَتل الإله، ثم قتل المعنى، فقتل الإنسان بالتبع... من هنا حلَّت الفوضى هذا العالم، جراء غياب مكونات هذه الثلاثية المتلازمة المقدَّسة.

وبالتالي، يكون المخرج للشرق من محنه، ومن ظلماته التي يتخبط فيها، أن يستعيد (اجتهاده) وحركيته العلمية والعملية، لينال (حريته)، فيحقِّق بالتالي (تسليمه لله تعالى): ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 22/ 78].

أمَّا الشفاء والمخرج للغرب، مِن تيهه وضياعه روحيّاً ومعنويّاً، ومن فقدانه للمعنى وللوجهة والغاية؛ فيكمن في أن يعيد علاقته بخالقه (بالتسليم له سبحانه) أولاً، فينال بالتبع (حريته) من قيود الشهوات والمادة والفوضى[1]، ويحقق بذلك اكتمال مدلول (الاجتهاد) الحقيق في منظومته الفكرية والحضارية[2]: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 3/ 20].

اللائحة الثالثة:

يعرَّف الاجتهاد بأنه «بذل الوسع في نيل حكم شرعي عملي بطريق الاستنباط»[3]. و«لا يكون الاجتهاد إلا لمن بلغ الأمر من الجُهد»[4].

وما من شكٍّ أنَّ الاجتهاد هو القلبُ النابض للإسلام شرعةً ومنهاجاً؛ بفتور هذا

(1) وانظر ـ هوستن سميث: لماذا الدين ضرورة؟

(2) وانظر ـ المسيري: الثقافة والمنهج.

(3) الشوكاني، إرشاد الفحول. وانظر ـ الآمدي، الإحكام؛ والغزالي، المستصفى. وغيرها من المصادر.

(4) الوارجلاني، العدل والإنصاف.

القلب أو تعطُّله يلحق جسمَ الأمَّة وهنٌ وضعفٌ، وتُصاب بشتى الأمراض والعاهات؛ ولكل قلب دمٌ يسري منه إلى الجسم، فيحمل الطاقة ومعاني الحياة. ودمُ الحياة لهذا القلب هو (الحرية)؛ فإذا ما تخثّر الدم، أي تعطَّلت (الحرية)، وحلَّت العبودية محلّها، قارب جسم الأمة من الهلاك. فحضارة الأمَّة تدور مع (الحرية) وجوداً وعدماً. و (الاجتهاد) والحركية في مفاصل الأمَّة ـ كذلك ـ يدور مع (الحرية) وجوداً وعدماً. وجميع ذلك شرط في (الإسلام)، وشرط (للإسلام).

اللائحة الرابعة:

قبل موعد الملتقى بأمد، كان بين يدي كتابان، منهما استلهمتُ العمود الفقري لهذه المحاضرة، وهما: (رحلتي الطويلة من أجل الحرية) لنيلسون منديلا؛ و (مالكوم إيكس: سيرة ذاتية) تأليف أليكس هالي.

ولعلي أستشهد بمقولة الرجل الذي سُلبت حريته سبعةً وعشرين عاماً، وبالتالي حُرم «الاجتهاد الفكريَّ والفعليَّ»، ووعى معنى ذلك ومغزاه، وهو يقول: «إنَّ الحرية لا تتجزأ، فالأغلال التي تقيِّد واحداً منَّا تقيِّدنا جميعاً، والأغلال التي تقيِّد قومي هي أغلال تقيِّدني كذلك... الحرية ليست مجرَّد التخلُّص من الأغلال، ولكنَّ الحرية أن تعيش حياة تحترم فيها حرية الآخرين وتعزِّزها. إننا في بداية المحكِّ الحقيقي لاختبار مدى إخلاصنا وتجردنا للحرية».

وأقول بهذه المناسبة، مخاطباً كلَّ صاحب همَّة غيور: «إننا أمام محكٍّ حقيقي، نُختبر فيه هل قصَدنا الاجتهاد على حقيقته، كما يريده الله تعالى منا؛ أم أننا اتخذناه مجرَّد خطابات وشعارات تنتهي بانتهاء المناسبات والمؤتمرات؟ وبالتالي، نحن أمام اختبار حضاري عسير، نساءَل فيه عن (الاجتهاد) في علاقتنا بذاتنا؛ وعن (الحرية) في علاقاتنا بالإنسانية كافة، وعن (تسليمنا) في علاقتنا بالله تعالى».

أمَّا مالكوم إيكس، فيورد صورة مجازية، وهو الذي أدرك معنى أن تكون ضحية للتمييز والعبودية، يقول فيها:

«إذا رأيتَ أحداً يحمل كأس ماء متَّسخة فلا تُدِنْه، ولكن أره كأسك النظيفة، ولن يكون عليك حينذاك أن تقول له: أيَّ الكأسين أفضل».

ولعلي أستعير منه هذا المعنى، وأسقطه على الاجتهاد موضوعاً ومنهجاً، لأقول:

إذا أردنا حقّاً أن نخدم الاجتهاد اليومَ، كما هو مقرَّر لنا في حضارتنا، فما علينا إلَّا أن نجتهد ونعمل، ونجد ونثابر... ولن نكون في حاجة عندها أن نتحدث أو نخطب، أو نقول ونعيد».

بربكم، سادتي، هل يحقُّ لمجتمع يرزح تحت عبودية الكسل والإخلاد إلى الأرض أن يدعو الناس إلى الاجتهاد الشرعي والحضاري، والأصولي والثقافي؟. وهل يواتينا الكلام ـ سادتي ـ عن الاجتهاد، إذا كنَّا قُطعاناً من البشر، تصفَّد بأغلال شتى: عقلية، وروحية، واجتماعية، وفكرية، ودينية، ونفسية، وأيديولوجية... وغيرها؟

حقّاً، صدق «مهندس الحضارة» مالك بن نبي في قوله: «إنَّ الماء لا يسقي الأرض التي تعلوه».

اللائحة الخامسة:

شاعر الفلاسفة محمد إقبال، عقد فصلاً في كتابه المعلَم (تجديدُ الفكر الديني)، واختار له عنواناً دالاًّ، وهو: (ذات الإنسان، حريته وخلوده)، ومما ورد فيه قوله:

«يؤكد القرآن بأسلوبه البسيط والقوي على شخصية الإنسان وتفرُّده (أي على حريته)» ثم يبين إقبال أنَّ «الإسلام كحركة ثقافية يرفض النظرة الإستاتيكية القديمة للكون (أي يرفض الجمودَ)، ويتبنى نظرة ديناميكية، يتّسم فيها الكون بالحركة والتغيير».

ثم يسأل إقبال بحقٍّ: «ما هو مبدأ الحركة في بناء الإسلام؟» ويجيب بصدق: «إنه ما يعرف باسم الاجتهاد»...

ثم يطرح سؤالاً ذا مغزى حضاريٍّ، وهو: «ما سبب الموقف العقلاني الذي أدى بشريعة الإسلام عملياً إلى حالة من الجمود؟».

ويستطرد في الجواب، غير أن جميع الأسباب التي عرضها تؤول إلى سبب واحد، وهو «انحسار الحريات، وحلول الاستعباد بشتى ألوانه محل حرية الرأي والفكر».

ولهذا انتهى بمقولة شهيرة جاء فيها: «إنَّ حُكم التاريخ هو أنَّ الأفكار البالية لم تقم لها قائمة أبداً بين قوم كانوا هم سبب إبلائها».

ونتساءل على إثر هذا: وهل تبلى الأفكار بغير الجمود على المتغيِّرات، والتفريط في الثوابت، والإغراق في الجزئيات، والإعراض عن الجهاد والاجتهاد؟

اللائحة السادسة:

الوصفُ الخامس لورثة الأرض، عند الأستاذ الخرِّيت محمد فتح الله كولن، يقوم على مبدأ (الحرية)، ومن خلاله يشترط «أن يكون الوارث حرّاً في التفكير، موقِّراً لحرية التفكير».

ثم يضيف: «إنَّ التحرر وتذوُّق حسِّ الحرية عمقٌ مهمٌّ لإرادة الإنسان، وباب سحري ينفتح على أسرار الذات».

ثم يشكِّل الأستاذ صورة وتوصيفاً للبيئة التي تغتال حرية الإنسان، ويقول عنها: «إنَّ حماية المستوى الإنساني البسيط والخام في هذه الأرضية الاستعبادية أمر عسير، فكيف بإنضاج بشر يسمُقون إلى العلى بروح التجديد، ويَمدُّون البصر إلى اللانهايات؟ فلا ننتظرُ في هذا الوسط إلا أناساً ضعاف الشخصية، وأرواحاً هزيلة ضاوية، ومشاعر مشلولة» أي: عاجزةً عن الإبداع والتجديد والاجتهاد».

ولذا «علينا أن نكون أفسح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو عوالم مختلفة، سواءً في سلوكنا مع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية وتمسُّكنا برغباتنا. فالحاجة ماسَّة اليوم إلى صدورٍ متَّسعة تحيط بالتفكير الحرِّ، وتنفتح على العلم والبحث العلميِّ [والاجتهاد الفكريِّ]، وتستشعر التوافق بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة».

ونحن ـ من ملتقانا هذا ـ نترقب بشغف شديد، اليوم الذي يتسلم فيه «ورثة الأرض اللّدُنّيون» مفاتيح القلوب، ومفاتيح العقول، ومفاتيح الشهادة والشهود الحضاري المنشود.

اللائحة السابعة، والأخيرة:

أَلَّف المفكر الرئيس علي عزت بيجوفيتش كتاباً مثيراً بعنوان: (هروبي إلى الحرية)، وكان حينها في السجن؛ وفي مقدِّمته استطاع أن يشرِّح دلالات الاجتهاد في أقسَى الظروف، فضرب لنا أروع مثال عن العلاقة بين «الحرية» و«الاجتهاد»، وقال:

«هذا الذي ربما سيقرؤه القارئ كان هروبي إلى الحرية...لم يكن ذلك هروباً حقيقياً... ولكنه هروب الروح والفكر». نعم، هو هروب من عبودية الروح لغير باريها، ومن تبعية الفكر لغير السبيل الذي خلقت له؛ ولذا نجده يشرَح هذا المعنى في كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) ويزيده وضوحاً، فيقول:

«إنَّ الذي يريد أن يستبدل بالتفكير الحرَّ أسراراً طلسمية، وأن يستبدل بالحقيقة العلمية عقائدَ جامدة، وبالفعالية الاجتماعية طقوساً، لا بدَّ أن يصطدم بالعلم».

وعلي عزت بيجوفيتش، الذي كُتب على قبره بأمر منه: «أقسم بالله أن لا أكون عبداً إلَّا لله»، ينهي كتابه بفكرة التسليم لله، التي هي مبعث كل حضارة، وأصل كلِّ اجتهاد، فيقول فيما معناه:

«إنَّ التسليم لله ... حريةٌ يكتسبها الإنسان بمواصلته الإيمان بقدَره... فلكي ندرك حقيقة وضعنا في هذا العالم علينا أن نستسلم لله، وأن نتنفس السلام». ولقد ترك لنا هذه العبارة الخالدة:

«إنَّ الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرَّماته، ولا من جهود النفس والبدن التي يطالَب الإنسان بها، وإنما من شيء يشمل هذا كلَّه ويسمو عليه: من لحظةٍ فارقة تنقدح فيها شرارة وعيٍ باطني... من قوَّة النفس في مواجهة محن الزمان.. من التهيؤ لاحتمال كلِّ ما يأتي به الوجود... من حقيقة التسليم لله.. إنه استسلام لله.. والاسم إسلام».

وإذا أردنا ـ سادتي ـ أن ندرك عمق العلاقة بين (الاجتهاد، والحرية، والتسليم لله)، وأن نكون عمليين في تنزيله إلى أرض الواقع؛ فينبغي أن نقبَل تعريف الاجتهاد على أنه:

حريةٌ في الفكر والفعل ...

وتسليمٌ لله تعالى...

ولحظة فارقة تنقدح فيها شرارة وعيٍ باطنيٍّ...

وهو قوَّة النفس في مواجهة محن الزمان..

- وتهيؤ بطولي لاحتمال كلِّ ما يأتي به الوجود
- إنَّ الاجتهاد «موقف بطولي، لا موقف بطل»

صدق الله العظيم القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: 29/ 69]، وهو القائل جلَّ شأنه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 22/ 78].

القسم الثالث
حركية الفكر والفعل، والمتحد العلمي

نظرية الانبثاق، وحتمية التواصل

قد يأخذ الحديث عن «التواصل» منحًى أدبياً لفظياً، ويستعان في ذلك بالحِكم والأمثال والأشعار، وهذا الاختيار له إيجابياته وسلبياته.

وقد يتمُّ معالجة معضلة «التواصل» من خلال علوم إنسانية، من مثل «علم الاجتماع»، و «علم الإعلام»، و «علم النفس»؛ فيُحشر ضمن الأعمال المتخصِّصة، ويفيد في مجاله ولغايته وغرضه.

وقد يُتعرَّض «للتواصل» تربويّاً، مِن مدخل العلاقة بين مكوِّنات العملية التربوية؛ فيكون له أثره في المدرسة والجامعة، حسب أهمية الطرح وعمقه[1].

وللفقه والعقيدة والتفسير[2] والحديث... أي، ما يمكن تصنيفه تحت خانة «العلوم الإسلامية» أوجهٌ كثيرة يمكن أن تؤسِّس لعلم التواصل من منطلق شرعيٍّ فكريٍّ، قرآنيٍّ إسلاميٍّ؛ شريطة أن لا تُحشر في سياق «أسلمة العلوم»، بعمل سطحيٍّ بسيط.

أمَّا في هذا المقال المختصر، فقد رأيت من المفيد الاستعانة بمقاربة «نظرية المعرفة» وكذا «الفيزياء» المعاصرة، للتطرق لهذا الجانب الأساس من جوانب حركية الإنسان على خط الزمن.

---

(1) في التاسع من سبتمبر 2013، كانت لي محاضرة عبر السكايب، لأربعة فروع من المدارس العلمية في الجزائر، بعنوان: «بناء العلاقات، وخصائص المرابطين على تلة الرماة» أي المشتغلين في مجال التربية.

(2) انظر مثلاً ـ ماجد رجب سكر: التواصل الاجتماعي، دراسة قرآنية موضوعية؛ الجامعة الإسلامية، غزة. ماجستير، 1432هـ/ 2011م. ويدرَج التواصل أحياناً تحت باب «آداب الحوار»، وأحياناً ضمن «الدعوة». بل إنَّ بعض الجامعات الإسلامية، لها تخصص باسم: «الدعوة والإعلام».

وعنوان هذا المدخل: «**نظرية الانبثاق أو التولد**».

فمن حيث تعريف التولُّد أو الانبثاق (émergence)[1]، فهو «عملية تشكُّل نمط معقَّد من قواعد بسيطة أو مكوِّنات بسيطة. وتعني أيضاً ظهور وظيفة معيَّنة اعتماداً على مكوِّنات بسيطة في حدِّ ذاتها، غير قادرة على القيام بالوظيفة؛ لكنَّ تواصلها (أي تواصل هذه المكوِّنات البسيطة للنظام) يُعطي نظاماً يكون وظيفياً أكثر من جملة مكوناته. أي أنَّ العلاقات بين مكوِّنات النظام، إضافةً إلى مكوِّناته، تُعطي الوظيفة المعقَّدة النهائية المرجوَّة التي لم تكن محقَّقة في مكوناته الأصلية البسيطة»[2].

ويلاحظ في هذا التعريف ورود العديد من المفاهيم التي هي من أساسيات فنِّ «التواصل»، وهي:

المكوِّنات البسيطة.

النمط المعقَّد (النظام الكليّ).

التواصل بين المكونات (العلاقات).

وإذا ما أسقطنا المفهوم على مشروع إنسانيٍّ معيَّن، وليكن «مؤسسة»، أو «مدرسة»، أو «مجتمعاً» ما، أو «جماعة علمية» (وهو محل اهتمامنا حالياً)؛ فإنَّ

---

(1) Jeffrey Goldstein : Emergence as a Construct History and Issues.Philip Clayton et Paul Davies The Re-Emergence of Emergence : The Emergentist Hypothesis from Science to Religion Oxford University Press 2006.

(2) من الضروري التفريق بين «الانبثاق» باعتباره سنة كونية وصيغة حركية في نظام الكون، وهو المعنى الذي نقصده؛ و«الانبثاق الذاتي» الذي يفترض نفس «الفاعل الأوَّل»، وهو من الأدلة التي اعتمدتها نظرية التطور، لنفي أيِّ تدخل خارجي في عملية الخلق؛ من هنا يعرَّف «التولُّد التلقائي أنه نظرية كانت تزعم أنَّ أنماطاً معينة للحياة، مثل الذباب والديدان والفئران من السهولة بمكان أن تنشأ مباشرة من أشياء غير حيَّة مثل الطين واللحم المتحلل. وتعود هذه النظرية إلى عهود ما قبل التاريخ، وظلَّت مقبولة على نطاق واسع آلاف السنين وقد ناقضتها التجارب العلمية كتلك التي أجراها عالم الأحياء الإيطالي فرانسيسكو ريدي في عام 1668م» وكذا العالم الفرنسي «لويس باستر» الذي «أدَّت اكتشافات باستير إلى ظهور نظرية الخلية حول أصل المادة الحيَّة. وتقول نظرية الخلية إنَّ الحياة تنشأ من مادة حية سبق وجودها».

الآحاد والأفراد الذين يتكوَّن منهم هذا الكيان، قد يكونون في حدِّ ذاتهم، إذا ما نظرنا إليهم «واحداً واحداً»، «فرداً فرداً»، قد يكونون دون المطلوب، بُسطاء، يتصفون بصفات لا ترشحهم فرادى للمهمَّة... وإذا ما أضفنا فرداً إلى فرد، في عملية حسابية رياضية مغلقة، فإنَّ الثمرة والنتيجة تكوِّن مجموع خصائصهم؛ لا بل أحياناً تغلب الصفات السلبية، فتكون أقلَّ من مجموعهم الرياضيِّ[1]. وأحياناً أخرى، وهذا كثير، قد يستحيل الجمع بينهم لأسباب نفسية، أو تاريخية، أو اعتبارية... وهو حال الأمم التي تعاني مما يعرف بـ «الطاقات المعطَّلة»[2].

لكن، لو عملنا على «العلاقة بين المكوِّنات البسيطة»، وربطنا بين «الأفراد ربطاً محكماً» بناء على شروط موضوعية وذاتية، كالتي حقَّقها النبي محمد، ﷺ، في المدينة المنورة، بعد الهجرة، فيما عُرف بالمؤاخاة؛ لو فعلنا ذلك، في أيِّ كيان كان، فإنَّ النتيجة تكون «بركةً» بعينها. والبركة هي المصطلح اللائق للتعبير عن أنَّ «الكلَّ أكبر من مجموع أجزائه». وبهذا نحقق «نظاماً» مكثفاً فعالاً، باعتماد نظرية «انبثاق» الطاقة والحركية من «العلاقات»[3].

وعملية «الربط واستثمار العلاقات» هذه، عملية ديناميكية؛ للزمان والمكان والظروف والأحوال أثرها الدائم المتجدِّد عليها، وهي ليست استاتيكية خاملة،

(1) من الحقيقة البارزة في المجال الإنساني أنَّ «الضعف لا ينضاف بعضه إلى بعض»، فإذا ما أضفت ضعفاً إلى ضعف آخر تولد ضعفاً أشدَّ وعجزاً أحدَّ. ولا يتحول ذلك إلى قوة ولا إلى قدرة. ولذا فإنَّ النظرية لا تعنى بالسلب ولكن بالإيجاب.

(2) انظر مثلاً ـ محمد الغزالي؛ الإسلام والطاقات المعطلة؛

(3) يقول الأستاذ فتح الله كولن في مقال «رسالة الإحياء»: «إنَّ الهمم والمبادرات الفردية، إنْ لم تنضبط بالتحرك الجماعي ولم تنظَّم تنظيماً حسناً، فستؤدي إلى تَصادُم بين الأفراد لا محالة... ينبغي أن لا تُطفأ جذوةُ الطاقات الفردية بتاتاً، باحتساب ضرر قد تسببه. بل على العكس؛ تجب العناية الرفيعة بها حتى لا تُهدَر ذرةٌ واحدة منها، وتُوجَّهَ جميعاً نحو تحقيق الهدف المنشود الذي تم تعيينه سابقاً، ويزاح خُلُق المصادَمة في النفوس، ويستبدل به روح التوافق، ويُسعى إلى تطبيع إنساننا بهذا الطبع مهما أمكن». ونحن نبني حضارتنا؛ ص.46

تحدث مرَّة واحدة ثم تنتهي؛ ومن ثم وجب ضمن إدارة المؤسَّسات والكيانات البشرية العملُ الدؤوب المتواصل على جبهة العلاقات، واعتبارها محدِّداً رئيساً في تحقيق الرسالة أو الإخفاق فيها[1]؛ ولعلَّ رسماً بيانياً مقارناً بين «مؤسَّسات» مِن عالم متخلِّف، إذا ما قورنت بمثلها في عالم متحضِّر، تعطينا تلازماً واضحاً بين «حجم ونوع العلاقات» من جهة، و«نجاح أو فشل» تلك المؤسسة من جهة أخرى. فكلَّما تكثَّفت العلاقات تطوَّرت المؤسسة، وكلَّما ترهلت تلك العلاقات كانت المؤسَّسة عرضة للانهيار.

ولعلَّ أحسن مثال على أهمية «الانبثاق» يلاحظ في جسم كلِّ واحد منَّا، ليعرف مدى أهمية هذا الشأن، وذلك في «الشبكات العصبية»؛ حيث إنه من خلال التفاعلات بين عدد ضخم من العصبونات[2] يصبح الدماغ البشري قادراً على التفكير، مع أنَّ المكونِّات الأساسية لهذه الشبكات أي الخلية العصبية في حدِّ ذاتها غير قادرة على التفكير. وبالتالي يمكن القول إنَّ وظيفة أو سلوك التفكير انبثق من حيث لم يكن موجوداً في المكونات الأساسية الأبسط»[3].

ولا بدَّ من التنبيه إلى أنَّ «الذكاء» البشريَّ نفسه، يفسَّر فيسيولوجياً بعدد الوصلات التي تربط بين خلايا المخِّ، أي بالعلاقات وكثافتها؛ ويعرَّف منطقياً بأنه القدرة على الربط وإيجاد العلاقات بين ما يتعامل معه الإنسان، بحيث يعجز من هو أدنى ذكاء

(1) يجب أن يكون «مسؤول العلاقات» أو «مكتب العلاقات» في المؤسسات والمشاريع والمجتمعات، مكوناً دائماً فعَّالاً، لا مجرد شعار، أو على صورة هبَّات وحملات كمثل شُعلة سعف النخل، ما تلبث أن تنطفئ بعد أمد قصير من الالتهاب.

(2) عدد العصبونات في مخ الإنسان، مقدرة بين 86 و100 مليار.

(3) استفادت تكنولوجيات الإعلام، بخاصة مجال الكمبيوتر والإنترنت، من هذا المفهوم، وسجلت الدخول إلى عصر جديد، يعتمد العلاقات بشتى أنواعها: الشبكات الاجتماعية، التسوق الإلكتروني، الدراسة عن بعد... غير أنَّ الإنسان يعجز عن صنع «جهاز» يفكر، أي جهاز تنبثق من مكوناته أفكاراً توليدية جديدة، غير محتملة ولا محسوبة ولا متوقعة أساساً. وخاصية «العقل التوليدي» من خصائص النظرية الكونية التوحيدية القرآنية.

من إيجاد مثل هذه العلاقات؛ وفي كلا الحالين، ورغم صعوبة تعريف الذكاء، يبقى التواصل والاتصال محدداً رئيساً في عملية الذكاء[1].

وننهي هذه المقالة المختصرة بنتيجة هي: أنَّ نظرية الانبثاق في كلِّ عناصر الحياة والمخلوقات، التي خلقها الله ﷻ، بخاصَّة عند النبات والحيوان ثم الإنسان؛ تدفعنا إلى التفكير الجدِّي في أهمية «التواصل والعلاقات» في المجال الفكريِّ والحضاري، ولعلَّ من المفيد تعريف الحضارة من هذا المدخل، وهي «قدرة مجتمع ما أن يبني من مكوناته البسيطة نظاماً كثيفاً فعَّالاً، قادراً على فعل ما لا يفعله مجموع أجزائه».

ويمكن تفسير العديد من آيات كلام الله تعالى بهذا المعنى، من مثل قوله سبحانه:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 8/ 46]، والريح هنا، هي ثمرة التواصل، بالاختلاف تذهب وتزول، وقد يعني لفظ الريح الإرادةَ، والعزة، والدولة، والغلبة، والقوة... كما يعني رضا الله تعالى عنكم، وتوفيقكم للخير، ونصرتكم.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: 3/ 103]؛ فالاعتصام بحبل الله، وعدم تفريق الطاقات، يؤدي إلى انبثاق عظيم، من خلال نصرته سبحانه، وتأليفه بين القلوب، والنجاة في الدنيا والآخرة...

وغير هذه الآيات كثير، كله دالّ على بركة الاجتماع والتواصل وربط العلاقات، في أيِّ جسم كان: الأسرة، والمدرسة، والمؤسسة، والمجتمع... ونخصِّص

(1) ينظر الرابط: http://www.intelligence-humaine.com/

«الجماعة العلمية» التي هي عصب الحياة للأمم والمجتمعات، ذلك أن تفرُّق العقول وتشتتها اليوم (في واقعنا، وضمن وعائنا الحضاري) مقدمة للوهن والهزيمة في أجزاء الأمَّة الإسلامية كلِّها؛ وأنَّ تفوق الغرب وتمكُّنه كان بسبب «تجمُّع العقول والسواعد» في جميع الأصعدة والمستويات؛ وهو ما يعبر عنه بعض النقاد بـ «شبكة العلاقات الاجتماعية».

حتَّى لا يتعفَّن الجُبن...

كلُّ جبنٍ معرَّض للتعفُّن لا محالة، إن عاجلاً أم آجلاً، هذه سنَّة من سنن الحياة.

من أراد أن لا يتعفَّن هو و (أو) جبنه فليتجاوز الزمن، وليقف على نقطةٍ خارج نهر الزمن.

ولا يتسنَّى تجاوز الزمن إلَّا في حالةٍ واحدة، هي حالةُ الارتباط المطلق بربِّ الزمن، سبحانه: إيماناً به، وتوكُّلاً عليه، وحسن ظنٍّ في قضائه وقدره.

جميع هذه المعاني مستنبطةٌ من قصَّة ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، ولا ريب أنَّ طعام الرجل وشرابه لم يتعفَّن، غير أنَّ حماره تحوَّل إلى عظام؛ ولذا قال له ربُّ العزَّة: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾، والثمرة اليانعة، هي إيمانه وإقراره، وإعلانه بعد أن ﴿تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾، فـ ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: 2/ 259].

وحتى لا يتعفَّن الجبنُ، جاءت هذه الخاطرة، متَّصلة بسبب إلى واقع المسلمين اليوم، في شتى المستويات والمسارات والسياقات؛ ذلك أنَّ «الشخصَ ـ الصنمَ» في غالب الأحيان كان هو سبب التعفُّن، علِم أم لم يعلم، وأدرك ذلك مَن حوله أم لم يدركوه...

حتى لا يتعفَّن الجبن... فاض فؤادي بهذه الكلمات:

****

كنتُ في غاية الاضطراب والقلق، ولم أكن أعرف السبب، ولقد حاولت مراراً أن أبحث عن الباعث في قرارة نفسي، أو فيما حولي، أو فيمن حولي؛ لعلِّي أسارع إلى معالجته، ثم أستعجل النظر في أسبابه ونتائجه؛ حتى لا تتفاقم الآثارُ النفسية والعقلية والعملية... إلَّا أنني أخفقت في التشخيص، ولم أهتد إلى المراد.

كعادتي، وقفتُ طويلاً أمامَ أرفُف المكتبة، أجيلُ النظر مِن عنوان إلى آخر، فأقعُ غالباً على عناوين قد سبق لي أن قرأتها ـ وأنا قارئ نهم والحمد لله ـ، ثم أمرِّر الفكرة في محتوى هذه العناوين، مما كنت قد تذكَّرته، لأقرِّر: هل يساعدني ما ورد فيها أن أجيب نفسي عن سؤال الحيرة، أم لا؟

هذه المرَّة وقعتُ على غلافٍ رقيق، لِكتاب صغيرِ الحجم، لا يكاد كعبُه يُرى من بُعد متر أو مترين؛ فمددتُ يدي نحوَه، وإذا هو كتابٌ حميم، كنتُ قد طالعته منذ أزيد من عقد من الزمان، ثم ألقيته محاضراتٍ عامَّة، وتكوينات خاصَّة... الكتاب بعنوان: (مَن حرَّك قطعة الجبن الخاصة بي؟).

أخذت الكتاب في جيبي، وانتقلتُ به إلى المقهى المجاور، ثم جلستُ أعيد قراءته مرَّة أخرى، وأستذكر شخصياته الرئيسة (سنيف، وسكوري، وهيم، وهاو)، ثم أضبط أبرز الأفكار الواردة فيه حول التغيير، وموقف الحيوانات بغريزتها منه، وكذا موقف البشر، بكلِّ ما يحملون من «قناعات» و«مخاوف»، ومن «أفكار سابقة»، ومن «رؤى متجذرة»... بدأت أجيل النظر في هذه المواقف المتباينة من حقيقة التغيير، وأحاول أن أسقِطها على أمثلة ونماذج وتجارب في حياتي أولاً، وفي حياة مَن حولي بالتبع.

ولشدَّ ما تحيَّرتُ حين قرأتُ ختماً بالأزرق، كتب عليه: «مكتب الدراسات العلمية» عام 2004؛ ثم فوقه ختمٌ جديد بنفس اللون، كتب عليه: «معهد المناهج»، دون تحديد للتاريخ...

فقلتُ في نفسي: من عام 2004 إلى اليوم، أعني عام 2015، أحد عشر عاماً؛ كانت هنالك «متاهات وسبلٌ» في حياة المشروع، وكانت هنالك بحمد الله «نجاحات» لازمتها «إخفاقات» ولا ريب؛ ومن يومها كان هنالك «أفراد وأبطال»، سايروا هذه المحطات، كلٌّ حسب مرحلته، منهم من لا يزال مرابطاً، ومنهم من حوَّل وجهته إلى ما هو خيرٌ، ومنهم من غادر إلى رباط آخر... ومنهم، مَن لا أعلم عنه شيئاً، إذ كلُّ طاقتي أن أدعو الله تعالى له بالحفظ والرعاية.

غير أنَّ «مكتب الدراسات» باسمه ورسمه، بصفته وصورته، بشكله ومكانه... هذا المكتب الذي وضع أسسَ «المنظومة الرشيدة» على خطِّ السكَّة، ورعا كلَّ قاطرة حتى تستقيم وتقوم على سُوقها... ثم أبدع جملة من «المناهج» و«المفاهيم»، و«الأفكار» و«الآليات»...

هذا المكتب الذي كانت رسالتُه: التغيير في المنهج، من منطلق قرآني...

هذا المكتب المبارك، قد كان ولا يزال بذرةً لمراحل وأسماء أخرى؛ مثل: العلمية، والمناهج، والمنظومة، والخلائف... وغيرها.

هذا المكتب البذرةُ، اختار أن يتقمَّص شخصية «هاو»، ويبحث وينقِّب في المقدمات والأسباب، وأن يساير التغيير، الذي رفضه الكثيرون، كلَّما تسنى له (ولهم) ذلك، دون أن يتنازل قيد أنملة عن المبادئ والثوابت...

هذا المكتب الحسنُ، رآه البعض ـ أحياناً، وأنا منهم ـ... رأوه «ثابتاً من الثوابت»، ونافح عن فكرة استقراره واستمراره على حاله، بصفته وموصوفه... وما هذه الرؤية سوى أثر من آثار «الإخلاص والوفاء»، وهي لا تعدو أن تكون حرصاً على المهمَّة، وعنواناً على الاهتمام...

غير أنَّ هؤلاء البعضُ أنفسهم ـ قد أكون أحدهم، وقد لا أكون ـ رأوهُ بعين جديدة، ونظروا إليه نظرةً مختلفة؛ فتولَّد على إثره «مدارس علمية» مستقلَّة

أداءً ومسيراً ومصيراً، ثم تولَّد من رحمه «معهد المناهج»، الذي بدوره ـ ليس من الثوابت، وما ينبغي له أن يكون ـ تولَّدت على إثره «المنظومة»، و«المجمع العلميُّ»، و«الخلائف»، و«فييكوس»، و«البذور»، و«الوسام»، و«كتابُك»... وغير ذلك من مشاريع، ومن «جُبن طازج جديد» بلغة الرواية.

فهل هذه هي المحطَّة (المحطات) الأخيرة؟ وهل قطعة الجبن صُنعت لنا، لكي نستقرَّ إلى جوارها، نرتع فيها، ثم ننام ملء جفوننا؟ أم أنَّ الحياة «مكابَدة» بين «المتاهات» ـ أعني متاهات الرواية، لا من التيه طبعاً ـ أم أنَّ هذه الحياة «مكابدةٌ» لا تعرف الكلل ولا الملل، ولا تؤمن بلغة النهاية، ولا بالمحطَّة الأخيرة؟

في قرارة نفسي أجد أنني تحوَّلت إلى حجرِ عثرة أمام «الدم الجديد»، مِن «شباب وشياب كذلك» على رأس كلِّ مشروع، هُم في مرحلة العطاء بلا حدود... أمَّا أنا، فلعلَّ أفكاري قد تحجَّرت، ولعلَّ ما أطرحه من جديدٍ، هو قديمٌ قد تمَّ تلميعه، لا غير... ولعلَّ جديدي هو في تخلُّف عن حركة الزمن، وبالتالي فهو من الماضي، لا من الحاضر، بله أن يكون من المستقبل...

مَن يدري؟

قبل أن يتعفَّن الجبنُ، من يدري؟

المرء دائماً، هو مخيَّر بين أن يتحرَّر من أفكاره البالية، ويسخر من قناعاته المهترئة؛ أو أن يتحرَّر من علاقاته بمن حوله، وبما حوله، شاء أم أبى... ذلك أنَّ الإنسان لا يسبَح في النهر مرَّتين، ولا يستنشق الهواء مكرَّراً... فكلُّ ماءٍ هو ماءٌ جديد، وكلُّ هواءٍ هو هواءٌ جديد... حتى وإن تشابهت السباحة بالسباحة، والاستنشاق بالاستنشاق... ويبقى الحقُّ ثابتاً ومستقَرّاً، ويبقى الصدق خلقاً ومنهجاً، وتبقى الغاية الكبرى هي المعيار الأوحد لما كنا عليه، ولما نحن فيه، ولما سنؤول إليه...

فاللهمَّ رحماك، تقبَّل منَّا خالص أعمالنا، ولا تكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

ترى هل يتحقق الحلم؟!

رسالة مباشرة إلى المرابطين في «حلقة الدرس: بنية العمل»

كنتُ أحلم بفريق للعمل، وبجماعة علمية، وبروح جماعية مثالية، تكون بمثابة علامة فارقة في تاريخ الأمَّة ضمن دوائرها المنداحة... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم بثلّة من الشباب، يكونون سنداً ورفداً، ويعملون على توفير كامل الدعم للوصول بالمتَّحدِ العلميِّ عالياً... عالياً.... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم بحِلق للدرس تصل الليل بالنهار، ولا تفرق بين شتاء وصيف، ولا بين ربيع وخريف؛ هي منهمكة في الحفر، عينها على الواقع، تغير فيه، وتنطلق منه، وتؤول إليه... فهل يتحقق الحلم؟!

كنتُ أحلم بعلماء يتفرَّغون للعلم، ويتنفَّسون العلم، يلدون كلَّ عام أو عامين علاماتٍ علميةً راشدة، وحلولاً حضارية أو فقهية أو عقدية تصنع الفرق، وتَهدي الخلق، وتكون - بحول الله - نقلة نوعية في تاريخ الأمَّة قاطبة... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم بتآليف جماعية، يهبُ لها الكلُّ، بلا استثناء، نيته وجهده ووقته وفكره وأمله... لتكون منارة بحول الله في مسار الحضارة... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم بفريق للتمويل، وتوفير الوسائل والظروف للعمل الحضاري، ليذهب المتَّحدُ العلميُّ بعيداً... بعيداً... في الاحترافية والعطاء والمسحة الجدِّية... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم أنَّ كلَّ واحد منا سيغادر حاجاته الخاصَّة، ويرابط في ثغر «المتَّحد العلمي»... قد يترك وظيفته، وقد يخفِّف انتماءه.... لأجله... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم بإخوة يقضون في «المناهج» وفي «مراكز البحث العلمي»، وضمن «حلقات العلم والدرس»، من الوقت أكثر مما يقضونه بين أهليهم وذويهم، ويُعطون له أكثر مما يعطونه لوظائفهم وانتماءاتهم... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم أننا سنسافر سوياً عبر العالم، وسنضع بصماتنا على أحداث التاريخ مجتمعين... وأن لا نكون بحول الله عن هموم الأمَّة العالمية بغائبين... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم أنه بعد ثلاث من السنين سيكون لنا مركز كبير (أو مراكز كبيرة)، متخصِّص في العلم وكفى، يأويه الجميعُ متفرِّغين، ويموج بالاجتهاد والجهاد صباح مساء... يملك كلَّ أسباب الفعالية، المادية منها والمعنوية، الروحية منها والفكرية... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم أنني سأكون «خادِماً»، وسأبقى «خادماً»، لكلِّ واحد من أعضاء «المتَّحد العلمي»، بلا هوادة، وأنا مفعم بالسعادة والحبور... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم بموقع وبوابة يسمَّى «فييكوس»، يكون منبراً لكلِّ منا... يكتب فيه، ويقرؤه، وينقده، ويسويه بمأكله ومشربه، عطاء وأخذاً... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم بمجلَّة «للمتَّحد العلمي»... بجريدة «للمتَّحد العلمي»... بقناة «للمتَّحد العلمي»... بجامعة «للمتَّحد العلمي»... بكلِّ ما تستدعيه الحضارة من آليات ومؤسَّسات... لتصل بنا إلى برِّ الأمان، ولتبرأ ذمتنا عند الملك الديان... فهل يتحقق الحلم؟!

كنت أحلم... باختصار... أن نكون أبناء هذا العصر، ونمتلك وسائل هذا

العصر... ونصل بالأمَّة إلى حالة الانتصار والنصر، في كلِّ مناحي العصر... فهل يتحقق الحلم؟!

****

لقد تحقَّق ـ بإذن الله ـ بعضٌ من الحلم، وولِدت ـ بفضل الله ـ مبادرات، ومحاولات، ومواقف، ومغامرات... ولكن، لا ريب أنه بقي الكثير؛ أنا لا ألوم أحداً فيما بقي... ولكنني ألوم نفسي بداية ونهاية، ألوم ذاتي أولاً وآخِراً...

غير أنَّ لي في إخوتي الشباب الباحثين، العامِلين، المخلصين، المخلَصين... المتفرغين منهم والمنقطعين للفكر في بحر العمل؛ إنَّ لي فيهم جميعاً أملٌ قمين، ورجاء مكين؛ أن يكون اليومَ، يومُ العودة إلى «حلقة الدرس، والمعتكف البحثي»، بصفةٍ دائمة؛ ضمن حلقات «بنيَّة العمل»؛ بعد أن كان ذلك بشكلٍ متقطِّع... أملي ورجائي أن يكون هذا اليومَ يومُ ميلاد حقيقٍ لحركية «الفكر والفعل»، بروْح ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، تكون فيه «بذور الرشد» حالة نماذجية مِفرقية في تاريخ الأمَّة، بحول الله تعالى؛ فإن لم يكن ذلك «بالفعل» «فبالقوة» إن شاء الله؛ وسبحان القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 29/ 69].

الجماعة العلمية، وسؤال العمل:
دعوة استرعاء

عقدتُ النية هذه الأيام أن أتفرَّغ لكلام الله تعالى، وأخلو به إماماً ومعلِّماً وهاديّاً؛ أسأله بلا واسطة عن شواغل حضارية وفكرية تعتصرني في اليوم مرّات ومرَّات؛ ثم أستمع إليه وهو يصرِّف المعنى ويلوِّن الخطاب، ويضع علامات على الطريق لعلَّي أنتبه وأهتدي.

ولقد كانت المناسبة ـ هذه المرَّة ـ الانشغالُ بـ«بذور الرشد»، ليس باعتباره تأليفاً، أو تنظيراً، أو تحليلاً... أو أيَّ شكل من أشكال المنهج المعتاد؛ وإنما باعتبار «بذور الرشد» حالةً ذهنية وجودية، معرفية عرفانية، تضع نقطة الارتكاز، وترسم خطَّ السير، وتحدِّد شكل الأفق، لما يدور في فلك «نموذج الرشد» براديجميّاً.

وقد عملتُ بصيغة «الاقتطاع الزمني»، وهي تقنية أَلِفتها من أيام الماجستير، ثم لازمتني إلى اليوم؛ وذلك أني أعيِّن فترة زمنية لموضوع ما، عادة ما تكون أسبوعاً أو أكثر، لا أشغل الفكر إلَّا بالمادَّة المحدَّدة، أجيل النظر فيها بحر اليوم، وأرفض كلَّ صيغة من صيغ تشتيت الذهن، أعلِّق الاجتماعات واللقاءات والمواعيد إلى حين، وأغلق الهاتف أوان العمل، ثم أحضُّ العقل على التركيز الشديد، وأحمل القلب على المصابرة في هذا الثغر العنيد.

مثلَ طائر مهيض الجناح، ألقى بنفسه من علٍ، وهو يرجو النجاة، لا أمل له في سند أو دعامة؛ وهو ـ لولا الثقة في الله ـ لما فعل ولما تجرَّأ؛ هكذا كنتُ ولا أزال،

في التوجُّه إلى «الآية القرآنية» بضعفي، ثم أستعين بمؤلِّفين وكتَّاب علَّهم يمدُّون لي يد العون، فلا أجد؛ ذلك أنَّ السؤال الذي يعتصرني يتميَّز بخاصيتين، لا أجدهما اليوم فيما بين يديَّ من تراث وميراث:

الخاصية الأولى: أن يكون ما أنتج فهماً وتفسيراً للآية قد تمَّ تداوُله، ضمن «جماعة علمية»، أو «مجتمع علميٍّ»، قادرٍ على الانتقال به من حالة «اللفظ» إلى حالة «حياة اللفظ»، ومن برودة الانفصام عن الزمن إلى القدرة على تحريك مقدَّرات الزمن؛ ولا يتصوَّر ذلك إلَّا ضمن «سياق خصب»، و«حراك دائم».

الخاصية الثانية: أن يكون ما أقرأه «مقدِّمة للفعل»، و «باباً للعمل»؛ أي أنَّه يضع سؤال الأزمة الأساس والمحور في بؤرة اهتماماته وانشغالاته المعرفية والوجودية، السؤال هو: كيف تتم العلاقة بين الحركية والفعل بفعالية؟؛ لا أن يكون اكتمال المعنى هو المقصد والغاية القصوى؛ مع تقديري لهذه الخطوة واحترامي لها، وبُغضي الشديد لكلِّ أسباب القطيعة وأشكالها.

فلا «الجماعة العلمية والتداول المعرفي» واتاني، ولا «سؤال الأزمة، وحركية الفكر والفعل» أسلس قياده لي؛ لذا كنتُ كلَّما دخلتُ مصدراً من تفسيرٍ أو فكر أو تاريخ... أعود منه «خالي الوفاض»، «بخفَّي حنين»، «يدٌ فارغة وأخرى لا شيء فيها»؛ ثم أتهم قُدراتي واستعدادي وملكاتي، ولا يسمح لي ضميري وخلُقي بأن أتهم ذات المصادر، أو أن ألقي اللوم على عالم أو عامل مِن قبلي...

بهذا، عشت تجربة معرفية وجدانية، انتهت بي في دوَّامة من القلق المتنامي، والمؤكد عندي أنَّ اللوم حقيق بجهدنا واجتهادنا ـ نحن مسلمي اليوم ـ في اتخاذ القرآن الكريم منطلقاً للهداية والحضارة والتمكين؛ ذلك أنَّ كتاب الكون لقي من الغرب ـ في عصرنا ـ جهوداً جبارة، لو أننا هيأنا نَصِيفها أو عُشُرها للقرآن الكريم، لكنَّا اليوم في مقدِّمة ركب البشرية بلا منافس...

فإذا كان «علماء الأعصاب» مثلاً، يلتقون كلَّ عام في ملتقى عالميٍّ يجمعهم، وقد يتجاوز عدد الحضور ثلاثين ألف عالم، ليتداولوا فيما بينهم ما توصلوا إليه من نتائج بحوثهم، وليحدِّدوا الأسئلة الجديدة لبحوث لاحقة، ثم يطلقوا إشارة الانطلاق نحو الاستكشاف والبحث والاجتهاد... إذا كان الأمر كذلك في أغلب العلوم في السياق الغربي: الفيزياء، الديانات، الاجتماع، الرياضيات.. إلخ. فإننا لا نعرف ملتقى واحداً للمشتغلين بالقرآن الكريم في مستوياته الحضارية، ما بعد الأداء: أعني الفهم، والتطبيق، والتقويم، والتشغيل، والتفعيل...

ثم إنَّ ما أطالعه أجده ينتهي به عند عتبة «اكتمال المعنى وبيان المبنى»، ولا يكلِّف نفسه «إلَّا نادراً» عناء المرابطة في ثغر «التنزيل» و«التفعيل»، أي مهمَّة إنزال ما فهم على خطِّ الزمن والعصر؛ ولذا كثيراً ما نجد الدلالة المتوصل إليها غير مفهومة حين تطبيقها على أرض الواقع، وحين وضعها ضمن حيثيات المتوقع؛ فيخيب الأمل، وتبقى المعاني الكبرى في الذاكرة، وتتسم الجوارح والسلوك بما يناقض تلك المعاني، ونخاطب مجتمعين بـ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 61/ 2].

المكابدة مستمرَّة، والطريق سالك، وتوفيق الله تعالى هو الأمان بعينه، واليأس محرَّم، والمبادرة مؤكدة، والاجتهاد موصول، والصبر معقود، والعمل بعقلية الجماعة والاجتماع منهج، وابتغاء العمل بعدَ العلم نموذج معرفيٌّ وجدانيٌّ عليه المدار كلُّه...

والله يقول الحقَّ، وهو يهدي السبيل...

السياق الخصب في الجزائر:
حقل جهادنا، ووجهة نظرنا

كتبتُ مقالة في العام المنصرم، بعنوان: «جرَّبت الكسل»، تعرَّضت فيها لتجربة عملية وجدانية، حاولتُ خلالها لمدَّة زمنية أن أقبض يدي عن الكتابة، وأمنع عقلي من بناء المعاني وصياغة الفروض، بل وحاولت أن أفرضَ حصاراً على «بركان قلبي» حتى لا يقلقني بالأسئلة المحيِّرة.

حين انتهيتُ من التجربة، سارعتُ إلى كتابة ما تعرَّضت له من مشاعر وأحاسيس، وحوار في المستويين الجواني والبراني؛ ثم أودعتُ ذلك مذكراتي في عدَّة صفحاتٍ، ثم لم أنشرها إلى اليوم، معتقداً أنَّها تجربة ترشَّح للنظر والتحليل من قِبل زملاء وباحثين، لعلَّ ذلك يُكتب يوماً ما، بحول الله تعالى.

أمَّا هذه المرَّة فلقد حملتُ سؤالاً وتحدٍّ من نوع مختلف، وهو:

هل يمكن لإنسان أن ينتج فكراً (معرفة، علماً، إبداعاً، فنّاً...) وهو رهين سياق عقيم؟

وهل السياق الخصب شرط حديٌّ أساسٌ للإثمار؟

ثم ماذا عن الجوِّ العامِّ في الجزائر، هذه الأيام، خصوبة وعقماً؟

لقد عدتُ بالقراءة إلى نماذج من علماء مسلمين وغير مسلمين، وطالعتُ سياقاتهم بين الخصوبة والعقم، في مراحل تاريخية متباينة، وكانت الرحلة شاقة وممتعة في آن واحد.

الحقُّ أنَّ كتاب «أرباب المستوى» تعرَّض لهذه النقطة بالذات، ضمن ما عرف «بنموذج الوادي المقدَّس» من خلال أجواء «الأكاديميا» المباركة في تركيا، وكانت لي فيه وجهة نظر، لا أزال أحتفظ بها، وأحتفظ بالحقِّ في التداول حولها، والتفعيل والتشغيل حيالها.

أمَّا اليومَ، في حالة الجزائر وسياقها (مثالاً لبلاد مشابهة أخرى)، وضمن أمواج الأحداث، وبالنظر إلى حال العالِم والمشتغل بالعِلم، وبالاطلاع على حقيقة وواقع الجامعات، ومخابر البحوث، والمؤسَّسات المرشَّحة لتأطير المعرفة في هذا البلد العزيز ـ الكئيب... فإنَّ القراءة يجب أن تكون مختلفة، ويجب أن تخرج من بؤرة «بركان التشاؤم» الذي أَلِفناه، والذي هو سبب من أسباب نشر الكدورة في السياق المحلي لكلِّ باحث ومشتغل بالعلم.

اليومَ، أقرُّ باستحالة إنتاج وصناعة الفكر (والمعرفة، والإبداع، والفعل الحضاري...) إذا كانت الأجواء محمَّلة بالسواد وبالرماد، وإذا كانت الأحداث مجلجِلة صاخبة، وإذا كانت النفوس ضيِّقة قلقة، وإذا كانت العقول مشتَّتة غير مركِّزة... وإذا فقدت قاعات الدرس والبحث العلمي قدسيتها وكرامتها، وهدوءها وحُرمتها...

ويكون السؤال المترتب من هذا، بالتالي:

ما العمل إذن؟

ذلك أنَّ مجرَّد طرح الإشكال، بلا غوص في الجواب، يزيد الطين بلَّة، ويعقّد الأمر، ويوسع الشرخ، ولا ريب...

فما العمل إذن؟

هنا، أعلنُ، وقد اطَّلعتُ على قائمة «براءات الاختراع» التي تنسب لأسماء جزائرية، وهي تزيد على ستة آلاف براءة اختراع، مِن مختلف جامعات ومراكز

العالم الصناعي بالخصوص (ثمة عالم جزائري مثلاً، سُجِّل باسمه أكثر من ألف ومئة اختراع معتبَر)...

وهنا، أقول، وقد طالعت بإمعان أجواء الاختراع والإبداع في العصور الذهبية للمسلمين، من أمثال بيت الحكمة في بغداد، والأزهر في أوجِه، والأندلس، وتلمسان، واستانبول في قمَّة عطائها (الرزاز نموذجاً)..

ثم، هنا، أقِرّ، وقد قرأت عن السياق الخصب لعلماء غربيين صنعوا الفرق في تاريخ العلم الحديث، من أمثال: ألكسندر غراهام بيل، وماري كوري، وتشارلز بابيج، وأينشتاين، وبور، وهايزنبرغ، وبوبر... وغيرهم كثير...

وأقول، وقد عاينتُ أجواء العلم في الملتقى العالميِّ لعلماء الديانات في «بَالتيمور»، وقد حضره أزيد من عشرة آلاف باحث من القارات السبع... وكنا ضمن الحضور، بعضوية ودعوة...

هنا، أكون صريحاً، وأقول قُبيل حفل «وسام العالم الجزائري»، وضمن أجواء «حلقات الدرس»، بنيَّة العمل، وخلال التفكير الجديِّ في «المعتكف العلميِّ» (صرح الرحمات مثالاً)، وأوان العمل في «بذور الرشد» معرفيّاً وتقنيّاً، وعلى ضوء «هزارفان» وحركية العلم في مجموع الخلائف....

أعلن، وأقول، وأقرُّ، وأصارح: أنَّ أعظم خدمة، وأكبر تحدٍّ ينتظرُ إنساننا اليومَ، ويزلزل نفوسنا في هذا البلد الكريم ـ الجريح، وفي بلاد إسلامية أخرى (عرفناها وعشنا فيها، ثم أمَّلنا الكثير منها)... إنَّ أعظم خدمة يقدمها الواحد منَّا لبلده، ووطنه[1]، وأهله، وعشيرته، إرضاء لربه، ونفعاً لعباده، هو: العمل على إحلال «سياق

(1) الألم يعتصرني حين أتذكَّر باحثين أكفاء، من بلدي، ممن تعرَّفت عليهم في مناسبات مختلفة، وهم بسبب السياق العقيم توقفوا عن إنتاج المعرفة، وهدرت جهودهم (بصريح عبارتهم) بين إدارة، وتصحيح للأوراق، وخلافات وهمية، وصراعات... والبعض منهم للأسف اسمترأ هذه الحال، وألفها.

خصب» للتفكير، وإعمال العقل الجمعي، وإنتاج[1] المعرفة، وصياغة الخطط والاستراتيجيات؛ مؤسَّسة على «رؤيتنا الكونية التوحيدية»، مصبوغة بصبغة «ذاتنا الحضارية»، مستفيدة من جميع التجارب العالمية الأخرى، بلا استثناء...

هذا هو الجهاد الأكبر، الإجابة عنه إجابة عن السؤال الأخطر؛ سواء أدرك ذلك الناس أم لم يدركِوا، اعترف بذلك الأقربون أم لم يعترفوا... المهمُّ أن أوَّل خطوة للرشد، في حقل العلم والعمل، هي: السياق الخصب، والتربة الصالحة، والجو المعقم، والروح الجماعية المؤيَّدة بنصر من الله تعالى...

هذا حقل جهادنا، وهذه وجهة نظرنا، والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

❁ ❁ ❁

(1) القاعدة الكلية للإثمار، هي: إنَّ الشجرة تعيش لتثمر، أمَّا الإنسان فيثمر ليعيش.

طائر البطريق:
رسالة مفتوحة إلى حلقة الدرس المباركة

على طاولة المكتبة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، التابع للديانات، استانبول... أجلس وحولي ناس من كلِّ مورد ومشرب، يحملون آمالهم معتَّقة على أكتافهم، كلٌّ في سبيل، وكلٌّ إلى سبيل... لا أعرف من أحدهم إلَّا نزراً من المظهر والظاهر، أمَّا المخبر والباطن، فهو هنالك في أغوار عقولهم وقلوبهم، مكنونٌ في صدورهم وسرائرهم... قد لا تُكشف إلى يوم الحساب: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 86/ 9].

ومِن حولي أسفارٌ، مئات الآلاف من العناوين، من مختلف اللغات والثقافات؛ تحيط بها الملايين من الوثائق، من أرشيف الدفاتر العثمانية المعطَّرة؛ جميعُها بلا استثناء ـ المؤلَّفاتُ والوثائق ـ تحكي قصَّة كاتبها وناشرها وطابعها وقارئها؛ مما لو نضِّد في رواية لفاق حجمُها جبال الهيمالايا مرَّات ومرَّات؛ وهي مجتمعةً تذكِّرنا بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 51/ 21].

أمَّا أنا، فمِن بين الحضور مكابَدة، ومِن بين مَن كتب بعض الأسفار معانَدة؛ لا ريب أنَّ مَن يراني يقرأ فيَّ ـ ظاهراً ـ قناعاته، فقد يدرك بعضاً من حقيقتي وقد لا يدرك؛ أمَّا مَن يقرأ ما كتبتُ ويُصغي إلى شيء من خلجات وجداني، فقد يفهم بعضاً منها وقد لا يفعل... لا لعجز فيه، لكن لضعف فيَّ، ولعيٍّ في قلمي وكلامي...

والله، لولا اللهُ، لما أقدمتُ على هذه الرسالة الخالدة، رسالةِ العلم والدرس؛ ذلك أنها من شأن الأنبياء الأطهار؛ تلقَّوها وحياً من السماء، ثم مارسوها صبراً

على أهل الأرض؛ ولقد ورثها العلماء الأفذاذ فأقاموها، ذلك أنهم كانوا على شيء من الحقِّ والصدق؛ أمَّا أنا فغريبٌ في هذا الموكب، أبحث عن مقعدي على ظهر السفينة فيُعييني البحث بلا طائل، أسأل عن مكاني في صفِّ الجندية، فأطرَد مِن أمام إلى وراء، حتى أجدني واقفاً وحدي مرتجفاً مثل عصفور مبلَّل، أو كطائر مَهيض الجناح يرميه القرُّ بكلِّ هلاك...

تأبطت جريدتي، وحملت مَبخرتي، فرُحت أسافر من بلد إلى بلد، مثل صوفيٍّ أعياه سؤال الناس، فسعى ليسأل غيرَ الناس، حجراً أو شجراً، أرضاً أو سماء، حيواناً أو طيراً... لا يهمُّ؛ فلكلِّ مخلوق لسان، ولكلِّ موجود لغة، إنما العجز في الفهوم والمدارك لا في الأعراض والجواهر...

غير أنَّ لسان الحال كان أفصح من لسان المقال: نطق الحقُّ مجلجلاً، أن رويدك يا «محمد» رويدك... لا تستعجل، ولا تيأس، ولا تولي الدبر، ولا تفرَّ من الزحف... فهنالك وراء التلَّة جمالٌ وجلال؛ ومن هنالك قريباً ستشرق شمس المعنى، وسيعقبها ضحى وضّاح، وستختفي الخفافيش في دهاليز الغرور، ويغادر البومُ إلى أرض الفناء والهباء: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: 30/ 4-5].

نعم، واصلتُ المسير سنينَ، بلا توقُّف ولا توجُّس؛ ذلك أني لو تردَّدت بُرهة لاعتراني ماردُ الجمود، فأصير تمثالاً، قد يكون محتفًى به، أو يكون «لا مرحباً به»؛ إلَّا أنه تمثال على كلِّ حال؛ وما سكن الناسُ يوماً خرائب التاريخ ولا عمروا بقايا الزمان؛ ولكنَّ اللبيب من «سَبح في النهر ثم لم يتحوَّل سائلاً مائعاً، ولا حجراً صلداً؛ وإنما بقي على فطرته وخِلقته: إنساناً/ إنساناً».

اليومَ، وقد جرَّبت المفاوز الوعرة والتلال السهلة، عاينت حرارة «عين صالح»

وبرودة «قرص»[1]، عرفت النجاح المؤيَّد والإخفاق المزلزِل؛ اليوم تيقَّنت أني كالبطريق تماماً، لا فرق، إلَّا فيما كرَّمني الله به من قلب وعقل، ومن رسالة ودين، وتكليف وحساب... لا فرق...

انظروا إلى البطاريق التي تعيش عادة في المناطق الثلجية الباردة صيفاً وشتاء؛ وهي «من الحيوانات ذات الدم الحارِّ، تماماً مثلي أنا الإنسان»، واسألوها أو اسألوا أنفسكم: كيف يستطيع البطريق البقاء دافئاً في الأماكن الباردة وفي المياه الجليدية الصقيعة؟

قد تجدون الجواب في الدهون التي تحت جلدها، وقد تجدونه في الزغب الذي تعلوها، غير أنَّ فصل الخطاب، وحسن الجواب، في حكمة الله أنْ هدى البطاريق إلى العيش جنباً إلى جنب، في مجموعات، مع إبقاء أجنحتها مضمومة إلى جسمها، للمحافظة على دفء أجسامها. وقد تصل أعداد البطاريق إلى 5000 في المجموعة الواحدة... ولقد تعاني بعض البطاريق من مشكلة عكسية: فبطاريق الأباغوس تعيش في المناطق الاستوائية الحارة جدّاً، وتقوم بمدّ أجنحتها وزغب ريشها للشعور بالبرد».

أخي المعتكف، ثنيتَ ركبتك لحلقات الدرس، وشمرت عن ساعدك صبراً وصدقاً، ثم ركبت أمواج البحر أملاً وعملاً؛ تيقَّن أنَّ البرد مهما قسا، وأنَّ الحرَّ مهما اشتدَّ، فإنَّني وأنت... جزءٌ من كلٍّ، بعضٌ من مجموع، أفرادٌ ضمن سرب، بطاريقُ لا نقوى على مواجهة المصاعب إلَّا بأن نكون جنباً إلى جنب... أفكارنا مضمومة إلى بعضها، وأعمالنا مكملة لبعضها، وأهدافها تبع لغاياتنا... معا، سوياً، جميعاً، كُلاًّ...

(1) عين صالح: مدينة تقع جنوب الجزائر، يضرب بها المثل في الحرارة؛ وقرص: مدينة تقع شرق تركيا، في الأناضول، يضرب بها المثل في البرودة.

هذا ما أفهمه من «المتّحد العلمي»، ومن «الجماعة العلمية»، ومن «بركة الدرس»، ومن «حلقات بنيَّة العمل»... لا أكثرَ ولا أقلَّ؛ وإني موقن أنَّ عون الله لا يتنزل علينا مفترقين مشتّتين، وأن نصره لن يرينا محياه مختلفين متلاعنين، وأنَّ الواحد منَّا ـ في عالم اليوم ـ تجرفه الأمواج مدّاً وجزراً، إذا هو آثر العزلة والاعتزال، وأنَّ البركة كل البركة في المجموع وفي الاجتماع.

فهل نحن فاعلون؟

الأمل فيكم، والقلب معلَّق على عتبات باب الله، رجاءً ودعاء، وشوقاً واحتراقاً؛ ونحن نتلو كلَّ صباح ومساء في صفِّ الجماعة، تحدونا الملائكة من كلِّ جانب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 1/ 5-6]

آمين، آمين، آمين..

استدعاء إلى الاجتهاد:
«علوم الصلاة» نموذجاً

إنَّ الإسلام يعني أن نفهم وأن نعترف بالازدواجية (الروح والمادة) المبدئية للعالَم، ثم نتغلب على هذه الازدواجية؛ وبهذا يكون الإسلام تسمية لمنهج أكثر من كونه حلاًّ جاهزاً، ويعني: المركبَ الذي يؤلف بين المبادئ المتعارضة؛ هذا المبدأ الأساسي في الإسلام يذكرنا بالنمط الذي خُلقت على منواله الحياة؛ فالإلهام الذي ربط بين حرية العقل وحتمية الطبيعة كما يظهران في الحياة، يبدو أنه هو الإلهام نفسه الذي ربط بين الوضوء والصلاة في وحدة تسمى «الصلاة الإسلامية».

إنَّ حدساً فائق القوة يمكنه أن يبني الإسلام بأكمله من خلال تأمله في الصلاة، ويستطيع من خلال تأمله في الإسلام أن يقيم الازدواجية التي تشمل هذا الكون. الدعوة إلى بناء معرفي/ حضاري جديد، يكون منطلق «التأمل في الصلاة» بشكلها الإسلامي؛ هي دعوة لعلوم جديدة، ومؤسسات جديدة، ومناهج جديدة، ورؤية للعالم جديدة...

كان محمد إقبال قد نبَّه إلى هذه المقاربة في كتابه (تجديد الفكر الديني) في فصل «مفهوم الألوهية ومعنى الصلاة» ومما قاله: «إن الشكل الإسلامي للصلاة في جماعة، إلى جانب قيمته الإدراكية، هو مؤشر نحو أمل لتحقيق تلك الوحدة اللازمة للبشر، كحقيقة في الحياة، بالقضاء على كل الحواجز التي تقف حائلاً بين الإنسان وأخيه الإنسان».

غير أنَّ علي عزت بيجوفيتش بأفقه المعرفي/ الحضاري هو أول من دعا صراحة إلى فتح هذا التيار المنهجي الجديد؛ من خلال ما كتبه في (الإسلام بين الشرق والغرب) مما ورد أعلاه، كذا بقوله: «ليست الصلاة مجرد تعبير عن موقف الإسلام من العالم، وإنما هي أيضاً انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم».

إنَّ الصلاة في الحقيقة هي خلاصة الإسلام ككل، إنها شفرته أو صيغته «الكودية». ومرجع ذلك أنَّ الصلاة تجمع بين مبدأين في إطار واحد، يُعتبران حسب النظرة المسيحية متناقضين لا يلتقيان؛ أعني بذلك الوضوء والصلاة. هذان المبدآن يذهبان عميقاً في بنية الإسلام. إن العقلانية التي ترفض الرؤية الجوَّانية، والرؤية الجوانية التي تستبعد المدخل العقلاني، ينتهكان «مبدأ التوازن في الصلاة». إن أي تطرف أحادي الجانب في هذا الصدد يعتبر هبوطاً إلى مستوى الوعي المسيحي، انتهاكاً لمحور الإسلام المركزي. وإذا كان الإسلام يمثل إمكانات الإنسان الفطرية، فلا بد أن يكون له ظهور ما سواء على شكل ناقص، أو في شذرات هنا وهناك حيثما وُجد متدينون يؤمنون ويعملون، أي حيث لا ينسى المتدينون دورهم في هذا العالم.

هذه إذن، دعوة من «نموذج الرشد» المؤسس على فكر هؤلاء، لفتح كوة في نسيج «المعرفة البشرية» و «حركية الحضارة الإنسانية» باجتهاد وإبداع جديد، يمكن أن نضع له عنواناً: «علم الصلاة»، «حضارة الصلاة»، «ثقافة الصلاة»، «شعبة الصلاة»، «حركية الصلاة»، «الصلاة باعتبارها رؤية كونية»، «الصلاة وتنظيم العالم»... لا يهم العنوان، وإنما الفحوى هو استدعاء جديد للاجتهاد، فيما فرطنا فيه، وفيما نحن أحوج ما نكون إليه.

مساءلةٌ حول النموذج من موشور:
«لا تحزن إنَّ اللهَ معنا»

لكلِّ كائنٍ وجودٌ ذاتيٌّ ووجودٌ خارجيٌّ؛ فهو «بذاته» يكون هو هو فلسفيّاً، ويحمل خصائص التميُّز والإحساس والاستقلال والتحيُّز معرفيّاً ونفسيّاً؛ أمَّا بوجوده الخارجيِّ فيكون دائماً «ضمن» و«في سياق»، ويكون متفاعلاً مع حقيقة «التأثير والتأثر» بكلِّ أبعادها: المادية في مستوىً معيَّن، والاجتماعية في مستوى آخر... وهكذا دواليك.

في البدءِ كانت الفكرة، ومن السَّماء نزلت الفكرة، وفي الأخير ستكون الفكرة؛ سواء تشكَّلت باسم «الكلمة»، أم «الوعي»، أم «السؤال» أم غير ذلك.

ولذا، ونحن نحاول فكَّ شفرات عديدة بمسمَّى «نموذج الرشد»، يحقُّ لنا أن نقرأ الأفكار بوعي مرَّات ومرَّات، ويليق بنا أن نطالع الحدثَ بحضورٍ فعَّال لا يعتريه الشدَه والغياب، ثم لا نكلَّ ولا نملَّ من «السؤال» ومن عرض «الفكرة على الحدث»، ومن إرجاع «الفعل إلى فكرته».

فكرة النموذج إذن لها وجودٌ ذاتيٌّ، ولها سياقٌ خارجيٌّ؛ فهل لديها الأسبابُ التي بها تعرض نفسها على المجتمع عرضاً مقنعاً؟ أي هل تملك التناغم بين حقيقتها وخطابها وبيداغوجيتها وإعلامها؟

ثم، هل مَن يحوم حول الفكرة يتبنَّاها بوعي وإدراك متجاوز للاختزال والتنميط والانطباعية؟ أم أنها ستظلُّ رهينة «السياق الملزم» بحجة «ذهان الاستحالة» طوراً، وبمبرر «ذهان السهولة» حيناً؟

هل فكرة «حلقة الدرس» بهذا الاعتبار، سيكون لها تأثير مناسب على ذاتنا الحضارية؟ أم أنها ستكون مجرد «حدث عابر» يولِّد الإعجاب والحضور الجزئيَّ، دون أن يلج إلى عمق «سؤال الأزمة» الحضاري؟

وهل فكرة «الجامعة البحثية» ستكون محركاً «لسياق خصب» جديد، في علاقة الباحث ببحثه، وفي علاقة الظاهرة بروح العلم، وفي العلاقة القدرية بين العلم والعمل، بين الجامعة والشارع؟ أم أنها ستثير الاهتمام، ثم قد تولِّد مبنى وتنظيماً لا يغيِّر في ميزان المعنى شيئاً ذا بال؟

وهل فكرة «وسام العالم الجزائري» ستحمل بذور مُصالحة مع الذات الحضارية لجميع الفاعلين في حقول المعرفة الولود، بمقتضى الواجب والمسؤولية وبحكم ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: 9/ 122]؟ أم أنها ستتجمَّد حدثاً سنويّاً هامّاً، مثيراً لبعض الفضول الإعلاميِّ والطلابيِّ والجماهيريِّ، ثم تُطوى مقاصده مع آخر لوحة تطوى من قاعة الاحتفال؟

وهل فكرة «هزارفان» سترتبط بالبعد التاريخيِّ للحركية حفراً وتحليقاً، ثم تغييراً للتصورات والمدرَكات والقناعات، من الانتماء المجرد إلى الانتماء المسدَّد، ببعده الكوني التوحيدي العالمي؟ أم أنها ستؤول إلى «تجمُّع طلابي» طيِّبٍ مثير للنظر، ودافع للتأسِّي والتقليد محليّاً، وكفى؟

ثم هل فكرة «بذور الرشد» بما بُذل ويبذل فيها من جهد فكريٍّ وإمكان ماديٍّ معتبر؛ هل ستحمل بذورَ عصرٍ جديد للتفاعل مع كلام الله تعالى «بنية العمل» تفاعلاً «جمعيّاً جماعيّاً» مؤسّساً على «سؤال الأزمة» مدرِكاً لثقل المهمة، مؤيَّداً بحبل من السماء؟ أم أنها ستتحول إلى «برنامج آلي» و «لقاءات مطالعة وقراءة»، ثم إلى مخرجات إعلامية مفيدة، غير أنها تكون دون المأمول، وتكون أقل من حجم التحدي بأشواط؟

ونعود إلى أفكار سابقة وجوداً، وسابقة هجرةً، من مثل فكرة «التربية والمدارس»، ونتساءل بعد أكثر من عقد من الزمن: هل تحقق المرجوُّ منها، ولو في المستوى الكيفيِّ، فكانت علامةَ تحوُّل في الخط البياني لممارسة واجب تربية الجيل وتعليمه؟ أم أنها لا تزال تلعق جراحات الترسُّبات والدمامل التي أورثها «النسيج الحضاري» و «الوعاء الحضاري»، ولم تجد السبيل لتجاوزها بعدُ؟

وفكرة «بوابة فييكوس» التي ما فتئت تنشر وتخرِّج وتعرِض المادة خاماً ومحوَّلة، هل تحقق المبتغى منها بديلاً للإعلام السوقيِّ وللإعلام الفاقد للمعنى والوجهة؟ أي هل صار «فييكوس» حالة وعلامة وماركة حضارية مسجّلة بألف اعتبار واعتبار؟ أم أنَّ الروتين قد انقضَّ عليه فكرةً وواقعاً مثل الأخطبوط، فصار مجرد موقع عاديٍّ، وكفى؟

وماذا عن فكرة «معهد المناهج والدراسات العليا»، وهي التي جنَّدت الكثير من المنشغلين عن البحث الغارقين في بحر الحياة، لتعيدهم إلى نغمة التوافق بين العلم والعمل، بين البحث والوظيفة؛ هل أنجزت المناهجُ المنتظر منها، وصارت دليلاً آخر على أنَّ ثمة تغير ما في روح المجتمع وفي شكل أفكاره؟ أم أنه استحال إلى برامج ومقررات ومناقشات وتسجيلات، كغيره، ولا يزيد؟

أمَّا فكرة «كتابك» فقد كانت أملاً للخروج من عنق الزجاجة في توصيل المنتج المعرفي بالقارئ، وفي النشر المسؤول لما يُنتج من أعمال يخاطب بها الجمهور القريب والبعيد، ولقد ارتقت من خلية في مشروع إلى مؤسسة مستقلة، فهل هي كذلك اليوم؟ أم أنَّ متاعب ومصاعب تقف أمامها، بخاصَّة في النشر وفي اقتحام أبواب القراء بمنهج وأسلوب فعال؟

****

بالطبع، ليست هذه عملية حصر للأفكار التي تحوَّلت إلى مشاريع؛ وإنما هو تأمُّل مشروعٌ، ومساءلة ملهمة؛ لا بغرض الانتهاء إلى تقرير وحكم نهائي، مما لا معترض عليه ولا ناقض له؛ وإنما الهدف تذكير كلِّ فاعل في كل حقل، ضمن كلِّ حركية، وفي كلِّ سياق، البارحة واليوم وغداً، بقاعدة كلية، شرطية حدِّية، هي: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: 8/ 70]، وقاعدة أخرى شارحة لها، وهي: «الخيرية رهينةٌ بصفاتها».

فالخير ليس مادة موضوعية محايدة لها بدايةٌ ونهايةٌ، والصوابُ ليس حكراً على أحد دون آخر، والصلاح ليس وراثة أبدية عرقية أو مذهبية، والفلاح ليس سُوقاً مغلقاً على المحتكرين الغافلين، والنجاة ليست عهداً بلا شروط لقوم أو جهة مهما علا شأنها، والاجتهاد ليس كلمة تكال وتقال؛ وإنما هو مكابدة وكبد بلا كلل ولا ملل، بصبر واصطبار ومصابرة؛ ولا ريب أنَّ الله تعالى كريم حليم «**لا يضيع أجر من أحسن عملاً**».

فجميع الأفكار الوارد ذكرها، أو المضمرة في ثنايا الحراك، هي رهينة هذه المعاني، سواء في مستوى ثنْيِ الركبة والجلوس إلى المعنى، أم في مستوى إرسال الخطى والقيام للمهمَّة؛ في جميع ذلك لا بدَّ أن نعلم:

- أنَّ «ما نحن فيه هو مرآةٌ لما نحن عليه»،
- وأنَّ «سفوح قلوبنا تربة لبستان أقوالنا وأفعالنا»،
- وأنَّ «نوايانا وقودٌ ونقطة ارتكاز لتوجهاتنا الفكرية والفعلية»،
- وأنَّ «الله سبحانه يمدنا بالعون في الوجهة التي اخترناها لأنفسنا ولأمتنا»،
- وأنَّ للبارحة غدٌ، هو يومُنا هذا؛ وأنَّ لليوم غدٌ هو المستقبل؛ وأنَّ للمستقبل غدٌ هو يوم «الجزاء والعرض الأكبر».
- وأنَّ «شريط أفكارنا وأفعالنا هو الصراط الذي نجتازه لبلوغ مآلنا ومصيرنا»...

فلينظر كلُّ واحد فينا ما هو قائل، وما هو فاعل؟

المهمُّ أن نتأكَّد أنَّ المجاهدة قائمة على قدم وساق، وأنَّ المكابدة ملازمة لبحر اليوم فينا، وأنَّ الوجهة لا تغادر لِحاظنا ومحطَّ أبصارنا، وأنَّنا مسكونون بالاهتمام والهمِّ والهمَّة، وأنَّ «السؤال» بات سجيةً فينا لا تكلُّفاً وتمحُّلاً، وأنَّ «التداول والروح الجمعية والجماعية» تحوَّلت إلى «حالة ذهنية» عند كلّ واحد منا، وأنَّ معنى «**حجوا قبل أن لا تحجوا**» قد غرس في تصوراتنا واختياراتنا، وقبولنا ورفضنا.

لا شكَّ أنَّ المرء لا يُسأل عن ثمرة فعله، وإنما يُسأل عن مدى اجتهاده ومجاهدته، وعن حقيقة كبَده ومكابدته، وأنَّ الخواتم بيد علاَّم الغيوب، وأنَّ القليل قد يكون لبنةً للكثير، وأنَّ البذرة قد تصير يوماً ما غابة، وأنَّ الفكرة قد تصير حضارة، لا بعناية الإنسان وحرصه، وإنما بلِحاظ صدقه وإخلاصه لمن بيده مقاليد كلِّ شيء، ولمن له أوائل الأمور وأواخرها، فسبحانه وهو القائل: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التوبة: 9/ 88]، ولقد قال كذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 29/ 69].

****

عودٌ على بدء، أؤكِّد أنَّ الحجم والكمَّ، واعتبارات الناس، وإعجاب المعجبين، كلُّ ذلك ليس معياراً ـ بل لا ينبغي له أن يكون كذلك – للحكم على أيِّ حركة أو فكر، مهما كان مصدره ومورده؛ وإنَّما المعيار هو التوفيق الذي يصاحب ذلك الفكر وتلك الحركة، بأن تُتّخذ أسباب الوصول المأمور بها «أمراً تشريعياً» (الإيمان، الدعاء، الطاعة، التوبة...)، وأن لا تُغفل الأسباب التي أمر الله بها «أمراً تكوينيّاً» (الإعداد، الكفاءة، الفعالية، التقييم، الجماعة، الاجتهاد...)؛ فإذا ما اكتملت «منظومة الأسباب» بشقَّيها، تنزَّلت المعية الربانية وابلاً، فسقت الأرض الخصبة،

ثم أثمرت وأينعت وسقت وأطعمت؛ فيزدهي الربيع على إثر ذلك ويزدهر، وينال «كلُّ ذي كبد رطبة» نصيبه من الخيرات والبركات.

ولعلَّ هذا ما عناه نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ بقوله، وهو في المهد صبياً: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 19/ 31]؛ فحيثما حلَّ أمثالُ هؤلاء الأبرار ـ جعلنا الله منهم ـ لزم أن ندعو الله تعالى أن يلحقنا بهم وبأرضهم ومستقرِّهم: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 23/ 29].

ثم مَن لازم هذه المعاني كسبَ معية الله وعنايته؛ ولو أنَّ فرعون وجنده كانوا على إثرهم وقربوا من إدراكهم، لحسن بهم أن يردِّدوا مع نبي الله موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 26/ 62].

ثم لو أنَّ أبا جهل وأبا سفيان وعُتاة قريش كانوا على مرمى حجر منهم، لوجب أن يردّدوا مع صفي الله محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو يخاطب خلَّه أبا بكر الصديق: «**لا تحزن إنَّ الله معنا**».

ولكن، مهلاً، على كلِّ واحدٍ منَّا أن يتفكَّر في سياق الآية الآنفة ولحاقها، وأن يتعمَّق في سياقها، وأن يتمثل ما فيها من أبعاد لا حصر لها، ألم يقل جلَّ من قائل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 9/ 40].

هذه المقدِّمة، والنتيجة الحتمية: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 9/ 40].

حِماك يا ربِّ... رحماك...

من الحفر... إلى التحليق في سماء المعنى

قبل بضع سنين، غادر مطار الجزائر ثلةٌ مِن طلبة العلم، قلوبهم يومَها على جناحَيْ طائرٍ؛ قصد الاختبار في أنقرة، للوُلوج إلى صفِّ الجامعات التركية؛ ويومَها كتبتُ خاطرة بعنوان «الحفر بحثاً عن المنظومة...»، ثم سجَّلتُ على الهامش دعاءً لا أزال ولن أزال ـ بعون الله تعالى ـ أردِّده ما حييتُ، وهو: «فتحَ الله عليهم، وفتح بهم، وجعلهم خلائف للفاتح...» آمين.

اليومَ، وقد غادر مطارَ الجزائر، شبابٌ يافعٌ يسابق الريح رجاءً وشوقاً، ويطوي المسافات أملاً وعشقاً؛ لِيشهدوا «المخيَّم العلميَّ: هزارفان»، ولقد زُلزلوا زلزالاً شديداً قبل بلوغ المرام، فكان سفرُهم قاب قوسين أو أدنى؛ ثم شاء الله فسخَّر الأسباب مِن حيث لا نحتسب... وها هم الساعة، فيما أحسبُ وأقدِّر، يحطُّون الرحال على مطار استانبول، بقلوبٍ محرقة، وعقول متَّقدة، وألسُن داعية لاهجةً.

الجديدُ، هو أنَّ المغادرين الأوَّل صاروا اليوم منظِّمين ومستقبِلين، بل وفاعلين مُبدِعين... وما بين هؤلاء وأولئك وفودٌ من الخلائف، لها في النفس رَسمٌ، ولها عند الله وَسمٌ... ذلك أنهم ﴿فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ [الكهف: 18/ 13] وزادهم هدًى؛ ثم إنَّ الأعوام ـ على ظلِّهم ـ تُطوى وهي تحمل بشائر الخير، لجيلٍ جديد هو من المعدِن الممتاز سُبِك، وفي مصفاة القلوب الوجِلة تزكَّى... جيلٌ هم اليوم غدٌ مشرقٌ، وهم بعد أمد بدرٌ كامل، وهم بعد حين ـ بفضل الله وتوفيقه ـ جزيرة للأمان والإيمان، لا غبار عليها.. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: 39/ 20]..

اليومَ، يجمُل بنا أن نتحوَّل من الحفر إلى التحليق، ثم مع ذلك لا نغادر التحليق إلَّا إلى الحفر؛ نراوح بين هذا وذاك، موقنين في الله، مهمومين بحال أمَّتنا، نسأل الله أن يُرشدنا ويرشد بنا؛ أعداؤنا في هذا السبيل ثلاثة: البعدُ عن الله، وضيقُ الأفق، وموتُ الأمل...

أخي الحبيب، أيها الشاب المترجِّل، يا حفيد خالد، وصلاحَ الدين...

يا أيها البطل القانت، والعابد الوثاب، والعامل المحسن، والمجاهد المثال...

هي دولتُك قد دالت، وهي نوبتُك قد حان أوانها... فلا تفرِّط، ولا تثَّاقل إلى الأرض، ولا تستسلم لبُنيَّات الطريق، ثم لا تفقد التوازن... وأنت في علياء الحقِّ الرائد المغوار...

كن إلى جوار الله، وابتغ معيَّة الله، واجعله كلَّكَ وحسبَك ووكيلك: «**كفى بالله شهيداً... وكفى بالله حسيباً... وكفى بالله وكيلاً**»... ثم اسأله سبحانه أن يلقي عليك محبَّة منه، ويصنعك على عينٍ، ويُنزلك جبل الطور مع الكليم، عليه السلام، بمقتضى: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ [القصص: 28/ 31]؛ ثم يحملك إلى حراء مع الحبيب المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحقِّ ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: 96/ 19].

وإذا ما اصطفاك ربُّك من بين عباده لتحمُّلِ رسالةِ الدعوة، واحتمال مهمَّةِ العلم، وحمل مسؤولية الرعاية... أجِبه سبحانه، واستجب له تعالى...كن له أذناً وقلباً، وسمعاً وبصراً.. ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 46/ 31-32].

أخي، بل وصاحبي، طلِّق ثلاثاً «ضيقَ الأفق»، ثم اهجُر ثلاثاً «الإخلادَ إلى الأرض»، واعلم أنك عبدٌ لـ«**ربِّ العالمين**»، نبيُّك أُرسِل «**رحمةً للعالمين**»، وقرآنك «**ذكرٌ**

للعالمين»؛ فلا تكن عبداً لأناك، ولا أسيراً لهواك، ولا تضمِّخ أنفك ما بين أحجار «حيِّك»، ولا تنزَّل بمقامك إلى ضحضاح «السُّور»، ولا تقل: «**قومي وبعدهُم الطوفان**»... ولكن قل: «ربِّ اجعلني رحمةً لكلِّ خلقك، وملاذاً لجميع عبادك»....

واعلم ـ أخي ـ أنه ليس لك من شرف فوق شرف العبودية لله وحده؛ إذ كلُّ شرفٍ سواه هباءٌ وهراءٌ، وسقوط من مقام الوصل إلى مقام القطع.

أخي، وصديقي، اعلم أنَّ مَن لا أمل له لا عمل يُرتجى منه؛ فالدنيا أملٌ يحدوه عمل، وعملٌ يطير به أمل؛ فلا تكن مثل بالونٍ مثقوبٍ يلتصق بالأرجل ولا يحلِّق في السماء؛ بل كن طائراً يرتفع عالياً لله ذاكراً، وكن فلَكاً يَسبح بين الأفلاك لربِّه مسبِّحاً، واثقاً في الله، يُحسن الظنَّ به...

كن بازاً وصقراً... بل كن عُقاباً وشاهينَ... يبني مسكنَه في أعالي الأشجار والجبال، ولا يرضى الحياة بين الحفر، بِقاعِ الأودية والوهاد.

اقتفِ آثار سميِّك «أحمد شلبي»، هزارفان (hezar-fen)، صاحبِ ألف علم، غزيرِ العلوم... كن مثله مؤمناً بفكرة الطيران في سماء المعنى، واعتقد مثله أنَّ الإنسان قادرٌ على التحليق مثل الطير، وأعلى من الطير. واجزِم معه أنَّ حُلمك سيكون بحول الله فتحاً كبيراً لبني الإنسان إذا تحقَّق.

ابتغِ تغييرَ العالم مِن حولك، وردِّد مع طارق بن زياد قولته المشهورة: «لو علمتُ أنَّ وراء هذا البحر مَن أدعوه، لقطعت البحر بجوادي هذا»....

كن مَن شئت وما شئت، فقط كن راشداً رشيداً... وادع الله الكريم أبداً: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: 18/ 10]... لتُجاب بحول الله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: 18/ 13-14]، لكن شريطةَ: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ ...﴾ فلا تقعد إذن، ولا تستكِن، ولا تكن مثل حمار

حيِّنا، يقرأ «مزابل الأسرار» ويلعق «صديدَ الأخبار»، ثم ينتهي مربوطاً على وتدٍ...

إليكم أحبَّتي الخلائف، أسوقُ الحديث، ومِن خلالكم أخاطب مَن على شاكلتكم مِن شباب الإسلام، مَشرقاً ومَغرباً...

اعلموا أنَّ «الحفر» مؤدّاه «بَركة الدرس»؛ أمَّا التحليق في سماء المعنى فمعناه «حالة هزارفان: أي حالة التحول من المعطى المحليِّ إلى المعطى الكونيِّ»... وبين هذا وذاك تُرصَد جميع حركاتنا وحركياتنا، وتُحشر جميع آمالنا وآلامنا... وعلى ضوئه تفسَّر أقوالُنا وتُفهم أفعالنا...

ها قد تم «الحفر بحثاً عن المنظومة»، وها قد آن أوان «التحليق اتّباعاً لأسباب المعنى... على وقع المنظومة»... وجمعاً بين هذا وذاك زُرِعت «بذور الرشد» ثم سُقيت بماء الحياة، لتكون دليلاً لنا إلى كلام ربنا، وأسِّست «المعتكفات» استدراراً للربانية واستنزالاً للبركات، ثم فتحت «مدارس، ومراكز للبحث، ومجمَّعات، وبيوت للطلبة... لتكون علامةً على الطريق لهذا العهد الجديد... غير أنَّ أبطاله هُم أنتم... ونحن لكم تبعٌ، لا يغادر الدعاء أفواهنا... ولا يخفت القلب حرصاً عليكم...

هكذا كونوا... أيها الخلاف الأبرار الأخيار... وإلَّا فلا تكونوا...

ما أنتمُ وسوالكَمُ بسواءِ

سادتي، آبائي، إخواني، يا من عمرتم الدنيا برّاً وإحساناً، يا من استنزلتم الرحمات علماً وعرفاناً، سراة الأمة وروادها، سلام قولاً من ربٍّ رحيم، سادتي، لا أجد أفضل من أبيات لابن دريد أحييكم بها، فتقبلوها هدية، ورمز إخلاص واعتراف.

أهـلاً وسـهـلاً بـالَّـذيـنَ أودُّهـــمْ ... وأحبُّـهـــمْ فـي اللهِ ذي الآلاءِ

أهـلاً بـقـومٍ صالحينَ ذوي تُقى ... غُـرِّ الـوجـوهِ وزيـنِ كـلِّ مَـلاءِ

يَسْعونَ في طَلَبِ العلوم بِعِفَّة ... وتَـوَقُّـرٍ وسَـكـيـنَـةٍ وحَـيـاءِ

لَهُمُ المَهَابَةُ والجَلالةُ والنُّهَى ... وفَضائِلُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ

ومِـدَادُ مَـا تَـجْـرِي بِـهِ أَقْـلاَمُـهُـمْ ... أَزْكَى وأَفْضَلُ مِنْ دمِ الشُّهَداءِ

يـا طـالـبي عـلـمَ الـنَّـبـيِّ محمَّـدٍ ... مـا أنـتـمُ وســـواكـمُ بـسـواءِ

سادتي،

إنه الحدث السنوي الذي نرقبه بشوق ووفاء،

إنه اليوم الذي تسمو فيه الأرواح بتعلق وصفاء،

يومٌ من الزمن سُلب، وللجزائر وهب... هدية السماء، ونعمة من ربِّ الآلاء.

يوم نرفع فيه ما رفع الله، ونُخفض فيه ما خَفض الله، سبحانه وهو القائل في محكم تنزيله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 58/ 11]،

وقال وهو العليم الخبير، في سورة يوسف: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 12/ 76]... ولازم الرفع ـ كما قال أقطاب التأويل ـ: مزيدُ القربة من الله الجليل.

أمَّا مناسبة آية المجادِلة، فكأنها نزلت في مقامنا هذا، في يومنا هذا؛ لأنها آيةُ الفسح والنشوز في المجالس، ولقد قال جلَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 58/ 11]؛ أي: يا أهل الإيمان، إذا قيل لكم توسعوا في المجلس ليسع غيرَكم ـ على ضيقه، كما هو حال معهدنا هذا ـ فتوسعوا، وسَّع الله لكم في الجنة...

وإنا لندعو الله ـ سادتي الحضور ـ من خالص قلوبنا، أن يرفع مقامكم في الجنات، ويهبكم الفردوس الأعلى بجوار سيد الخلق محمد ﷺ...

ومحلُّ الشاهد من آية المجادلة، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ [المجادلة: 58/ 11]، والنشوز الارتفاع في الشيء، والنشوز في المجالس أن يقوم الإنسان من مجلسه ليجلس فيه غيره، إعظاماً وتواضعاً واعترافاً بفضله.

لكن، كيف يكون الترتيب؟ وبمن نبدأ أولاً؟

أبالعالم أم بالعابد؟

أبصاحب السيادة أم بصاحب الآية؟

هنا يجيب ﷻ بما يزيل كلَّ خلاف، ويقطع قول كل خطيب: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 58/ 11].

فنحن اليوم ـ بوسام العالم الجزائري ـ نمتثل لهذا المعنى العميق، ونطبِّق راضين هذا الحكم الحقيق...

ذلك أنه في أوطاننا الغالية، غالباً ما نرفع من مقامات «المغنيين والمغنيات»، و«الراقصين والراقصات»... أستغفر الله، بل من مقام «الفنانين والفنانات»...

وفي أوطاننا العزيزة، نعلي ـ عادة ـ من شأن الأفلام، ونحتفي أبداً بإنجازات الأقدام، ونستصغر ـ تبعاً ـ ثمرات الأقلام...

لكن سادتي، هل نرضى بهذا الواقع ونسلم به؟

أم تُرانا نبرره، ونقول ما يقوله الناس: هذا حكم الناس، فكن مع الناس؟

أم عسانا نثور، أو نجور، أو نفور؟

لا هذا ولا ذاك، ولكننا نضع لبنة في عمارة، ونضيف إلى نهر الخير قطرة، ونُنقد من شاطئ البحر صدفة...

الحلُّ أن يفكر كلّ واحد منا في واجبه لا غير... ويسأل نفسه صادقاً: ماذا عملت فيما علمت؟

بهذا المنطق القرآني، ومن هذا المنطلق الرساليِّ، صُغنا ـ من أول يوم ـ أسس «وسام العالم الجزائري»..

وها نحن اليوم ـ بعد ثلاث حجج كاملة ـ نتمتع بحضوركم الكريم، في الطبعة الثالثة لهذا المشروع الوليد، داعين الله تعالى أن يبلغنا ويبلغكم جميعاً عامه العشرين، ثم يبلغ أبناءنا وأحفادنا قرنه الأول، ثم الثاني، فالثالث... وجزائرنا حينها، بل وإسلامنا، في عزة ومكانة ومهابة...

شاء الله تعالى أن يكون «شيخ المؤرخين الجزائريين»، أستاذنا الدكتور أبو القاسم سعد الله، عروس الوسام الأول وزينته... وها هو اليوم بيننا صحيحاً معافى، يسخو على الأمة بما آتاه الله، لا يثنيه كِبر ولا عياء... وهو في ذلك ولذلك قدوتنا وأسوتنا بلا مراء.

ثم يشاء الله تعالى أن يكون أستاذنا الدكتور محمد ناصر، فارس الوسام الثاني وعقده، وهو كالمزن يسقي كلَّ أرض، وينفع الله بعلمه كلَّ عقل... لا يسأل الناس جزاء ولا شكوراً...

أما في علوم الكون، فكان الوسام للفلكي العالم جمال ميموني، الذي ملأ الآفاق معارف وبحوثاً، وسما بالجزائر في المحافل الدولية، حتى غدت مضرب المثل في الرصد والحساب والكوسمولوجيا...

وها نحن اليوم في الطبعة الثالثة، والسنة الثالثة، نحظى بتكريم عالِمَين جليلَين، جاءت تزكيتهما بعد فرز للأصوات على وضح النهار، من مئات الترشيحات جرت في موقعنا الإلكتروني، ثم بالاتصال بالعديد من الجامعات، وأخيراً بإعلان في «إذاعة القرآن الكريم»، الشريك الرئيس لهذا الحفل البهيج...

فتلقينا ما يزيد على مئة وأربعين مرشَّحاً، من مختلف العلوم، ومن شتى الجامعات، وبالعديد من الاعتبارات... فشاء العلي القدير أن يظهر أعلى القائمة اسمان وعالمان، لا فاصل بينهما، كأن الواقع والحياة وعهدَنا بهما يتكرر في هذا الاستفتاء...

الأستاذ الفيلسوف: الدكتور عبد الرزاق قسوم...

والأستاذ الأديب: الشيخ محمد الهادي الحسني...

أخي، نكاد نجزم أنك إذا رأيت أحدهما في نادٍ فانتظر الثاني، وإذا سمعت لأحدهما في حفل فترقّب الموالي...

إنهما بمثابة الشَّمال والجنوب في الجغرافيا، إذا قلت: «هذا شمال» فقد قلت: «ذاك جنوب»، وإذا ذكرت مناقب الجنوب فقد ألمحت إلى فضائل الشمال... ولطالما سمعنا حواراً أدبياً بينهما في فضل الشمال على الجنوب أو العكس، كلٌّ يدافع عن محتده ومنبته... ولكنهما في الأخير جزائر واحدة، هما عنوان وَحدتها ودليل عزَّتها...

لم يجتمعا لأنهما تشابها، لكن لأنهما تكاملا... ذلك أنَّ «وقوع الطيور على أشكالها» من فطرة الحياة، فلو كان تلاقيهما لهذا، لما كان لهما من فضل...

لكنَّ الواحد منهما فيلسوف، والآخر مؤرخ...

الأوَّل إداريٌّ ورئيس للجامعة وللعديد من المؤسسات الفكرية، أمَّا الثاني فهو المبغض لمادة «أدار، يدير، إدارة»... ولكلٍّ ما اشتق منها...

أحدهما أميل إلى الجد إلَّا إذا بَسطت المجالس فنكتته وبداهته حاضران لا ينقطعان... أمَّا الثاني فهو في أسلوبه أميل إلى السخرية ومعالجة أعقد المواضيع بالدُّعابة والنكتة والإشارة، حتى إذا جدَّ الجدُّ واقترب النزال كرَّر مقولة القائل:

إني من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

ثم إنَّ أحدهما أقرب إلى الأكاديمية والجامعة ونخبة البلد، والثاني ألصق بالشارع والحي وعمق البلد...

وأخيراً، أراد الله تعالى أن يكونا في أرض المولد كذلك مختلفَيْن، الأوَّل من المغيَّر بوادي سوف، بما تحمله من أصالة الإيمان، وروعة الصحراء، وما تمثله من عمق في الثقافة والفكر... أمَّا الثاني، فهو من جيملة بجيجل، بما ترمز إليه من معاني الشهادة، وجلال الثورة، وبما تنضح به من جمال الطبيعة، بجبالها ووهادها، وبأنهارها وبحارها...

أياً عجباً، كيف تَكامل الاثنان، فصارا واحداً، وانتقلت كلُّ صفة إيجابية من الشطر إلى الشطر الآخر، فبات كلٌّ منهما كامل الصفات، لما وهبه الله من فطرة وخلقة، ثم بما استقاه من خليله صفاء وحسن عِشرة...

وسبحان الله، فقد اتصلت بالدكتور قسوم يوم إعلان النتائج، ثم اتصلت بالشيخ الحسني، وأردت أن ألقى كل واحد على حدة، لكن ـ على غير موعد، ودون أن يعرف أحدهما بالآخر ـ ضربا لي موعداً واحداً، في مكان واحد، في وقت واحد... فاسبتشرت خيراً، وقلت: هذا دليل توفيق وقبول، والحمد لله...

ولما أعلمت أستاذيَّ بذلك، سُرَّا وتأثَّرا، ففاضت عينا أحدهما دموعاً، أما الآخر ـ جريا مع عادة التكامل مع الاختلاف ـ فكان عصيَّ الدمع، يصدق فيه قول أبي فراس الحمداني:

أراكَ عصيَّ الدَّمْعِ شيمَتُكَ الصَّبْرُ أما لِلْهَوى نَهْيٌ عليكَ و لا أمْرُ؟

فيجيب:

بَلى، أنا مُشْتاقٌ وعندِيَ لَوْعَةٌ ولكنَّ مِثْلي لا يُذاعُ لهُ سِرُّ!

إلى أن يقول بلسان حاله، لا بلسان مقاله:

ولو سَدَّ غيري ما سَدَدْتُ اكْتَفوا بهِ وما كان يَعْلو التِّبْرُ لو نَفَقَ الصُّفْرُ

ونَحْنُ أُناسٌ، لا تَوَسُّطَ عندنا، لنا الصَّدْرُ دونَ العالمينَ أو القَبْرُ

تَهونُ علينا في المعالي نُفوسُنا ومن خَطَبَ الحَسْناءَ لم يُغْلِها المَهْرُ

أخيراً، لا آخراً، سادتي...

أخاطب بهذه المناسبة كلَّ جزائري مسلم غيور... وأقول:

إنَّ لنا وطناً عزيزاً كريماً، فلنُبق على نضارته، ولنُعل من شأنه، بما آتانا الله من إيمان وعلم ومال وقوة، ولنذد عن حياضه بمُهجنا، ولتكن صدورنا دروعاً نحمي بها حماه، فلا حيينا إذا ذلَّ وطننا، ولا متنا إذا عزَّ وطننا...

لنستنزِل رحمات الله علينا، وليَقبل بعضنا بعضاً، على اختلافنا وعلى تباينا، فلا اللغة تفرقنا، ولا الثقافة تشتتنا، ولا تعدد الآراء يذهب ريحنا، ولا اختلاف المذاهب يوقع بيننا... يجمل بنا أن نكون مثل حديقة غناء يزيدها تعدد الألوان روعة وجمالاً، ويَقبُح بها أن تلبس لَبوساً واحداً، أو تزدان بزيٍّ واحد، كأنها في حداد.

وليصُدق فينا قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: 61/ 4]. ولنذكر مقولة الإمام بن باديس الخالدة: «ما جمعته يد الرحمن لا تفرِّقه يد الشيطان».

ولنَجعل من هذه المناسبة حدثاً وطنيّاً، تشارك فيه كلُّ الجهات والهيئات: من وزارات وجامعات، وقنوات وجمعيات، وشركات ومؤسسات... وليكن المخطط الاستراتيجي لهذا الوسام، بفضل الله تعالى، وبدعمكم وإيمانكم... أن يتحول إلى «نوبل الجزائر»، قيمة وقدراً... لا منهجاً ولفظاً...

ولتسعدوا بمقامكم بيننا، فإننا سعداء بقدومكم إلينا،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

حيث الأمل يولد من جديد

باسم الطفل الوليد، وباسم الأمِّ الرؤوم، وباسم الشيخ الكتوم، وباسم العامل في صمت... والليل ليل... مبتهلاً إلى الله أن يغدق على الجزائر، وعلى العالم من حولها، نفحةً من روْحه، ونفخة من رُوحه، وكِفلَين من رحمته؛ ... فيشرقَ من رحم المعاناة فجرٌ جديد، وغدٌ ـ بإذن الله ـ سديد... باسم هؤلاء جميعاً أقول:

حلمي أن لا يغتال الحلم...

أملي أن لا يموت الأمل...

بكائي وابتهاجي، حنيني وأنيني...

أن لا يُجهض جنين الفجر السعيد من رحم الصبية والصبايا... صبيحة هذا العيد...

أنقب عن مقبرة لدفن اليأس من زمن بعيد... بعيد بعيد، فأعينوني بقوة...

أبحث عن سرداب أطمِر فيه القنوط وأدفنه إلى الأبد، فهاتوا أيديكم لنقضيَ عليه مرة واحدة...

– قال القدر الحليم، وهو يربّت على كتف الفتى:

أيها الفتى الذكي، صور لي «جزائرك» على أيِّ شاكلة تراها، وفي أيِّ صورة تتمثلها...

أتَراها مثل هذا الكأس الممتلئ الطافح الراشح... كلُّه خير في خير؟

أم تُراها أشبه ما يكون بهذا الكوب الفارغ، المقلوب، الثرثار، المنتكس؟

أم أنك، مثلَ الكثيرين من أبناء جلدتك، تصوِّرها «نصفاً فارغاً، وآخر أسود؟».

– ارتسمت على شفاه الأمِّ الحنون بسمةٌ موثوقة ببحار المعنى، صدَّاحة بالحقِّ وبالصدق، رغم كيد الأعادي وظلم العوادي، فقالت في هدوء:

أيها القدر الحكيم، جزائرنا ليست «خيراً محضاً»، ولا «شرّاً محضاً»... ولا هي «فراغ على سواد»...

جزائرنا، بحول الله، وبحمد الله، مثل جميع أرض الله: شطرٌ أبيض وآخرُ أسود، نصفٌ عامر ونصفٌ آخر شاغر... فيها خير، وفيها غير... تحزن وتفرح... يوم بيوم... ساعة بساعة...

ثم تلا البلبل الماكث غير بعيد قول الله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 39/ 53]، ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: 12/ 87]... وصمت هنيهة، فاستذكر قول العزيز الكريم، في حديثه القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء**».

سأل القدر اللطيف، بصوته المبحوح:

«إن كان ذلك كذلك، فلِمَ إذن تسوِّدون وجه أمِّكم، ولم تلطخون بفحش القول جبين جزائركم... حتى غدت في العالمين عنواناً للشقاء والتفاهة، ورمزاً للفساد والسفاهة؟».

– نطق الشيخ الكتوم بعد لأْيٍ ومشقَّة، وقال بدارجة جزائرية قحـحَّة، ما نترجمه إلى الفصحى بما يلي:

إن سرَّكم أن تعرفوا حقيقة هذا البلد فانظروا إلى تجاعيد وجهي، وإلى قسمات جبهتي... ففيها يرتسم تاريخ تليد عتيد، وفيها شفرة شعب وبلد عنيد.... لولا الأمل، ولولا الرجاء، ولولا الحلم... لكان اليوم ركاماً على أنقاض التاريخ، ولكان رقماً على هامش الزمان... بل، ولكان كل واحد منكم الساعة «عبداً لسيد»، أو

«خادماً لمستعبد»، أو «ظلاًّ لمستبد»، أو «سجيناً لعربيد».

ثم علا صوت من دهاليز الأوراس، موقعاً على حديث الشيخ الحكيم... فنطقت أحجاره وأشجاره، قائلة:

كان (نيرون) الذي أحرق روما، يمزق ضحاياه ويقتلهم مرة واحدة؛ أمَّا رئيس الوزراء الفرنسي (غي موليه)، فقد أطلق على الشعب الجزائري 500 ألف جنديٍّ: يعذِّب، وينكِّل، ويدمِّر، وينهب، ويغتصب...

يذكر شاهد عيان، وهو مجنّد فرنسي مرعوب، واصفاً المشهد الأليم قائلاً:

«أوقفنا مشتبهاً به جزائريّاً بريئاً، ثم سقناه على متن سيارة جيب، وفي الطريق أخذ كل جندي سكيناً، وقطَّع أجزاء من جلد الرجل ولحمه، وهو حيٌّ».

– علق الشيخ الحليم، بعد زفرة أطلقها من أغوار قلبه:

نحن لا نذكر هذا إلا لنقول:

«نعم، قد نغفو وقد نغفر... ولكنا أبداً لن ننسى، ولن نكون حمقى، فنعودَ إلى تلك العهود البائسة...».

«نعم، فينا ضعفٌ، وفينا وهنٌ، وفينا ما يعتري المريض من سُقم وارتجاف وحمى...».

«غير أن لنا قلوباً تسع الكون، وأرواحاً تطال المشرقين، وإرادة ـ بعون الله ـ لا تركع ولا تلين...

حتى وإن قطَّعتَ أيها الظالم الأرعن جلدنا ولحمنا ألف مرة، بألف سكين...».

– وسمعت من كبد الصحراء صوتاً خجولاً يقول:

الجزائر، مهما كيل لها من طعنات ولعنات، ومهما اعتراها من أسقام وركل أقدام... ستظل شامخة، هادئة، متّحدة، متحدّية...

يبلى الزمان ولا تبلى، يشيخ المكان ولا تشيخ...

هي هكذا ولدت لتكون أبية... عزيزة كريمة... فليس الشقاء والتخلف وسوء الطالع قدرها إلى الأبد...

أيها السادة الكرام:

عاهدتُ الله تعالى أن أكون خادماً لمن يمحو ذكرى أليمة اعتصرت في فؤادي، وهدَّتني ـ والله ـ هدّاً، وذلك أنه عام 1939م، غادر مالك بن نبي الجزائر مُكرها، وكتب في مذكراته:

عندما بدأت أرض الجزائر تغيب في الأفق، وجدت نفسي أقول وأنا متكئ على حافة الباخرة:

يا أرضاً عقوقاً !.. تطعمين الأجنبي وتتركين أبناءك للجوع، إنني لن أعود إليك حتى تصبحي حرَّة.

ألا يا مالك عُدْ، فقد باتت الجزائر بحول الله حرة كريمة...

******

اليومَ أيها الحضور الكريم، نضع جماجمنا رصيفاً لكلِّ مخلص، عالم، عامل... يحبّ هذا الوطن، ويتفانى في نشر الفضيلة والتفاؤل على ربوعه، ويزرع على سفوحه ورداً وزهراً وعنبراً... وفي طليعة هؤلاء علماؤنا المكرمون، ضمن «وسام العالم الجزائري»، في طبعاته الخمسة... ذلك أن كل واحد منهم رجلٌ جبل، وجميعهُم علامة وهامة، وصدر وفخر، وإمام وحسام...

ففي الإصدار الأول كرَّمَنا (ولا أقول كرَّمْنا) شيخ المؤرخين، الأستاذ أبو القاسم سعد الله، شفاه الله تعالى...

وفي الثانية، كنا في ضيافة العالمين القطبين: محمد ناصر، وجمال ميموني... حباهما الله من فضله...

وفي الثالثة آوانا الثنائي المجاهد إلى رحابه، أقصد الأستاذَين: عبد الرزاق قسوم، ومحمد الهادي الحسني... أدام الله يسرهما ونفعهما للبلاد والعباد...

ثم كنا سعداء مبجلين في حضرة المصلح الأستاذ سعيد بويزري، في الطبعة الرابعة للوسام...

وأخيراً، حملنا عالم الرياضيات البروفسّور محمد بولنوارزيان.. إلى اللامتناهي، كرماً وهمة، ونموذجاً ومثالاً...

******

وها نحن اليوم نأتي إلى اللحظة الحاسمة، ونتشرف بأن نكون ضيوفاً على عالِمَين علَمَين، صدقوني إن قلت لكم أني حين اطلاعي على خفايا حياتهما الخاصة، صُدمت وصُعقت، ثم ارتجفت وارتعشت... وناديت بأعلى صوتي:

«ألا لعنة الله على الظلام، وعلى ضيق الأفق»...

أيعقل أن يكون في جزائرنا أمثال هؤلاء الأفذاذ، ثم يطويهم النسيان، ولا يكونوا ختماً موثوقاً على قلب كلِّ طفل وشاب، وفخراً مشوقاً لكل كهل وشيخ...

«اللهم، يا نور النور، ويا نوراً فوق كلِّ النور... نوِّرنا بنورك... واجعل أُفقنا واسعاً فسيحاً، وأَحْيِ الأمل في قلوبنا... آمين».

مَن للجزائر غيركُم..!؟[1]

الحمد لله ذي المنِّ والعطاء الجزيل، الهادي عبادَه الصالحين لأقوم سبيل، القائل سبحانه في محكم التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 33/ 4]. والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، محمَّد العربيِّ القرشيِّ الهاشميِّ، القائل في حديثه الشريف: «**أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر، وأكرم الناس قدراً ولا فخر**».

فالانتماء أمر لازم على كلِّ إنسان، والوفاء للعشيرة والعشير خُلق حسنٌ وحُكم مشروع... إلَّا أنَّ أعظم انتماء هو للإسلام، يقول الحقُّ ﷻ: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: 22/ 78].

ومِن عجب أنَّ بعض الناس اختلط عليه الأمر، فراح يردِّد خطابات «شمولية ـ إقصائيةً ـ راديكالية»، تنفي كلَّ انتماء إلى الوطن، أو العرق، أو القبيلة... باسم الانتماء الأكبر، أو لصالح انتماءات جزئية أخرى؛ فكأنهم في ذلك أكثرُ فهماً لروح الدين من سيد الخلق محمَّد، الذي انتسَب ونُسب إلى بني هاشم، بلا عُقدة ولا تعقيد، وقد رُوي عنه قوله ﷺ: «**أنا من بني هاشم ولا فخر**». كما نسبه ربُّه إلى اللسان العربيِّ المبين، وليس في هذا ما يُشينه ولا ما يُشين عالمية الدين الحنيف: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 16/ 103].

---

(1) 24 ذو القعدة 1431هـ – غرة نوفمبر 2010م.

علامة انتمائنا ورمز هويتنا:

حملتُ ذات يوم قطعةَ قماش زاهيةَ الألوان إلى صبَّاغ، وطلبتُ منه رسم علَم مميَّز، يكون علامة لانتمائنا، ورمزاً لهويتنا، فما كان منه إلا أن أعدَّ لي نماذج كثيرةً، وأعلاماً عديدة، بعضُها أميل إلى الحمرة، والبعض الآخر أخضر قانٍ، وثالث كلُّه نجوم على بياض، ورابع أبيض فارغ «فراغ فؤاد أمِّ موسى»... وخامسٌ... وسادسٌ... وسابع...

فقلت له: ألا ترى أنَّ ذاتيتنا متوازنة، وأنَّ وجودنا «ذاتيٌّ»، وأنَّ التناسق والتناغم والجمال سمة من سمات انتمائنا وهويتنا؟ فهلاَّ أبدعت لي علَماً يعبِّر عن هذه الصفات والسمات؟

فما كان منه إلَّا أن اعتذر، وعبَّر عن عجزه وقصور إدراكه...

ثم نصحني ناصحٌ أن أحمل قطعة القماش إلى مدرسة ابتدائية، وأعيدَ الطلب على تلاميذها وبراعمها، وأنتظرَ الجواب...

استجبتُ للنُّصح وفعلت... وبعد مدَّة ليست بالطويلة، خطَّت البراءةُ «علَماً نصفه أخضرُ والنصف الآخر أبيض، يتوسَّطه هلال ونجمة حمراوين»... فلـمَّا تأمَّلته وسألت عن فحواه، أجابني الأطفال الأبرياء، بنين وبنات... بصوت واحد:

- أمَّا الخضرة فدليل على الطبيعة والكون، وآيةٌ من آيات صنع الخالق ﷻ، وفيها سبق حضاري في مراعاة البيئة والحفاظ عليها...

- وأمَّا البياض فالطهر والصفاء في الخلُق، ودليلُ الإسلام وعنوانُه، ألم يقل رسولنا الكريم: «**اِلْبسوا البياض**»، فهل يحقُّ لنا أن نلبَسه نحن ـ أنانيةً ـ ونحرم منه وطننا الجميل ـ جفاء .

- وأمَّا الهلال فهو رمز الحضارة الإسلامية العريقة، الضاربةِ جذورُها في

تاريخ الكون المفتوح، والمعلنةِ عن شعائر الصوم، والحجِّ، والبحث العلميِّ، والحساب... وغيرها. ألم يقل ربنا سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 10/ 5].

- أمَّا النجم فعنوان أركان الإسلام الخمسة، كلُّ حافَّة رمزٌ إلى شعيرة من الشعائر، وهو مع ذلك دليل على الكثرة والتعدد والاختلاف وسعة الكون للكلِّ، بلا إقصاء ولا ادّعاء...

- وأمَّا حمرة الهلال والنجم، فهي حمرة موزونة متَّزنة، وهي شعارٌ للشهادة والشهداء، الذين أبلوا البلاء الحسن في تحرير وطننا المفدَّى؛ وهي اليوم دعوةٌ لبذل الجهد واستفراغ الطاقة، لبناء أركان حضارتنا بعقولنا وسواعدنا ومُهجنا.... فهل نحن فاعلون؟!». (انتهى بيان الأطفال).

يومها، وبعد هذا البيان من هؤلاء الأطفال الصغار... تيقَّنت أنَّ الجزائر بريئة طاهرة لا يقدرُها إلَّا الأبرياء الأطهار، وأنَّها حُبلى تعِد بمستقبل زاهر حقيق؛ وأنَّ ما ألَـمَّ بها من فتنٍ، وما دهاها من خطوب، ما هو إلَّا عارض قريب، سيزول غداً أو بعد غد بإذن السميع المجيب...

مِن «العالِم المخلِّص» إلى «الجماعة العلمية»:

كان الناس في القديم يبحثون عن «عالِم واحد» هو الذي يخلِّصهم من التخلُّف، ويحرِّرهم من العبودية، ويرفع عنهم الجهل... أمَّا اليوم فقد ولَّى زمن «الشخص الواحد»، و«الفكر الواحد»، و«الحلِّ الواحد»... وحلَّ محلَّه مفهوم «التعاون»، و«التآزر»، و«التبادل»، و«العمل الجماعي»، و«الكلِّ النافع في مكانه وزمانه»... تحت نموذج دقيقٍ، أبدع في صوغه نبيُّنا المصطفى ﷺ، إنه «نموذج السفينة»،

نموذجٌ فحواه ومؤدَّاه: «... **فإن تركوه هلك وهلكوا، وإن أخذوا بيده نجا ونجوا**».

ولذا، فالواجب اليوم سادتي، يدفعنا متآزرين متكاتفين، إلى تأسيس تلكم «الجماعة العلمية»، بكلِّ ما يعنيه المصطلح من مفهوم عميق في «نظرية المعرفة»، إذ «لا يكفي أن ندَّعي أنَّنا علماءَ حتى يتمَّ الاعتراف بنا بصفتنا علماء»...

«أن تكون عالماً يعني أن تنتمي إلى كلٍّ اجتماعيٍّ، مشكَّل من مجموع الفاعِلين، الفرديين أو الجماعيين، في الاستقصاءِ العلميِّ».

وإذا أردنا أن نحدِّد شروط الانتماء إلى «الجماعة العلمية» (La communauté scientifique)، فيكفي أن نذكِّر بالمصطلحات الآتية: المؤسَّسة، الدور، المران، المعايير، والمراقبة الاجتماعية. فهذه بضعةٌ من المفاهيم المفتاحية يمكن تجنيدها وتنسيقها لشرح طبيعة «الجماعة العلمية»، وبيان معالمها وحدودها.

ثم إنَّ سؤالي العميق، في هذا السياق، لكلِّ عالم أو مشتغل بالعلم في قاعتنا هذه، هو:

- هل تحسُّ أنَّك كافٍ بمفردك لحلِّ «الأزمات المعرفية» التي تعترض مجال تخصُّصك؟
- هل تجد نفسك منتم إلى «جماعة علمية»، في مجال تخصُّصك؟
- هل الإنجاز العلميُّ ـ المعرفيُّ وليدُ عمل فرديٍّ؟
- أم هو ثمرة جهود جماعية، مؤطَّرة ضمن «جماعة علمية»، محكَمة العلاقات، متينة الروابط؟
- هل إشكالات الواقع اليوم، تنتظر حلولاً من خارج دائرة العلم؟
- إذا كان العلم ضرورة للخروج من حال الأزمة، هل أداؤنا اليوم مكتملٌ، بصيغة «الجماعة العلمية» المسؤولة الواعية؟

لكلٍّ جوابُه ورأيُه في الأسئلة والإشكالات المطروحة بحدَّة، غير أننا آثرنا من خلال «معهد المناهج»، ومن خلال هذا الحدثِ التاريخيِّ، أن نساهم ببعض الحلِّ، ونشارك ببذرة قد تسخُو بثمارها ولو بعد حين... آثرنا أن يكون الجواب بعدَّة أشكال، من بينها: وسام العالم الجزائري.

وسام العالم الجزائري:

- هل «الجوائز العلمية» نتيجةٌ أم هي سبب؟

وبعبارة أخرى:

- هل تسلَّم «الجوائز العلمية» عندما يتقدَّم العلم، ويتصف بالنضج وبالرسمية العالية؟
- أم أنَّ «الجوائز العلمية» سبب لتطوُّر العلوم، ووسيلةٌ من وسائل النهوض بالعلم في أمَّة ما؟

الحقُّ أنَّ «الجوائز العلمية» سببٌ ونتيجةٌ في آن واحد، وهي مؤشِّر دقيق لتطوُّر العلم في مجتمع معيَّن؛ إذ كلَّما تنوَّعت هذه الجوائز، وكلَّما تحوَّلت إلى أحداث ذاتِ قيمة، وكلَّما نالت مرتبة مقبولة في السلَّم الاجتماعي... كان ذلك دليلاً على أنَّ العلم في ذلك المحيط بخير، وأنه في أعلى المراتب... وأنَّ ثمة «جماعاتٍ علميةً» تعمل وتجتهد...

– تحصي مجلة زوكرمان حوالي 3000 جائزة علمية في أمريكا الشمالية وحدها... فكم هو إحصاء «الجوائز العلمية» المعتبرة في بلادنا العربية؟ وفي الجزائر بالذات؟

الحقُّ أنَّ العدد، والقيمة المالية، ليسا هما المؤشِّر الوحيد لنجاح «الجائزة العلمية» في تحقيق غرضها؛ فمثلاً أغلى جائزةٍ علمية عالمية هي «جائزة اليابان

للعلوم». إلَّا أنَّ جائزة «نوبل»، تُعتبر المكافأة الأكثر نجوميةً، وبكلمات أحد المعلِّقين: «إنَّ جائزة نوبل هي المكافأة التي تعطيك الفرصة، لكي تصبح أشهر إنسانٍ على وجه الأرض».

غير أنَّ جميع هذه الجوائز لها خلفياتها الإيديولوجية، وقناعاتها الكونية، أي أنَّ كلَّ جائزة لها «عقيدتها»، و «غايتها»، و «أهدافها»، أو ما يعرف «بالنموذج»، و «المنظور»، و «البراديم»...

ولسائل أن يسأل: لماذا منحت جائزة نوبل للسلام في هذا العام 2010، للمنشق الصيني السجين «ليو شياباو»؟

– أمَّا «وسام العالم الجزائري»، فهو مدخلٌ ومقدِّمة لجائزة علمية جزائرية، ومحاولة تحمل قناعات أساسيةً، لها غاياتٌ وأهداف بيِّنة واضحة، تنطلق من توازن «علَم الجزائر» بكلِّ أبعاده، وتصبُّ في خير الجزائر ورقيِّها بكل المقاييس؛ ولذا كان اسمها: «وسام العالم الجزائري»، بلا إضافة، ولا تقييد، ولا تخصيص، ولا تعيين...

فوسام العالم الجزائري يسلَّم لعالم جزائري، خدم وطنه، فترك آثاراً علميةً أو بحثية أو تربوية أو فكرية طيبة، نفع الله تعالى بها البلاد والعباد. ويسلَّم كذلك لباحث جزائري، برز باختراعات في أيِّ مجال من مجالات المعرفة والعلم، فكان شرفاً لوطنه، ومنارة عالمية أعلت من شأن جزائرنا الغالية، في المحافل العالمية والدولية».

يشارك في اختيار العلَم، وفي تكريمه، جهات كثيرة، منها:

السادةُ العلماء، العامِلون ضمن «معهد المناهج»، وفي «الجامعات الجزائرية» عموماً.

الطلبة والباحثون، المنتمون للمعهد، والمسجَّلون غالباً في الجامعات الوطنية والدولية.

الهيئات العلمية والتربوية (مدارس، جامعات، معاهد...).

الهيئات السياسية والإدارية في الجزائر (وزارات، إدارات...).

الهيئات الإعلامية والثقافية (دور النشر، قنوات، جرائد...).

الشركات والمؤسَّسات التجارية الداعمة.

الشركاء من مختلف الدول الأجنبية الصديقة (سفراء، وزوار كرام، وعلماء مشجِّعون...).

ولقد تمَّ الاستفتاء عبر موقع فيبكوس، وبين ثنايا صفوف الجامعات، وباستشارة العديد من الشخصيات العلمية والاجتماعية... فالحمد لله وحده، له المنَّة وله الثناء الحسن.

لماذا الدكتور سعيد بويزري؟

بكلِّ المواصفات التي ذُكرت، وبمشاركة الجهات التي عدِّدت، وقع الاختيار على «الدكتور سعيد بويزري»، للحصول على «وسام العالم الجزائري» في «طبعته الرابعة»، مذكِّرين أنَّ الطبعات السابقة كانت من نصيب كلٍّ من الأساتذة والدكاترة: أبو القاسم سعد الله، ومحمد صالح ناصر، وجمال ميموني، وعبد الرزاق قسوم، ومحمد الهادي الحسني...

فالدكتور سعيد بويزري جمع إلى العلمِ العملَ الاجتماعيَّ الدعويَّ المتفاني: هو أستاذ في الجامعة، وصاحب مشروع «والصلح خير»، وواعظ في مختلف المنابر، وله حصص إذاعية وتلفزيونية باللغتين العربية والأمازيغية، ومواجه لكلِّ أشكال التنصير والتضليل بحكمة وروية، ومفسِّر لكلام الله تعالى، ومؤلِّف للعديد من

البحوث المتخصِّصة في القانون والشريعة الإسلامية، وصاحب مشروعٍ إعلاميٍّ رقميٍّ رائد...

وهو مع ذلك يقف إلى صفِّ الاعتدال والتسامح، ويعتزُّ بانتمائه بلا تعصُّب ولا حمية، وينافح عن وحدة هذا الوطن، ويحترم كلَّ أطيافه ومشاربه، بخلُق سمح، وحِلم عريض، وتواضع جم...

- بورك لك أستاذنا، وبورك فيك، وإننا لنهدي هذا الوسام ـ رمزياً، باسمك ـ إلى العالم الربانيِّ، الشهيدِ المجاهد، الدكتور حمود حنبلي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه، إنه سميع قريب مجيب... آمين... آمين.

- كلُّ رجائنا، سادتي الكرام، أن يتحوَّل «وسام العالم الجزائري» إلى حدثٍ وطنيٍّ ـ بل دوليّ ـ، وأن تتبناه جهات عُليا، ومؤسَّسات كبرى، وأن ينال حقَّه ومستحقَّه من التعريفِ العلميِّ، والإشادة الإعلامية، والقيمة المعنوية والمادية... الأمرَ الذي لا ندَّعي أننا بلغناه، من خلال هذه المبادرة القليلة، الأولية، المبدئية.. فقصارانا أننا نرجو من الله تعالى أجر المبتدئ، وندعوه أن يبعث للمشروع من على خُطاه نهتدي...

ولسان الحال ينادي بأعلى صوت، سادتي: من للجزائر غيرُكُم؟

فأنتم، أيها المحفل الكريم... بحضوركم، ودعمكم، وتشجيعكم... أهلٌ لكلِّ المكارم، فطوبى لكم ثم طوبى، أن رفعتم ما أمر الله أن يُرفع، وخفضتم ما أذن الله أن يُخفض. فسبحان من قال فأوجز، وعلَّم فأعجز: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 58/ 11].

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته..

القسم الرابع
في التربية، وبناء الإنسان

مقام الرضا، والانفتاح على الحياة

أطالع مصادر العقيدة هذه الأيام، وفي ذهني سؤال واحد، وهو: كيف نجعل من العقيدة وقوداً للحياة، لا مجرد محفوظات، ونصوصاً تسكن الركن الخامد مِن عقولنا وقلوبنا؟

وكيف ننطلق من أسماء الله سبحانه، ومِن صفاته جلَّ شأنه، لنكونَ رقماً حقيقاً في عالم بني البشر، لا مجرَّد دوابَّ وهوامَّ تسام وتذاق سيما الخسَف؟

ألسنا في لحظة «**إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أُبالي، ولكنَّ عافيتك أوسع لي**»؟.

بل، ما هي جرعات الإيمان الفعال التي يتلقاها أبناؤنا على مقاعد المدارس، وعلى مدرَّجات الجامعات؟

ولو صادف أن استعرضنا عناوين الكتب على أرفف المكتبات، ما هي المصادر التي تشفي الغليل في بيان روح العقيدة، وفي نشر أريجها الفواح على سفوح الضمائر العطشى؟

وماذا عن الإعلام، بكلِّ أشكاله وأطيافه، هل خصَّص للإيمان مساحة، ولو صغيرة ضيقة، أم أنَّه أدار لها الظهر، وتوجه بوجهه جانباً، إلى بنيات الطريق، وإلى مهازيل الآراء والأفكار والأحداث؟

****

لا أسترسل في مثل هذه الأسئلة المحيِّرة، التي تذيب قلوبنا وعقولنا، صباح مساء، شعوراً وإدراكاً؛ ولا نجد لها الجواب الشافي، ولا الترياق المعافي؛ فتزداد حيرتُنا، ويشتد ألَـمُنا، وتطول حسرتُنا... فلا نملك إلَّا أن ندعو مع ذي النون، حبيس

بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 21/ 87].

غير أنه في حمأة الأشغال والاهتمامات اليومية، يجد المرء نفسه، وكذا المشاريع والمؤسَّسات؛ في غمرة من «إرادة الإنجاز»، وفي زلزلة من «حبِّ التفوق»، وضمن موجة من «روح التنافس»، تحت وطأة من «ضغط الواقع»، وفوق ريح من «متقلبات الواقع»... يجد نفسه، فرداً أو جماعة، حريصاً على البداية، حريصاً على النهاية، حريصاً على الدوام... ما إن يضع عصا الترحال في شأن، حتى يحمل على بهيمة شأن آخر، ولا ينقطع أمله وعمله، ولا خوفه ورجاؤه، إلَّا ساعة الاحتضار، وأوان إسلام الروح إلى صاحبها... لحظة يكون لـ«أشهد أن لا إله إلا الله» معنى آخر، وبعداً آخر، وقيمة أخرى...

فهل هذا يدعونا إلى السكون والركون، وإلى الغطيط والعيش على هامش الحياة؟

لو أننا فعلنا لجفونا نِعم ربنا، ولو أننا استسلمنا لريح الواقع لكنَّا «عبيداً» للذلة وللهوان؛ لكن القاعدة التوحيدية تقرر أنَّ «الأسباب هي يد الله في قدره، فلا يحقُّ لنا أن نردَّ يده، ونطلب ذاته»... فماذا إذن نحن فاعلون؟

وما المطلوب منَّا؟ وما الصواب في هذا الشأن؟

****

أن نبلغ «مقام الاستسلام»، ثم «مقام الرضا»، ذاك منتهى سعينا، ونهاية رجائنا، وغاية مُنانا، وسرُّ وجودنا، وجماع أحاسيسنا وأقوالنا وأفعالنا، وبياض نهارنا وليلنا، وخالص سفرنا وضعننا...

فمن جهة «ثمة قضاء الله الحليم وقدره الحكيم»، ومن جهة هنالك «قلب الإنسان، وعقله، وحواسه»، ومن زاوية ثالثة تقف الحياة «بلحمها وعظمها، بيومياتها وتفاصيلها»؛ وكيفية استقبال الواردات الإلهية، في بحر الحياة، كما هي،

لا كما يقترحها الإنسان؛ هو الذي يحدِّد ذبذبة «الرضا عندنا»، أهي عالية أم فاترة، ضيقة أم واسعة، سريعة أم بطيئة...

ولذا، فإنَّ الرضا يكون إراديّاً في بداية المشوار، ثم يتحوَّل إلى هبة ربانية، هدية من الله تعالى، جزاء حسن الظنِّ فيه، وحسن التعامل مع قضائه وقدره، وحسن التلقِّي لما كتب لك من أمر، سواء أكان ضراء أم سراء، مكروهاً أم محبوباً؛ لا يهمُّ، ما دام أنه من الله؛ ولا يكون شيء من الله إلَّا وهو خير لصاحبه، إذا هو قبله واستسلم له ورضي به، بل وشكر الله عليه وحمده؛ أمَّا إذا هو حرنَ وسخِط ورأى أنَّ الأحسن ما رآه هو الأحسن؛ فإنَّ الذي همَّ به يتحوَّل إلى وبال عليه، فيهوي من سماء الرضا إلى خندق السخط، وهو يدري أو لا يدري.

والرضا هو أخصر طريق إلى بلوغ المراد، رغم أنه قد يبدو صعباً شاقّاً؛ فإن أنت رضيتَ بما قدِّر لك وقد أتيتَ ما أمرتَ به، وإن أنت سلَّمت الثمرة للعليم القدير، بعد أن واظبتَ على فعل الواجبات المنوطة بك؛ إن أنت كنتَ كذلك، وفعلتَ ذلك؛ فإنَّ الواحد الأحد المريد، يرضيكَ به ويرضى عنك ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: 98/ 8].

ويبقى بلوغ مقام الرضا هو العقبة الكؤود، في زمنٍ توتَّر فيه الناس، وكثر الشره، ونمِّطت الرغبات والأهواء، لتقول دوما: «هل من مزيد؟»؛ غير أنَّ صمَّام الأمان، وبرَّ الأمان، هو السعي الحثيث لإبقاء «إبرة بوصلة القلب» متوجهة هذه الوجهة، حتى وإن قدِّر لك أن تنحرف أحياناً، أو تتوه أحياناً، أو تغفل أحياناً... فإنَّ ذلك القلب الوجل ينبهك إلى الوجهة، ويذكرك بالرضا، وببلوغ الغايات في سلام.

نسأل الله أن يهبنا ذلك القلب المخبت المحب... فنرضى بقضائه وقدره، ليعطينا على قدره، ولا يحاسبنا وهو الكريم على قدرنا، وقد قال سبحانه: «من رضي بقدري، أعطيته على قدري».

يا معلِّمي العالَم، ارشُدوا
خطاب مفتوح إلى القائمين على مؤسَّسات التعليم
بين يدي معلِّمي علي عزت بيجوفيتش

أحياناً يعوزنا التعريض فنلوذ بالتوضيح، وأحياناً لا يُجدي التلميح فنضطرُّ إلى التصريح، وفي جميع الأحوال المقصدُ هو أن نلتقي في نقطة المعنى، ونرتقي إلى علوِّ الفهم والإدراك ثم الوعي؛ وبخاصَّة لو تأمَّلنا بجدِّية حالنا ووضعَنا، وما نحن فيه، وما نحن صائرون إليه؛ لا بعين الناقم ولا بعين البليد، بل بنظر المسؤول الحديد، وبمنطق «عرضِ العمل على التفتيش». والمفتِّش الأوَّل خبير بصير، عليم حكيم؛ ثم يليه مفتِّش حليم حكيم، هو صاحب الفضل علينا، ﷺ؛ ثم يُعرض عملُنا على كلِّ قلب وعقل يغرس فتيله في محبرة الإيمان، ويستنير من نور اليقين.

أليس هو القائل، جلَّ من قائل: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: 9/ 105]؟.

من المهمِّ والأكيد أن نجتهد في فتح المدارس، ومن الاجتهاد والصبر أن نداوم على سيرها وتحسينها، ومن الجهاد والهجرة أن نسمو بها رويداً رويداً نحو ذروة الكمال البشريِّ؛ ولذا كان المعلِّم والمدرِّس هما رمز البطولة، وعنوان الأمل.

لكن الأهمَّ من ذلك أن نديم المقصد والمعنى، جنباً إلى جنب مع الشكل والمبنى؛ فلا يضيع من بين أيدينا هدفٌ ولا رسالة ولا غاية، حتى وإن لقِينا حتفنا، وتجرَّعنا الأمرَّين، وذُقنا المحنتين... «**فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**».

في هذا الشأن، ولهذا الغرض، وبهذا النفَس، أطللتُ اليومَ مرَّة أخرى على ملفِّ التعليم، وعلى التربة الخصبة لبناء الحضارة، راجيا من القارئ الصدوق، ومن العامل المشوق، أن يتفاعل ويفعل، لا أن ينفعل ويجبُن، أو يُعرِض ثم يبرِّر. فأنا أحسن الظنَّ فيه، وأثق في «جنابه»، وأرجو النجاة من بابه.

وأبدأ مقالتي بهذه الملاحظة، مستصحباً معلِّماً خرِّيتاً، وهو أحد الذين جلست إليهم طويلا، وتشربَّت من معينهم سلافة الحقِّ، واعتقدت إمامتهم دون مَن سواهم، بحقٍّ وبصدق. وأعني به: العلاَّمة علي عزت بيجوفيتش، رحمه الله تعالى برحمته الواسعة، فهو من مصادر المنظومة الأدلاَّء، إلى جوار: مالك بن نبي، وفتح الله كولن، وعبد الوهَّاب المسيري... وغيرهم من الأئمة الهداة المهديين.

الصبيانية وروح العصر:

يورد بيجوفيتش ملاحظة ينسبها إلى «يوهان هويزنجا» (JuhanHuizinga) يسمِّيها بـ«الصبيانية» (Puerility). وهي «أنَّ الإنسان المعاصر يتصرَّف بطريقة طفولية، بالمعنى السلبي للكلمة؛ أي بطريقة تتَّفق مع المستوى العقليِّ للمراهقة: تسلياتٌ مبتذلَة، غيابُ روح الفكاهة الأصيلة، الحاجةُ إلى أحداث مثيرة ومشاعر قوية، الميلُ إلى الشعارات الرنَّانة والاستعراضات الجماهيرية، التعبيرُ عن الحبِّ والكراهية بأسلوب مبالَغ فيه، اللومُ والمدح المبالغ فيه، وغير ذلك من العواطف الجماهيرية القاسية».

وبإمكاننا أن نضيف إلى هذه المظاهر قائمة أخرى من السلبيات، منها: العجزُ عن التركيز المتواصل، تشتت الذهن والتقلب بين المواضيع بأسلوب «تقليب القنوات»، «ذهنية الفايسبوك» بتعبير أحد باحثينا، التردُّد المبالغ فيه في اتخاذ القرار، الاعتناء المفرِط بالجزئيات على حساب المعاني الكبرى والكليات... إلخ.

مع ملاحظة أنَّ ذلك ليس سمةً «للعصر» باعتباره «هذا العصر»، ولكنه مكتسَب ونتيجة وصناعة لظروفٍ، على رأسها الواقعُ التربوي، والإعلام الجماهيري، واهتزاز منظومة الثقافة، وضعف التدين، وسوء فهمه وتمثله؛ وهو ما يمكن أن نعبِّر بمصطلح «الأفكار المطبوعة»، باعتماد قاموس ابن خلدون ومالك بن نبي.

والآن، إذا لم تسهم المدرسة بصفة مباشرة ومعلنة في «ترشيد» هذا «المتصابي»، وفي «إنضاج» هذا «المهدَّد بالتشتت والتشرذم والانهيار الجوَّاني»، فما دورها إذن؟ ولماذا أنشئت أساساً؟

ما الفائدة المرجوَّة من الدروس والمحفوظات التي تلقِّنها تباعاً؟

من ضغط البرنامج إلى ضغط الروح:

ماذا نفعل، هذا هو البرنامج، نحن مطالبون بإتمامه، وهذا هو المنتظر منا؟

هذه عبارة، أو مكُّوك من العبارات مجَّتها الآذان، وصدِئت منها القلوب، وتبلَّدت على إثرها الأحاسيس، وتغابت جرَّاءها العقول والأفئدة؛ وهي لطالما شُهرت مثل «سوءة فاجرٍ» أمام كلِّ محاولة للإصلاح، وكلِّ مبادرة للتغيير؛ كأنَّ «الضغط، والبرنامج، والمادَّة... ومرادفاتها صارت هي الآمر الناهي، وتحولت إلى بعبع مخيف، أو حتى إلى إله يعبَد»...

ولذا، سجَّل الأستاذ علي عزت بيجوفيتش هذه الملاحظة الجديرة، وقال:

«في هذه الأيام من الممكن جدّاً أن نتخيَّل شابّاً قد مرَّ بجميع مراحل التعليم، من المدرسة الابتدائية حتَّى الكلية، دون أن يكون قد ذُكر له بالضرورة أن يكون إنساناً خيِّراً وأميناً. فهو يتعلَّم أوَّلاً أن يكتب ويحسب، ثم يدرس الطبيعة والكيمياء، وعلم الأعراق، والجغرافيا، والنظريات السياسية، وعلم الاجتماع، وعلوما أخرى كثيرة. إنه يجمع عدداً هائلاً من الحقائق، وعلى أحسن الفروض يتعلَّم كيف يفكِّر، ولكنَّه لم يستنر ثقافيّاً أو روحيّاً».

أي أنه عُلِّم أن يكون «حيواناً اجتماعيّاً»، وفق قاموس «داروين» علِّم أن يكون قرداً متطوِّراً متحضّراً، لا إنساناً مسؤولاً.

وفي هذا المعنى يُبدع المسيري حين يفرِّق بين «الحقيقة والحقائق»، وحين يضع حدّاً فاصلاً «بين العقل الفوتوغرافي الغبي والعقل التوليدي الذكي»، ذلك أنَّ التعليم ينحو غالباً إلى سرد الحقائق مشتتة، وعرض الجزئيات، وتحفيظ التفاصيل؛ مغفلاً الحقيقة، والكلِّيات، والأسباب؛ أي أنه يتعامل مع «آلة تصوير»، و«مسجلة»، و«إم بي3» (MP3)... يُنتظر منها أن تعيد ما خزِّن فيها؛ لا مع عقلٍ له القدرة على أن يبدع، ويولِّد، ويأتي بالجديد.

ويضيف فتح الله كولن: «في حقيقة الأمر، فشلُك في النظر إلى المسائل من خلال نظرة كلّية، سوف يؤدّي حتماً إلى الإفراط أو التفريط...».

أيَّ تعليم نمارس؟

المنظومة المادية ذات نظامٍ مغلَق، لا يمكنها أن تنفتح على عوالم لانهائية؛ لأنَّها باختصارٍ لا تؤمن إلَّا بالمحسوس والمحسوب، وبالماديِّ والمستدلِّ عليه؛ أي أنها منظومةٌ لو رسِمَت لكانت جسماً على شكل رأسٍ كبير؛ لا مكان للقلب فيه، ولا للأحاسيس، ولا للقيم.

وظلُّ المنظومة الغربية، مما يصل الشرقَ المولوع بالتقليد، هو صورةٌ مشوَّهة لأصل أعوج؛ فهنا نشاهد ما يشبه الرأسَ، وشيئاً شبيهاً بالعقل، وما من شكٍّ أنَّ ظلَّ الشيطان هو شيطان مشوَّه، فلا هو إنسان مكتمل الإنسانية، ولا هو شيطان مكتمل الشيطانية؛ والمقرَّر عقلاً وواقعاً أنَّ الظلَّ دائماً هو أهون وأسوأ من أصله. يقول الأديب العالمي، فيكتور هيجو: «الأسد الذي يقلِّد أسداً آخر، هو في حقيقة الأمر قردٌ».

ومن ثم جاء التعليم، الذي ورثناه من منظومة المستعمِر، كما ورثنا الملفَّات

الكبيرة الطويلة العريضة، التي نكتب عليها تقارير الدرس، بخطٍّ معيَّن، وشكلٍ معيَّن، ولغة ميِّتة معيَّنة مسبقاً... رغم أنَّ الأصل اليومَ يعلن احتضاره وإفلاسه، ولقد شاهدنا ما حدث في أمريكا، منذ أيام، مِن مقتل ثمانية وعشرين شخصاً، منهم تلاميذ، على يد شاب قتل والديه أولاً، ثم قضى على الباقين...

هذا الميراث يعتمد على «الشيء»، و«المادة»، و«التقنية»، و«المعلومة»؛ أي هو حريص على «صناعة» الإنسان الذي سينتج ويصنع ويقول: «نعم» إذا اقتضى الأمر؛ وهو يدير ظهره «لله»، و«للإنسان»، و«للكون»، و«للقيم»، و«للفن»، و«للأخلاق»...

ولذا، فإنَّ التعليم بهذا المدلول، وبهذه الخلفية الكونية، لا يمكنه أن يرتقي بالناس، ولا أن يجعلهم أفضل مما هم عليه، أو أكثر حرية، أو أكثر إنسانية، «إنَّ هذا العلم يجعل الناس أكثر قدرة، أكثر كفاءة، أكثر نفعاً للمجتمع، ولقد برهن التاريخ على أنَّ الرجال المتعلّمين والشعوب المتعلّمة يمكن التلاعب بهم، بل يمكن أن يكونوا أيضاً خداماً للشرِّ، ربَّما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة».

هذا حكمٌ على الأصل، فما هو القول في الظلِّ والفرع، الذي يعيق الكفاءة، باسم العصر، ثم يقتل الإنسان، باسم التطور؛ فلا هو ـ مثل سيده ـ يحقق القدرة على الإنتاج والصناعة، ولا هو مثل أجداده يحقق الذات الحضارية، ويعبِّر عن الحرية والوجود الواعي.

لاإنساني!

من مصطلحات العصر النمطية، التي تُلاك مثل العلك، أو حتى مثل مطاط قذر على الألسن غير الذواقة، مصطلح «إنسانيٌّ»، فهذا إنسانيٌّ، وهذا ليس إنسانيّاً؛ ومن ثم كانت العفَّة «لا إنسانية» لأنها تكبِّل الحرية، والفجور «إنسانيّاً» لأنه يعبِّر عن

الحرية؛ والحقُّ أنَّ هذه المرجعية الإنسانية يجب أن تضبط بمعيار، وإلَّا اعتبر إبادة شعبٍ كامل إنسانيّاً، وقتل ظالم مستبدٍّ متسلطٍ واحدٍ لا إنسانيّاً؛ كما هو الحال اليومَ في «قاموس الإعلام الببغائي».

والصواب أنَّ «تدريب البشر على أن يكونوا مجرَّد منتجين، وتنظيمهم في صفوف المواطنين الصالحين (المصفِّقين)، هو أيضاً لا إنسانيٌّ»، ويكون التعليم «لاإنسانيّاً»:

- «إذا كان قائماً على تلقين تعاليم حزبية».
- «وإذا لم يكن يعلِّم الفرد كيف يفكِّر بطريقة مستقلة».
- «وإذا كان يقدِّم إجابات جاهزة» ويقتل روح السؤال والشكِّ وحيرة الذات.
- «وإذا كان يعدُّ الناس فقط للوظائف المختلفة، بدلاً من توسيع أفقهم».
- وإذا كان يستعير الصاع من عدوِّه ليكيل دقيقه.
- وإذا كان يفصِم الإنسان عن ذاته، ثم يُلبسه ذواتاً مشوَّهة، ويعرِضه في سوق النخاسة، أو على مسرح عرائس القراقوز.
- وإذا كان مجرَّد بوق لنظريات وطرحات جاءته من الغرب ومن الشرق، بلا روية ولا مشاركة، بالموجب الخلدوني: «ولع المغلوب بالغالب».
- وإذا كان يزرع إلى جوار المعلومة حزمة من اليأس والقنوط، ويقنع التلميذ ظلماً أنه حقير ودنيء وسيء الحظِّ، وأنه لا يصلح لشيء، ولا حتى ليرمي في الزبالة مثل القشِّ...

فلينظر كلٌّ منا، كم هو تعليمنا «إنسانيٌّ»، وكم هو غير إنسانيٍّ؟

وكم نحن جادّون أو غير جادّين في «أنسنة التعليم»، بروح ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 17/ 70].

إحراق الروح بديلاً عن الجسد:

من منطلق الفهم الواعي، ومن كوة المنظومة التوحيدية الرشيدة، يتقرَّر لدينا أنَّ كلَّ شيء يحطُّ من كرامة الإنسان، ومن شخصيته، أي يشيِّئه (يحيله إلى شيء)، حسب تعبير مالك بن نبي، أو يحوسله (يحوِّله إلى وسيلة)، بتعبير المسيري؛ كلُّ ما كان سبباً في ذلك هو لا إنسانيٌّ بامتياز.

مثلاً، من الإنسانية أن نعتبر الإنسان مسؤولاً عن أفعاله ونحاسبه عليها، وليس من الإنسانية أن نفرض عليه إرادتنا، ونعتبر أنفسنا وكلاء عليه، والحقُّ أنَّ الرسول ﷺ نفسه انتفى أن يعتقد كونه وكيلاً على أحد «**ولست عليهم بوكيل**».

وليس إنسانيّاً أن نجبر أيّ إنسان على أن يتذلل حتى يُصفح عنه، باسم القانون، أو المصلحة العامة، أو حتى الأجر والمثوبة؛ لأنَّ الذلَّ ذاته حرام في عرف الشرع الحكيم.

ثم، إنه من الإنسانية أن يعاقَب إنسان بسبب معتقداته، وليس من الإنسانية أن يجبر على التخلي عنها، أو التبرّؤ منها... ولذا «فهناك عقوبات إنسانيةٌ، وعفو هو أكثر شيء لاإنسانيةً».

والقاعدة الكلية التي نستنبطها من هذا السياق، ونسقطها على سياقات أخرى، منها سياق التربية والتعليم، والمدرسة والجامعة، والمسجد والمنبر، والمتجر والسوق... تأتي من الملاحظة الآتية: «كان محقِّقو محاكم التفتيش في الماضي يزعمون أنهم يُحرقون الجسد لكي ينقذوا الروح؛ أمَّا المحقِّقون المعاصرون، فإنهم يفعلون العكس: يحرقون الروح ويبقون الجسد».

والتعليم اليوم، هل هو من النمط الأوَّل؟ أم هو من النمط الثاني؟ أم أنه يحيي الروح لأنها هي حقيقة الإنسان؛ ويربي الجسد لأنه هو الحامل للروح؛ ويخاطب التلميذ من جميع منافذه، على حدِّ تعبير المجدد محمد فتح الله كولن: من قلبه، ومن عقله، ومن جوارحه، ومن إلهاماته، ووجدانه، وذوقه... إلخ.

وإذا ما علمنا أنَّه في «هوليوود توجد أكبر نسبة من الأطباء النفسانيين في العالم»، وأنه «في صفوف الجامعات» في أمريكا، يوجد أكبر نسبة من المنتحِرين؛ تيقنّا أنَّ الجسد الرشيق، والعقل الجبَّار، لن يُغنيا شيئاً إذا ما فصلا عن الروح، وإذا ما أعدَّا «للذة والمتعة» الآنية المتناهية.

فهل، نعدُّ تلاميذنا ليكونوا مثل هؤلاء؟

لنصدق أنفسنا، وقبل ذلك لنكن صادقين مع الله، سبحانه.

لماذا هذه الوقفة؟

لا شكَّ أنَّ هذا النقد لا يقصد منه تعميم الحكم، فنسبة الغلوِّ في المادة والانفصال عن الروح، تتفاوت من مدرسة لمدرسة، بل من قسم لقسم، ومن معلم لمعلِّم؛ ولا تنكَر المبادرات الكثيرة التي تبذل هنا وهنالك، في الشرق وفي الغرب على السواء؛ لكنَّ نقدَنا للحضارة أو لما يُعرف بالتقدم المادي، كما يقول بيجوفيتش «ليس دعوةً لرفضها، فالحضارة لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا في ذلك. إنما الشيء الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطِّم الأسطورة التي تحيط بها. فإنَّ تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مزيد من أنسنة هذا العالم، وهي مهمَّة تنتمي بطبيعتها إلى الثقافة».

وأقول: لو قُدِّر لي يوماً أن أعود إلى مجال «التنظير والتفعيل التربوي»، لحمدت الله أوَّلاً على ما تمَّ ويتمُّ من فعل إيجابي، هنا وهنالك؛ ولكن، كذلك، سأعمل على أن أؤسِّس مدرسة أو مدارس تتجاوز «البرنامج»، و«المقرَّر»، و«الشهادة»... مدركاً أنَّ ثمة قناعة من المحيط العامِّ ترفض هذا المنحى؛ ولكن سأحاول؛ وسأجمع فيها بين «التعلُّم والتأمُّل والتفكُّر»، وسأخاطب القلب إلى جوار العقل، وسأجعل الحرية هي مدار الرحى...

وما من شكٍّ أنَّ الوصول إلى هذا المطلب، لا يمرّ إلَّا عبر التغيير التدريجي، والمرحلية الواعية؛ ولذا أعيد وأكرِّر: ليس هذا نفياً لما مضى، ولكنَّه التذكير بأنَّ الوقوف في أيِّ محطَّة، والانتهاء إليها، هو بداية السقوط، وهي نقطة العودة والانتكاس؛ وما من شكٍّ أنني سأفتح مدرسة، لو قدِّر لي ذلك: تخرِّج الناس على كتاب الله، علماً وعملاً، وعلى منهج السنة الطاهرة، موضوعاً ومنهجاً؛ ثم على أساس الفهم الصحيح للأعلام الأدلاَّء.

لا بدَّ أن تكون مدارس ذات نفَس إيماني رباني، وذات بُعد إنسانيٍّ كونيٍّ، ألدُّ أعدائها الكره وضيق الأفق والتصنيفات الضيقة، فلا هي بالمدارس الإسلامية في «نسخة نصرانية» روحية باهتة؛ ولا هي مدارس على نمطٍ يهوديٍّ ماديٍّ أرضيٍّ؛ لكنها مدارس إسلامية، بمعنى أنَّ «الإسلام يعني أن نفهم وأن نعترف بالازدواجية المبدئية للعالم (الروح، والمادة)، ثم نتغلَّب على هذه الازدواجية».

وبحقيقة «أنَّ الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرَّماته ولا من جهود النفس والبدن التي يطالب الإنسان بها؛ وإنَّما من شيء يشمل هذا كلَّه ويسمو عليه: من لحظةٍ فارقةٍ تنقدح فيها شرارةُ وعيٍ باطنيٍّ.. من قوَّة النفس في مواجهة محن الزمان.. من التهيؤ لاحتمال كلِّ ما يأتي به الوجود.. من حقيقة التسليم لله... والاسم إسلام».

ولعل المدارس الأولى سيكون أسماؤها، حسب منطلقات مناهجها، لا مجرَّد شكل وعمارة، بل روح وعمارة، مستقاة من هذه الأسماء الخالدة:

* مدرسة علي عزت بيجوفيتش،
* مدرسة مالك بن نبي،
* مدرسة فتح الله كولن،
* مدرسة عبد الوهاب المسيري... ثم...

استدراك:

مهلاً، لعلَّ الموجود، بحول الله تعالى، وهو في الطريق الصحيح، سيحقِّق هذه المطالب، ولسوف يرتقي هذا الأفق، بل أكيدٌ أنه سيفعل، والله تعالى معه...

هنالك فقط، لا حاجة للتفكير في الجديد، ولكن الواجب يملي التركيز على التجديد..

والتجديد، والتغيير... مفهومان ديناميكيان... لا يتوقفان؛ وإن كانا يرتكزان على محور ثابت، وعلى مرجعية صلبة...

سلامي إلى الإخوة القائمين على مؤسَّسات التعليم... في جميع أصقاع العالم...

ولا أقول لهم اليومَ: «يا عمَّال العالم اتِّحدوا..» فلقد مضى أوانها واهترأ بنيانها، ولكن أقول: «يا معلِّمي العالم أرشُدوا... يا معلِّمي العالم أرشِدوا...».

يا ساهر الليل .. قم الليل
(مقال نموذجي لمعالجة عقدية)[1]

الليل ليل، والويل ويل... إمَّا ظلمةٌ وكفى، أو ظلمات وصدٌّ عن سبيل المصطفى...

الليل ليل، والسيل سيل... إمَّا يَسقيك ماء عذباً زلالاً، أو يجرفك فتهلك دنياً وأخرى...

فيا ساهر الليل، وبين عينيك شاشة عريضة (التلفزيون أو الكمبيوتر)...

ويا ساهر الليل، وأمام ناظريك شاشة صغيرة (المحمول أو الهاتف أو لعبة إلكترونية)...

---

(1) يعالج المقال مواضيع عقدية بأسلوب ملائم للغة الشباب، أبرزها:

إرادة العبد، وحرية الاختيار.

التفكر في خلق الله، وفي المصير، وفي النفس.

الانتصار للحق والإيمان.

تربص الشيطان والكفار بالمؤمن.

غيرة الله تعالى على المحارم، وحبه لعباده، ورحمته بهم.

النهي عن اليأس والقنوط.

وجوب المسارعة إلى التوبة.

وجوب الستر حين الابتلاء.

لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

تبغيض المعصية وتحبيب الطاعة.

يسأل طالب العلم قراءة المقال، واستنباط هذه المعاني، ثم التوسع فيها مع الأستاذ والموجه، من خلال مصادر في التفسير، والحديث، والعقيدة؛ على صيغة بحوث وقراءات مفتوحة.

وحول كلِّ ذلك اتصال مباشر أو غير مباشر، بعفاريت الأرض وشياطينها؛ وقد سهروا في طبخ ما تأكل، وفي تزويق ما تلبس، وفي تجميل ما تشاهد، وفي زرع أشواك من فلسفات اللذة، والعبثية، والانحلال... مصيدةً لك، نُصبت ـ بخبث واحتراف ـ شِباكها لجوف الليل، أو حتى لحين ترمض الفصال وقت الضحى...

مثل ذبابٍ يحوم حول النار فتحرقه، أو ينجو من لظاها فتكون بردا وسلاما عليه...

مثلَ مربوطٍ بعنقه إلى مشنقة، إمَّا أن يُقطع رأسُه، أو يَقطع الحبلَ بعزم، فيحيا حياة طيبة لا غبار عليه...

****

فيا ساهر الليل تفكَّر، وتروَّ، وأعمل قلبك وعقلك وضميرك؛ لتنجو وينجو من معك... ولا تكن خفيف العقل، ميِّت القلب، بليد الضمير... فتهلَك وتُهلك مَن دونك ومن خلفك...

إنَّ نصرة الحق والدين تبدأ من ساعة تخلو فيها بنفسك، فإن أنت انتصرتَ على هواك ترشَّحت للمهامِّ الكبرى، وإن أنت انهزمت وتردَّيت وتلطخت... فلم تسارع إلى الكرِّ والوقوف والتطهر... إن أنت كنت كذلك، فالرجاء في قطع المسافات يتضاءل وينطفئ... رويداً رويداً...

فيا ساهر الليل، لا تستسلم، ولا تلقِ بالمنشفة البيضاء على حلبة صراع القيَم؛ واعلم أنَّ ربَّك يَغار عليك، وهو بك رحيم، وقد عافاك وسترك، فلم يفضحك أمام الخلائق، ولقد نهاك عن فضح نفسك... ففي الحديث الصحيح: «**إنَّ الله تعالى يغار، وغيرة الله تعالى أن يأتي المؤمن ما حرَّم اللهُ عليه**»[1].

(1) سنن الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في الغيرة، رقم 1168، وصحيح البخاري، كتاب النكاح، رقم 4925، وصحيح مسلم، كتاب التوبة، رقم 2761.

****

ويا ساهر الليل، لك ربٌّ رحيمٌ بك، عفوٌّ عليك، عطوفٌ ... بسَطَ يديه لك فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 3/ 133]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النور: 24/ 31]... لك ربٌّ يقول للسماوات والأرض، وللجبال والبحار، وقد ضجرت من معاصيك فاستأذنت ربها أن تهلكك، يقول لها:

«**دعوني وعبادي .. لو خلقتموهم لرحمتموهم ..إن تابوا إلي فأنا حبيبهم .. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم**»...

فيا ساهر الليل، لا تشكُ ليلك لأحد من الخلق... اقصِد بابه سبحانه... واسأله موقناً، وجِلاً، مستسلماً...:

«يا غفار، يا تواب، يا حبيب، ويا طبيب...قوِّني بالطاعة، وأبعد عني أسباب المعصية، وكن معي، واحفظني، واملأ قلبي صفاء ويقيناً وإيماناً... فأنا عبدك وأنت ربي... أنا المحتاج وأنت الكافي... أنا المريض وأنت الشافي ... أنا الضّال وأنت الهادي ... أنا الداعي وأنت المستجيب... اللهم أنت ربي وأنا عبدك».

****

يا ساهر الليل، تأمل معي هذا الحديث الجميل، الرائع، البديع... ففيه جرعات من الأمل، يستتبع العمل:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها ما دون أن أمسَّها (آتيها)، وأنا هذا فاقضِ في ما شئت، قال: فقال عمر: «لقد سترك الله لو سترت نفسك»... فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه رجلاً ودعاه، فتلا عليه الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: 11/ 114].

فقال رجلٌ: يا رسول الله، هذا له خاصة؟ قال: «لا، بل للناس كافة»...

فيا ساهر الليل أبشر، واستغفر، فالآية تصدق فيك وفي غيرك...:

فاستر ولا تفضح،

واكتم ولا تشهِّر،

واندم ولا تيأس،

وتُب ولا تسوِّف،

وأحسِن الظنَّ في الله ولا تقنط،

ويا ساهر الليل «قم الليل»... فإن فعلت فقد محا الله صفحتك، وفتح لك أبواب الجنان ترتع منها كما تشاء، وجنَّد لك أهل السماء يستغفرون لك، ويسبِّحون معك... ولقد صار ليلك مولوداً جديداً، وبستاناً يزهو بالزهر وبالورد والياسمين... فارتع فيه كما تشاء...

فيا ساهر الليل: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: 39/ 36].

الحياة والفن

الحياة ... بلا فنّ:

الكتابة بلا فنٍّ لوحةٌ؛ رسَّام ساحَ عليها الزيت المتخثّر وقد تسنَّهْ وعمِلت فيه السنين؛ فاستحال لونُ اللوحة رماديّاً قاتماً بفعل أيدينا الغاشمة، وتحوَّل المشهد خليطاً من الجمال لكنَّه تشوَّه وتعفَّن...

الكلام بلا فنٍّ مزمارٌ تهشَّم عظمُه، فجعل النافخُ فيه يُلصقه بالضغط عليه، لكن بلا طائل؛ حتى كسره ورماه؛ فغادر الساحةَ المنشدُ والمريدُ... ليحلَّ نعيقُ الغراب محلَّ ترنيمة الناي الحزين.

الفكر بلا فنٍّ مسجدٌ كُسِرت أعمدة منبره، وتغيَّرت وجهة قبلته، بعدما تعكَّرت أمزجة رواده؛ فكان الواحد منهم يصلي كيفما اتفق، وينهره الآخر كيفما اتفق ... ومِن ثم ضاع المعيار، وتكسَّر الميزان...

المدرسة بلا فنٍّ طائرُ نورَسٍ؛ لكن ـ عِوض الريشِ المخمليِّ البهيِّ ـ يلتصقُ على جلده صوفٌ مستعارٌ مِن كبش أدبَر أغبَر؛ وقد بات الرواد يقولون ويتحسَّرون: ليت الطائر يلبس ريشه، ويعلو به صفحات الجو نشوان!

الوطن بلا فنٍّ زنزانة تفوح منها روائح الخشب المبلَّل بالعرَق، زنزانة يسكنها المخبولون من كلِّ جنس؛ فيتبادلون الكلمات البذيئة بديلاً عن التحايا؛ ويستمرئون كلَّ ذلك لفساد في الذوق، وزوال للمعنى. مثلَ نهر تلوَّث ماؤه، وعلاه غبار قاتم، ففاح منه ريح منتن يذكِّرك بشوارع روما القديمة، حين كان السكارى يقطعونها جيئةً وذهاباً؛ ذلكم هو الوعظ بلا فنٍّ، والنصح بلا فنٍّ، والدعوة إلى الخير بلا فنٍّ...

من المؤذِّنين من لو سمعه مؤذِّن رسول الله، بلالٌ ﷺ، لانهال عليه ضرباً باليمين؛ ومن الأئمة مَن لو صلَّى وراءه أبو موسى الأشعري لقطع صلاته فأعادها؛ «أرِحنا بها يا بلال»... ويا أبا موسى «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»... تلكم شهادة رسول الفنِّ عليكما... فهل من معقِّب؟

الحياة بلا فنٍّ عروس بالِغُة الجمال، لكنَّ شعرها اسَّاقَطَ عنوةً، فبدا عليها الصَّلع المشؤوم؛ ثم صار الناس يقولون ويتأوهون: آه، ليتها بهذا الجمال عاد إليها شعرها!

لك أن تتخيل القبح وقد اجتمع في ساحةٍ، وهو يصرخ مثل معتوهٍ مخمورٍ مخبولٍ... يبني جملة ثم يهدمها، ويلقي برأي ثم يَنقضه، ويصرخ بفكرة ثم يشتمها... ذلكم هو الإنسان بلا فنٍّ ولا حسٍّ ولا جمال... الجمالُ سببٌ من أسباب الوجود؛ فلا يُعرف شيءٌ خلقه ذو الجلال والجمال خِلواً من الفنِّ؛ وإن أنت أبصرتَ سماجة أو لجاجة أو فجاجة فاعلم أنَّ ثـمَّة إنسان... بل، تيقَّن أنَّ هنالك قرداً تقمَّص صورة إنسان... أو شيطاناً مارداً ظهر على شكل إنسان...

فهل مدينتي، وشارعي، ومدرستي، وكلمتي، وفكرتي، ومسجدي، وملبسي، ومشربي... هل جميع ذلك تجمَّل بالفنِّ وتسربل به، وهل قام بالفنِّ ونام به، وهل تنفَّس الفنَّ وهمس به... أم أنَّ الفنَّ في منطقي بات «مغضوباً عليه»، واغتيل ثم حنِّط، فنعاه البعض بصوت بارد بليد...

لقد فقدتُ صوابي مرات ومرات، وأنا أقف إلى جوار مبنى، أو أجلس على طاولة مطعم، أو ألج باب بلدية، أو أتابع جدالاً في قناة، أو أقرأ مقالاً في جريدة، أو أستقبل شاباً عائداً من المدرسة، أو أسجد على سجاد جامع...فقدتُ صوابي، وارتجف ضميري، واستشاط عقلي حنقاً ... وتساءلت بلا هوادة:

لماذا غاب الفنُّ من قاموسنا؟

ولماذا تركَنَا الفنُّ يتامى على مائدة اللئام، نتجرَّع الردَّة والرداءة، ونبكي حظنا كلَّ حين؟

ألم يأن الأوان أن يستيقظ الـحَمام على أكمام قلوبنا، وأن ينبُت الخيزران على سفوح ضمائرنا، وأن يشدو العندليب قصيده المعهود، فينتشي الوجدان طرباً، ثم يرسلها أشعاراً أين منها أشعار المتنبي، ثم يترنم أغنيات شجية تهزأ من أغنيات زرياب؟!

ألم يأن الأوان؟!

والفنُّ... بلا حياة:

تحت مُسمَّى الفنِّ يحشر الناس كلّ ذليلة ورذيلة؛

بدعوى الفنِّ يصفِّقون، ثم يصفِّرون، لكلِّ فاسق وناعق؛

وتحت قبة الفنِّ يشجِّعون على المنافسة كلَّ أعوج وأعرج؛

الفنُّ كثيراً ما صُوِّر على شاكلة قشَّة يعلِّق عليها الفجّار شهواتِهم المحمومَة، ويبيعون لأجلها ذممهم الهزيلة، ويغتالون في سبيلها هممهم الرخيصة.

ولقد يتصابى الشيخُ فيرقُص ويزمِّر ويطبِّل؛ ثم يُستساغ ذلك عند جمهور مغفَّل باسم «الفنِّ»...، ولقد يَخرج الرجل الوقور عن حدود حيائه، فيقترف فُحشاً، ويقول زُوراً، ثم يُعلي مِن شأنه المشاهدون المستسلمون المنهزمون، بعنوان التمثيل، والمسرح، والسينما، والفنِّ... ويُعرف عند ذلك باسم «الفنان القدير!»، و«الممثل الشهير!»

للفنِّ سماسرةٌ وتجّار مِن جنس الثعالب والثعابين، لا يفكِّرون في كرامةٍ، ولا خُلقٍ، ولا قيمة، ولا يُراعون ذمَّة أحد؛ ما دام ذلك السحتُ مربِحاً، ومُغنِياً، وباعثاً للثروة والشهرة...

ليس أسوأ من امرأة رزقها الله الجمال والقامَة والقوام، ثم باعت عِرضها بثمن بخسٍ ـ مهما غلا الثمن ـ لتعمل مغنيَّة أو عارضة أزياء؛ وأسوأُ منها أن تكون «قرداً تعلوه مساحيقُ»... قرداً يعرض هضباته وندباته على شاشة الإعلانات للماركات العالمية؛ حتى لا يكاد اليومَ إشهارٌ واحدٌ يخلو من مفاتن امرأةٍ تُباع في سوق النخاسة...

انساق مغنٍّ مِن أصول مسلمةٍ وراء هواه ونزواته الفنية، فتطاول على الله تعالى، ليغني بصلَف ووقاحة: «قدَرُ الله بليد»... وها اليومَ قد لاقى ربه، وهو بين يديه سبحانه، وحاله تتلو قوله جلَّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: 23/ 115-116].

شاعرٌ طار صيته في كلِّ حيٍّ ونادٍ... وهو حين سمع خشخشة خطوات الردى تقترب منه رويداً رويداً، وأحسَّ بالنهاية ترفرف على جنبيه بهدوء مثل خفّاشٍ رماديٍّ كسير الجناح... أعلن، وقد كان من قبلُ باسم الفنِّ، وباسم الأدب، يخلع عن نفسه وعن الناس ثوب الحياءِ، ويعرِّي الشباب والشِّياب بلا حياء... أعلن واعترف أمام الأشهاد، فقال: «خطئي أني أخرجت سريري إلى الشارع»!.

حقيرةٌ هي تلك النزوة التي تواتيك وأنت سكرانَ نشوانَ، تردِّد مع امرئ القيس قولته الفاجرة: «اليوم خمرٌ، وغداً أمرٌ»؛

فها قد غرغرتَ الخمر إلى آخر قطرة ... وها قد انقضى اليومُ، فحلَّ الغدُ... أين الأمر؟ وكيف الأمر؟ ماذا أنت فاعلٌ، وقد ضيَّعتَ زهرةَ العمر بين الغواني والقناني؟ واهماً أنَّ الفنَّ عُهر لا محالة، وأنَّ اللذة بلا فسق لا تسوى شيئاً... واهم أنت... واهم...

حياةُ الفنِّ قيمةٌ، وخلقٌ، وحياءٌ، وكرامةٌ، وشهامةٌ...

حياة الفنِّ رباط روحيٌّ سرمديٌّ بربِّ الحبِّ والحبيب... بمالك العشق والعشيق... بخالق القلب والعقل والجسد... بمبدع الإحساس والشعور والسعادة ... بمن إذا أراد شيئاً كان، وإذا لم يرده لم يكن... بمن ادّخر لعبده جمالاً وفنّاً أبديّاً خالداً... يوم يلقاه...

حياة الفنِّ فكرٌ، وذكرٌ، وشكرٌ...

حياة الفنِّ إيمان، وإتقان، وإحسان...

فهل بلغَت كلماتي آذان الفنانين؟!

وهل لامَسَت شغاف قلوبهم؟!

وهل أحيت مواتَ أرواحهم؟!

أرجو ذلك، والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

الخوف المتأرجح
بين «قانون المالية» و«الثقة في الله»

أفتح المذياع في الساعة الأولى من النهار...

أقلِّب صفحات الجرائد «الوطنية» بجميع ألوانها وأطيافها...

أتابِع الأخبار ساعة بساعة على صفحات القنوات، وبين ثنايا مواقع الإنترنت...

لا همَّ، ولا شُغل، ولا حديث، ولا جعجعة... إلَّا عن «قانون المالية»، وعن «إجراءات التقشُّف»، وعن «سِعر البترول»... حتى لكأنَّ الساعة الكبرى قامت قيامتُها، أو لكأنَّ المسيح الدجَّال قد نزل بيننا...

بل، ويحذِّرنا بعض المغرضين من غدٍ أسودَ حالك، تنتهي فيه الأرزاق، وتطوى الأوراق، ويتشرَّد الناس في كلِّ مكان... فيحلُّ في ربوع الجزائر «البوم»، و «الغراب» ضيفاً ثقيلاً...

والذي يحزنني، ويمزّق قلبي كمداً وغيضاً، أنَّ «اسم الله تعالى» يغيب عن برنامج المشرِّع والمشرَّع له، وأنَّ «التوكُّل على الله» بات باللغة الدارجة «خُضرَة فوق امْعَاش»، أي بات «زيادة لا لزوم إليه»، فلا حاجة إلى «عونه» سبحانه... وإنما الحاجة إلى «البترول»، و«القانون»، و«الدولار»، و«التوقيع»، و«الحزب»... وكلِّ الأسباب المباشرة؛ التي يعلم الله أننا لم نرَ منها، منذ الاستقلال إلى يوم الناس هذا، شيئاً معتبراً «يذكَر فيشُكر»...

وإنه لولا عناية الله، ورعاية الله، وحفظ الله، ومعية الله... لخسف بنا...

يروي حبيبي رسول الله ﷺ، عن ربه الكريم تعالى شأنه، قوله الصادق: «مهلاً عن الله مهلاً، فإنه لولا شيوخ ركع، وشباب خشع، وأطفال رضع، وبهائم رتع، لصبّ عليكم العذاب صبّاً»(1)... ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: 8/ 43]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف: 12/ 38].

أنا لا أقلِّل من شأن الميزانية وقانونها، ولكن أستنكر نسجها بخيوط واهية ضعيفة، ليس لحبل الله المتين فيها حظ؛ خيوط من «الحساب»، و«التوقع»، و«الادّعاء»، و«المغالطة»، و«الحيلة»، و«الحظوة»، و«التحزب»...

وما من شكٍّ أنَّ جميع الوسائل والجهود ستكون متينة لو أنها استمدَّت قوتها من «التقوى»، ومن «خشية الله»، ومن «الخوف من الله»... ذلك أنها:

ستصبغ بصبغة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: 51/ 58]،

وستحاك على وقع ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: 20/ 132]،

وستفتل بفتيل ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: 65/ 2]،

وستنسج بنسيجٍ جميلٍ أخَّاذ من معنى ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: 40/ 16]...

أمَّا أن يتواطأ السياسي مع الإعلاميّ في «ترهيب الناس» صباح مساء، وأن يُفرغ القانون من حساب «الإيمان والتوحيد والثقة في الله»... فلا، ثم لا...

ذلك أنَّ المقنِّن والمقنَّن له «مرزوق» من الله، ولو شاء لقبض رزقه عليهم جميعاً؛ ولكن عهدُنا به سبحانه أنه لا ينظر إلَّا إلى قلوب المحبين، المستسلمين، المتوكلين، الشاكرين، المخبتين، المحسنين... لا إلى أوجه المعتبَرين، المتجادلين، المتناحرين...

(1) السنن الكبرى للبيهقي، رقم 5898.

هو سبحانه يرزقنا، ولو شكرناه لزادنا ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 14/ 7] ؛ لكن لو كفرنا وأعرضنا عن شكره فسيحرمنا لا محالة ﴿كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 14/ 7]...

ولو أنَّ البترول صار ماء، والدولار تحول إلى ورق، ولم يكن في كيس «المالية» سوى بضعة دنانير ... لو أنَّ الأمر كان كذلك؛ فإنَّ القيامة لن تقوم لذلك، وإنَّ الأمر لن يفلت من عين الله، ولا من قدرته، ولا من تدبيره ... ولذا، فالمطلوب في مثل هذه الحال هو أن «نصبر»، و«نشكر»، و«نتعاون»، و«نسارع إلى الدعاء»، و«نجدَّ في العمل»، و«نزرع ثم نحصد»، و«نسعى في الأرض» ابتغاء ما عند الله، بحزم وعزم، لا يشوبه رياء ولا كبر ولا غرور ولا احتيال...

اليومَ، في تقديري، لا يخاف إلَّا مَن أَلِف العيش بروح «الطفيليات» و«الأميبيا»؛ ولكن من اعتاد الكدح، والعمل الصالح، ولم يعوِّد نفسه الإسراف والتبذير، ولا السطو على أموال الناس بغير حقٍّ، ولا اجتراح السيئات والموبقات... نعَم؛ من كان أمره كذلك: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 2/ 38]... بل عليهم أن يستبشروا خيراً، بعودة المياه إلى مجاريها، والأمور إلى نصابها، والميزان إلى قسطه وعدله...

هذه دعوة إلى الشكر، والتوكُّل، والعودة إلى الله، والاجتهاد في كلِّ ميادين الحياة...

فهل من مستجيب؟ وهل تبلغ آذان المشرِّعين، والكتَّاب الصحفيين...؟

لا أعرف، ولكني متيقن أنها ستنفع المؤمنين ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 51/ 55]،

وأنا على يقين أنَّ الله الكريم يَسمعها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 2/ 137].. اللهم فاشهد..

البوهيميون الجدد:
مقال في درر التعليم والمعلم

البوهيمية تفلُّت عن المعتاد، وشذوذٌ في الأخلاق واللباس والفنِّ، وفي كلِّ مناحي الحياة، وهي ثورة على النسق وعلى النظام وعلى كلِّ ما ينتجه المجتمع من قيم جمالية وخلقية وحضارية؛ والبوهيميُّ ناقم في روحه، ميَّال إلى الفسق والفساد والإفساد، وهو يعبِّر بذلك عن تفوُّقه وعن بطولته، وهو يهتمُّ بما «يقال عنه»، أكثر مما «يكون عليه»، فيصنع الشهرة لأجل الشهرة، والظهور لأجل الظهور... ولا يبالي.

وإنك لتعرف البوهيميَّ في لحن القول... ولا تخطئه العين إذا لم تصب بالرمد...

****

ولا أعرف ما العلاقة بين نشأة «البوهيمية» مذهباً في العيش وفي الحياة بباريس خصِّيصاً عام 1830م، واستعمار فرنسا للجزائر في نفس السنة، أي عام 1830م؟

وهل هذا يعني أنَّ «روح البوهيمية» هي التي تخطَّت حدودَ فرنسا، وقطعت البحر المتوسِّط، لتستولي على مقدَّرات الجزائر يومَها، وإلى اليوم؟

وإذا كان الأمرُ كذلك، فهل انتقل المستعمِر الفرنسي إلينا مجرَّداً مِن سلوكه، أم أنَّه نشر «وباء البوهيمية» في أوساطنا، فباض بعد أمد، وفرَّخ، ثم ترك آثاراً لا تمحى في الأنفس وفي العقول، وفي دنيا الناس؟

* * * * * * * *

حين ألاحظ بعض مظاهر المجتمعات العربية والإسلامية، بمختلف شرائحها وتوجهاتها ورموزها، وحين أسجِّل نقاطاً حول الفن وتمثلاته في شتى مجالات الفنِّ، المحترف منه والعفويِّ، السافر منه والكامن...

ثم حين أستمع إلى بعض الخطباء الذين يطلُّون من شاشات التلفزيون، أو أقرأ ما يكتبه الكثير من مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي، مِن تغريدات، وتعليقات، وأفكار فجة مبتورة...

بل حين أراقب بعض الساسة، وبعض مَن اعتلوا عرش الأدب والرواية واشتهروا فيها، ونالوا الجوائز والأوسمة زوراً وبهتاناً...

حين ألاحظ، وأسجِّل، وأستمع، وأراقب... أتأكَّد أنَّ البوهيمية تولد من رحم التمرد، وأنَّ التمرد وليد السفه والسذاجة، وأنَّ صورة العصر تتلوَّن بلون «البوهيمية» الأكثر تطرفاً، وأنَّ السياق العام بات أميل ما يكون إلى تقبُّل الشذوذ منه إلى الصبر على الالتزام وروح المسؤولية.

****

وحتى أوان الفتن، يتحوَّل البوهيميُّ إلى وبال على أهله وبلده، ويتصرَّف تصرُّفاً مخالفاً للمعايير والأخلاق والمواثيق، فيحمل الناس ـ والشبابَ الغرَّ منهم بخاصَّة ـ إلى اتباعه، والاستماع إليه، واعتقاد بطولته، بل وحتى إلى رفض القيم والتفلت منها تحت عنوان البطولة الزائف... فيترك العقلاءَ حيارى، ذلك أنَّ البوهيمية الجديدة، أحياناً تتلبَّس بلبوس الدين (حركات، وجماعات، وأفكار شاذَّة، وادّعاءات)، وأحياناً أخرى تتلوَّن البوهيمية بلون العلم (مذاهب علموية، شبه علماء متمرِّدون، أدب منحرف، إعلام بارد)، وفي كثير من الأحيان تكون السياسة هي اللون الأيسر للبوهيمي، فيركب قطارها (مظاهرات، غرور، أحزاب وأفكار منحرفة، محاورات تلفزيونية)...

وثمة أشكال أخرى من البوهيمية الجديدة، غير أنَّ أسوأ أنواعها تلك التي تحمل شعار «البطولة والادّعاء»، وتخدع الناس «بحسن النية الظاهر»، فتختفي وراء أكمام الفوضى لتبني عشَّها، ثم تبيض وتفرخ وتنشر وباءها في الآفاق...

****

وتبقى المدرسة، والتربية، وزرع الأخلاق والقيم، هي صمَّام الأمان، وهي السبيل الوحيد لمعالجة جميع أنواع السفه، والفسوق، والعصيان، والبوهيمية، والجهل، والجهالة... ولذا، فأعظم جهاد في جميع الظروف والأوقات، وبخاصَّة أوان الفتن والأزمات، هو جهاد التربية، وهو جهاد تأطير الإنسان ليكون سويّاً، ولئلاَّ تنحرف به السبل عن سبيل الحقِّ.

مع ضرورة التذكير أنَّ اغتيال الحرية، وزرع النمطية، وإلغاء الخصوصية، وقولبة العقول، ووزَع العواطف، وشحذ المشاعر... أي ما يمكن تلخيصه بعبارة «التعليم المستبد» (الدكتاتوري)؛ جميع هذا لا يحرك قيد أنملة، ولا يسهم في مواجهة أنواع التفلت والفوضى؛ وإنما الذي يليق دواء ناجعاً، وشفاء أكيداً، هو احترام كرامة الإنسان، واعتبار حرية التلميذ والمعلم، واحتكام الجميع إلى القيم وإلى المقاصد، والليونة في اعتماد الوسائل والعناوين؛ والاجتهاد في جعل التربية جزءاً من السياق، لا نشازاً عن السياق؛ والجهاد والصبر والمصابرة في إيجاد الأجوبة لأسئلة العصر المحيرة؛ ذلك أنَّ النصر في حلبة المدرسة نصر مؤكد في غيرها، وأنَّ الانهزام فيها انهزام لا مفرّ منه في غيرها.

ونتهي إلى المعادلة التالية:

مدرسة جيدة = مجتمع سليم.

مدرسة سيئة = مجتمع سقيم.

فلننظر في دور التعليم والمعلم، ونحن على أبواب الدخول المدرسي، مرَّة أخرى.

وهْمُ الاكتمال، وحبُّ التملك

كلَّما تأمَّلتُ ظاهرة لها علاقة بالنفس البشرية، بل بنفسيتي أنا كما أدرِكها وكما أحاورها، أجد أنَّ الجواب الصحيح يمكن أن يُستعار من عالَم الطفولة البريء الشفاف، ثم يطبق على عالم الكبار المعقَّد، والصعبِ المِراس.

يلحُّ الطفل «فراس» على والديه لشراء لعبة جميلة بديعة، قد تكون باهظة الثمن، مستعصية على مقدَّرات الأب المحدودة؛ فيركِّز الطفل على اللعبة في طلباتِه الملحة «التي لا تنتهي»، حتى تتحوَّل إلى حقٍّ مشروع، ولقد يُلحق ذلك ببعض التصرُّف المحمود، مِن مثل الاجتهاد في الدراسة، والإقلال من الأخطاء تجاه أخيه وأخته... إلى أن يلين قلب الوالدين للحلم الكبير ـ والأم غالباً هي مركز القرار ـ؛ فيجمِعوا أمرهم، ويحرِموا أنفسهم من بعض الحاجات، ثم يبشِّروا الابن باليوم الموعود لاقتناء ما حلُم به طويلاً.

تتسارع دقات قلب الطفل، فيختال في سعادة نشوان ولهان، كأنَّ العالم صار تحت ناظريه، أو لكأنَّه أسعد إنسان في الوجود، وقد يخلط الحلم بالمنام، فتواتيه أضغاث الأحلام جميعها تحوم حول اللعبة، وحول تفاصيلها: لونها، من يشاركه اللعب بها، أين يضعها؟ كيف يباهي بها عند أصدقائه في القسم، بخاصَّة صديقه «نبراس» الذي دائماً ما تفوَّق عليه في الممتلكات وفي المتع التي تواتيه من والديه الأثرياء...

ها قد اشترت العائلة اللعبة من المتجر الكبير في المدينة (المول)؛ وها هي قد تحوَّلت إلى حقيقة ماثلة حيَّة لا غبار عليها في قرارة الصبي؛ وها قد حقق بها المبتغى وتمتَّع بلعبته بلا حدود ولا قيود، وها قد علم جميعُ مَن حوله من أطفال العمومة،

ومن أصدقاء الدراسة، ومن الصحبة في الشارع... علموا جميعاً بأمر اللعبة...

ثم تمرُّ الأيام، وتبرد «دفقة التملُّك»[1] من قلب الولهان، مثل «دفقة الماء» ترشح مرَّة واحدة، قد تكون قوية، ثم تغور وتجفّ؛ وتمرُّ الأيام فتلتحق لعبة «فراس» الجديدة بلعبه القديمة، التي جميعها عرفت نفسَ المصير، وسجَّلت نفس الاهتمام، ثم نفس اللاهتمام؛ فلم يعد لها أدنى أثر على مشاعر الطفل، ولا أقلَّ إحساس بالأهمية؛ ذلك أنَّ لعبةً جديدة نزلت السوق، ورآها عند أحد أبناء جيرانه، لا شكَّ أنها أجمل وأغلى وأفضل من لعبته هو، التي لم تعد وسائل الإشهار تظهرها وتزينها كما كانت...

****

ثم يكبر «فراس» وتكبر معه رغبة الملكية، وتتغير عنده أساليب التملك، قد تصير أقلَّ حدَّة، ولكنها لن تكون أخفَّ محورية في نقطة ارتكاز مشاعره وعواطفه، ولقد يربط الملكية بالقيمة، وقد يرغب فيما عند المشاهير من اللاعبين والممثلين من ملبس ومركب؛ وهو في كلِّ الظروف يعتمد على والديه في تحقيق المراد، ويعوِّل على حبهما له لشراء الغالي والنفيس؛ ذلك أنَّ والده في عينه «على كلِّ شيء قدير»، وإذا كانت أمّه صاحبة أجرة، فهي كذلك «قادرة على كلِّ شيء»....

ثم، تمرُّ السنين، وآخِرُ حلم يشرك فيه «فراس» والديه هو الزواج، فيعتقد أنه سيقترن بعروس كاملة، تفوق العالمين في الجمال، هدية العمر وريحانة الوجدان، لا عيبَ فيها سوى أنه لا يصبر عليها، ولا يقوى العيش من دونها، وستلد له أحسن الأطفال وأذكاهم بلا منازع، وتمنحه السعادة معتَّقة مثل صهباء ترخُص دونها المهج[2].

ثم تدول الدولة إليه، ويكبر معه الحلم، فيخطِّط لوظيفة، وسيارة، ودار، وأسفار،

(1) دفقة التملك: مصطلح صاغه المقال للدلالة على القوة والسرعة، التي يعقبها الزوال.

(2) ولعله لهذا الوهم بالاكتمال، الذي ينتهي بخيبة الأمل، علمنا رسول الله ﷺ أن نكفَّ عن فرك بعضنا البعض، فقال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلقا رضي منها آخر».

وأجهزة، وأثاث، ومتاع... وهو في جميع ذلك يُستدرج إلى «وهم الاكتمال»، ويقول: لو أنَّ لي بيتاً، لكنت أسعد الناس؛ ثم يقدِّر الله له شراء أرض، فلا يرى فيها إلَّا أنها «نقصٌ» يحتاج إلى «مالٍ» ليتحقق بها «الاكتمال»؛ ثم يسعى لبنائها، ومع الوقت ينتهي منها، ويسكنها؛ لكنها ما إن صارت تحت ملكيته، حتى ارتوى، وأتخمه «الإشباع» الذي كان يحلم به أول مرَّة؛ فهو الآن يفكر في غيرها، أو فيها ليحسِّنها من جديد...

وهكذا مع كلِّ مقتنياته وممتلكاته ووظائفه... لا يلبث أن يحلم، ثم يحقق حلمه، ثم يبرُد في نفسه؛ ويبقى أجمل شيء في قلبه هو الذي لم يستطع أن يكتسبه، فهو محلُّ الحسرات من جهة، وهو معقِد الآمال من جهة أخرى... ويقال: إنَّ أغلى بضاعة هي التي تصطف على أرفف الدكاكين، وأرخصها هي التي تصير رهن ملكك وبين يديك. ولذا تفقد السيارات ـ مثلاً ـ ثمنها ما إن تغادر المتجر، بما يزيد على الخمُس أحياناً.

****

هل سيجد الإنسان مطلق المتعة في شيء من أشياء حياته، أو في مناسبة من مناسبات عيشه؟

لا بدَّ أن تكون أشياء الدنيا ناقصة من جهات، حتى وإن اكتملت من جهة أو أكثر؛ فقد تكون غنيّاً وتقتني ألذَّ الطعام، لكنَّ مرضاً ينغِّص عليك الاستمتاع المطلق بتلك النعم؛ وقد عاينتُ أنا ـ حين كنتُ طالباً ـ رجلاً فاحش الغنى، استضافنا، وجلس يتفرَّج فينا، نحن الذين ـ يومها ـ لم نكن نملك ما به نسدُّ رمقنا، ولا نقدر أن نشتري ضروريات الطعام إلَّا بعد جهد، إلَّا أننا كنَّا نملك الرغبة والشهية إلى جوار عوزنا؛ جلس وهو يتفرج، فلمَّا سألناه: لِمَ لا تشاركنا الطعام؟ فقال: للأسف، المرضُ يمنعني، ومتعتي الآن أن أجد من يتمتع بما عندي.

لا شيء يبلغ مرتبة الكمال؛ ذلك أنَّ الخير في الدنيا لا يتمحَّض، وأنَّ الشرَّ لا يتمحَّض؛ وقد يصدق ذلك حتى على السياسات، والمشاريع، والحركات، والثورات... حلمٌ، ثم تحقُّق، ثم اكتشافٌ للنقص، ثم برودةٌ، ثم موتٌ أو وهنٌ؛ وحين تشيخ الأفكار لا يملك الناس ـ ولو كان بعضهم لبعض سنداً ـ أن يرتفعوا بها سامقاً، أو يبلغوا بها الدرجات عالياً.

****

ولقد ينسى الإنسان حين يبلغ مرحلة من مراحل حلُمه أن «يشكر الله» على المرحلة؛ فـ«الشكر على المرحلة»[1] من أعظم أنواع الشكر؛ ذلك أنه يُشفيك من «الذهنية الصبيانية» التي تشترط «الكلَّ أو لا شيء»؛ فأنت كلَّما شكرتَ الله على مرحلة، زادك ما به تنتقل إلى مرحلة أعلى منها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]، حتى إذا بلغتَ بالحلم إلى ما شاء الله، لم يكن ذاتُ الشيء هو المهمُّ، لكنَّ الشكر المصاحِب له هو المهمُّ[3]. يقول ابن خلدون في مقدمته: «أول الفكر آخرُ العمل»، فأنت حين تفكِّر في بلوغ منصب، تكون هذه الفكرة «أوَّل فكرك، ولكنها آخر عملك»؛ فتبدأ بترتيب الأسباب من الأدنى إلى الأعلى، سبباً سبباً، مثل درجات السلَّم، إلى أن تبلغ الدرجة الأرفع، وهي المنصب المرجوُّ، ولكنها هي آخر العمل.

لو أنك قبل كلِّ مرحلة سألت الله، وعند كلِّ مرحلة استعنت بالله، وبعد كلِّ مرحلة شكرت الله، وإذا أصابك مكروه أثناء كلِّ مرحلة صبرت لوجه الله... ولو أنك

(1) شكر المرحلة: مفهوم قد يلحق بمقال «رجل المرحلة»، ويحتاج إلى كثير من التحليل والتطوير؛ لأنه يملك قدرة تفسيرية عالية.

(2) عطاء، فشكر، فزيادة عطاء، فشكرٌ... هكذا في حركة ولودة، ضمن دائرة صالحة، حيث الخير يولد خيراً، والشكر يولد نعمة.

(3) لاحظ أنَّ الشكر مقدمة للنعمة الأخروية الخالدة، وهو مربوط بالنعمة الدنيوية الزائلة، ولذا كان الشكر أهمَّ من ذات النعمة المشكورِ عليها. ومن ذا يساوي الباقي بالفاني.

ابتغيت من كلِّ مرحلة وجه الله، وطلبت معية الله، وآتيت ما آتيت بالله، ولله، وفي الله، ومن الله، ولله، وعلى الله... لا تغادر الغايةُ قلبك وعقلك وحواسك طرفة عين...

لو أنك فعلت، لكنت «عبداً شكوراً»، ولكنت من القلَّة القليلة ـ ضمن زمرة آل داوود ـ التي قال عنها ربُّ الجلال: ﴿اعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 34/ 13]. ومؤدَّى الآية الكريمة أن «اعملوا، لا لتقوّتوا أنفسكم فقط، أو لتحققوا رغبات مادية وحسب؛ لكن اعملوا شكراً لله على نعمه، واعملوا لكي تزدادوا منه قرباً، ولكي يكثر الشكر وينمو فيكم، فتبلغوا مقام الشاكرين»، بنفَس نبوي عنوانه: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

مرَّ سيدنا عمر، رضي الله عنه، برجل في الطريق، فسمعه يقول: اللهمَّ اجعلني من القليل؛ فتعجَّب عمر من دعوة الرجل، فسأله؛ فقال الرجل: سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، وأنا أرجو أن أكون منهم؛ فقال عمر متحيراً: كلُّ الناس أعلم منك يا عمر.

****

كيف نخفِّف وهمَ الاكتمال من نفوسنا، ومن نفوس أبنائنا، وشبابنا وشاباتنا؟

وكيف نوجه حبَّ التملك لديهم، حتى لا يُطغيهم القليل ولا الكثير، ذلك أنَّا سمعنا ربّنا يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 96/ 6-7]؟

وكيف نبلغ مقام الشكر، ونكون من القلَّة، ولا نغفل عن «شكر المرحلة» لبلوغ الشكر التام الكامل المرجو عند الله تعالى؟

هي أسئلة ثلاثة، لا تنتظر الجواب، وإنما تستوجب العمل...

«مانيفستو»[1]
المدارس العلمية (البيان الرسمي)

ما المدارس العلمية؟

سؤال يتبادر إلى ذهن القريب والبعيد، المتعامل وغير المتعامل، المشتغل بالتربية والتعليم وغير المشتغل... وهو سؤال مشروع، ذلك أنَّ عقل الإنسان وضميره ـ ما لم يتشوَّه ـ مجبول على الوضوح، وعلى إلحاق الشيء المحسِّ المدرَك باللفظ والمصطلح والمفهوم المناسب؛ بخاصَّة إذا كان ذلك الشيء مما يعنيه، ومما يتقاطع مع مصالح حياته الفردية والجماعية...

ومَن منَّا لا يعنيه حال الأمَّة ومستقبلها، وحال الذرية وصلاحها؟

المدارس العلمية: هي سؤال، وإمكان، ومبادرة، وبذرة، ونموذج... هي قبل ذلك هجرة، ووجهة، ودعاء، وقربة، واستجابة، وسيرٌ حثيثٌ في طريق الرضا، رضا الله سبحانه...

– هي **سؤال**، ذلك أنَّ اعتقاد الجواب إعلان للنهاية، وغرور وادّعاء ممقوت؛ ولا ريب أنَّ التخلف والتبعية والجهل والفقر... وكلَّ مظاهر الذلِّ والهوان، تحتاج إلى سؤال عن السبب، والسببُ في حالنا هو «المدرسة»، فإذا صلحت صلح حال الفرد والمجتمع، وإذا فسُدت كان حالها أسوأ وأنكى؛ ولكن كيف يتمُّ ذلك؟ وبأيِّ

(1) المانيفستو أو البيان الرسمي: بالإنجليزية manifesto : هو إعلان منشور يتضمن نوايا أو دوافع أو آراء تخص ناشر البيان، وقد يصدره فرد أو مجموعة . يتقبل المانيفستو عادة الرأي السابق أو الإجماع العام، و/ أو يدعم فكرة جديدة فيها مفاهيم مطروحةٌ، لتعطي تغييراً يعتقد مصدر البيان بضرورتها.

منهج؟ وعبر أيِّ مراحل؟ وما مساحة الأثر والتأثير؟ وما هي العاقبة؟ ... كلُّ ذلك يأتي على صيغة «سؤال» أي على شاكلة «مدارس»، هي المدارس العلمية، بكلِّ أشكالها، وأسمائها، وألوانها، وأنواعها...

– هي **إمكان**، ذلك أنَّ خطاب الاستحالة، واستحالة الخطاب؛ وإعلان الإفلاس، وإفلاس الإعلان؛ وتسويد الأوجه، وأوجه التسويد؛ كلُّ ذلك بات عقيدة راسخة في كثير من السياقات؛ حتى يئس الناس من مستقبلهم ومن حاضرهم، وساورتهم الظنون حول الماضي؛ فباتوا كورق الخريف، جفَّ وخفَّ، وفار فطار، ثم داسته الأقدام، وانمحى أثره، فذهبت ريحه... وتأتي المدارس العلمية مذكِّرة بالإمكان، محاربة للاستحالة؛ مبشِّرة بغنى الأمَّة، وبياض الوجه، لو صدقت النوايا، واستجابت الجوارح والأركان.

– وهي **مبادرة**، تزَع الناسَ نحو الخير، وتدعوهم إلى التشارك في الفكر والفعل، وإلى نبذ الخنوع من أيِّ لون جاء؛ فالمبادرة هي وقود التغيير، وهي الدليل على أنَّ الجسم ـ جسمَ الفرد، أو جسم المجتمع ـ لا يزال ينبض بالحياة، ولا يزال يرتبط بأسباب الحيوات... ونحن على يقينٍ كاملٍ أنَّ جسمنا لا يحتاج إلَّا إلى بعض الحركات، حتى يستوي على سوقه، ويقوم على رجليه؛ كما كان يوماً ما قائماً قيِّماً.

– وهي **بذرة**، تحمل خصائص الرشد، وتقبل أن تدفَن ذاتها في التراب، إلى حين الانتشاء... إلى حين اهتزاز الأرض وربوِها؛ ثم تخترق حجبَ الظلام إلى ساحات النور، فتورق ثم تثمر، وتنبت من كلِّ زوج بهيج؛ وفي الإمكان نقل البذرة إلى حقول أخرى، أو إلى جغرافيات نائية، أو حتى عبر أزمنة متباينة عديدة...

– وهي **نموذج**، في التغيير الهادئ، على نوطة «أمواج القاع»، وليس على شاكلة «أمواج السطح»؛ فالثورة والانقلاب والإقصاء هي كلمات لا توجد في قاموس «نموذج الرشد»؛ والنموذج ليس هو المجموع أو الكلّ، وليس هو الأفضل أو

الأحسن، وإنما هو «نموذج» لا «النموذج» - بالنكرة لا بالتعريف -...

- وهي قبل ذلك هجرةٌ، ووجهةٌ، ودعاءٌ، وقربةٌ، واستجابةٌ، وسيرٌ حثيث في طريق الرضا، رضا الله سبحانه:

إذ ما قيمة المدارس العلمية إذا هي لم تكن هجرةً في الله، ولله، وبالله، وإلى الله؟

وما الحاجة إليها إذا لم تحقق مدلول ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 6/ 162]؟

وما ضرورة وجودها والعناء لأجلها إذا لم تدرك مغزى ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: 25/ 77]؟

وما الفائدة المرجوة منها إذا لم تنو معاني ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 2/ 186]؟

وما المبرر لوجودها أو بقائها إذا هي لم تستحضر في كلِّ آن أبعاد ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 9/ 72]؟

****

* المدارس العلمية، من يوم نشأتها، تراوحت بين محبٍّ ومبغض، مدافع ومناهض، قابل ورافض... شأن كلِّ عمل بشريٍّ ... لا حرج في ذلك... لا عتبَ.. لا لوم...

* غير أنَّ المدارس العلمية، ترفض الحبَّ العاطفيَّ، كما تشجب البغض العاطفيَّ؛ وتتقبل كلَّ دفاع أو مناهضة يقومان على دليل وحجَّة وبرهان؛ وترحِّب بكلِّ قبول أو رفض إذا كان بالجهاد والعمل واقتراح الأفضل، لا باللغو والمكاء

والتصدية... فلا مرحباً بالصفير والتصفيق؛ ذلك أنَّ أوان الهرج والمرج قد ولَّى، وحانت ساعة الحقِّ والصدق...

* ومِن ثم فإنَّ المدارس العلمية، بعد أزيدَ من خمس عشرة سنة، من يوم ولدت باسم «الثقافة الجديدة»، وبرعاية «مكتب الدراسات العلمية»؛ إلى يوم صار لها فروع في كامل تراب الوطن، بأسماء مختلفة، وإدارات مستقلَّة، وأشكال ملوَّنة، ومستويات متباينة... مِن يومها إلى يومنا، لا يحقُّ لها ـ ولنا ـ أن تعلن ـ أو نعلن ـ الانتصار، أو تغترَّ ـ أو نغترَّ ـ بالمحصول، أو تدعي ـ أو ندَّعي ـ الأفضلية على غيرها وغيرنا... فهي ـ ونحن ـ جزء من كلٍّ، قطرة من بحر، نسمة هواء من جوٍّ فسيحٍ، ذرةٌ من فضاء، حرفٌ مِن لغة...

* وإنَّ المدارس العلمية، لتعتقد أنَّ ما هو آتٍ أكبرُ مما مرَّ، وأنَّ الأهمَّ والأصعب لـمَّا يُقتحم بعدُ، وأنَّ المثابرة والديمة هي رأس مالها، وهي إيقاع مسيرها، وهي ضمان نجاتها، بحول الله تعالى... فلا قفز، ولا وطوطة، ولا سير على الوجه، ولا مشي على الأعقاب... ما دام الطريق، طريقُ الحقِّ، سالك واضح بيِّن... ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 12/ 108]، ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [هود: 11/ 112].

* والمدارس العلمية، ليست مدارس تجارية خاصَّة، تعتمد الريْع والفائدة والغنى؛ وإنما هي مؤسَّسات تسعى لذاتية التمويل، كما تجتهد في ذاتية اتباع الأسباب؛ ولا لوم عليها إذا أخطأ البعضُ الفهمَ، أو أثار آخرون شبهاً وشبهات، هي منها براء براءة الذئب من دم يوسف، أو براءة يوسف عليه السلام نفسُه، من تهمة امرأة العزيز...

ثم ليس لها، أن تبرِّر للناس، أو تشرح لهم، ما دامت نقطة ارتكازها هي «محلُّ عين الله تعالى» أين تقعُ، والله سبحانه لا تخفى عنه خافية... ولكنَّ يسرُّها أن تقول

للمرجفين، بقلب سليم: «لا عليكم»، وتردد مع نبي الله قولته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 12/ 92]... فلا حقد، ولا تبعة، ولا متابعة... ولكنه الصفح والعفو والغفران...

* المدارس العلمية، ليست بديلاً عن المدارس الرسمية، ولا هي بديل عن المدارس الحرَّة؛ وإنما هي أخت صغرى لها، تقرُّ لها بالسبق والأولوية والفضل؛ ولا تتنكَّر لجميلها، ولا تعمل على إزالتها، ولا تؤمن بما يقال عنها أو يكال لها من تهم، مهما بلغ مداها... فالمدارس الرسمية هي الوعاء الأكبر في هذا الوطن العزيز، الجزائر... والمدارس الحرة، هي الوعاء الأكبر في سياق جمعية العلماء سابقاً، ووادي ميزاب حالياً... وإذا كان أحدهما أباً، والثاني أمّاً؛ فالعلمية بنت صغرى أو ابن صغير... ينسب كلُّ الفضل لأصله... ولا حرج....

* والمدارس العلمية، باعتبارٍ، هي فرع من شجرة، بها العديد من المشاريع والمبادرات والمحاولات، وعلى رأسها معهد المناهج، ودور القرآن، والمجمع العلميُّ، والخلائف، وبيوت الطلبة، وفييكوس، ووسام العالم، وإسهام، وكتابك، وصالون القراءة، وآفاق، والمعتكَف البحثيُّ... وغيرها مما هو نبضٌ من قلب، ونفَس من رئة، دمُها وهواؤُها هو «نموذج الرشد»، لا صلة بينها إلَّا في الروح وفي المعنى، وفي كليات المنهج... أمَّا سوى ذلك، فلكلٍّ منها مسلك، ولكلٍّ منها سبيل...

* والمدارس العلمية، تحيِّي جملة من المشاريع والمؤسسات القريبة منها، والتي تعترف لها وتعرف قدرها، وتقرُّ أنَّ ثمة رحمٌ بينها وبين مؤسَّسات كثيرة، لا يسمح المجال بسردها اسماً، ولا تعيينها رسماً؛ ولكن لها الفضل، وحقُّها مصون، وأجرها على الله تعالى واقع...

ولا يجوز للمدارس العلمية أن تجحد آباء لها كثر، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: 33/ 23]؛ من علماء ورواد مباشرين وغير مباشرين، يكفي

أن يمثَّل لهم ببعض ليكونوا دليلاً على الكلِّ: الشيخ عدون، الشيخ حمو فخار، الدكتور محمد ناصر، أعضاء المجمع العلميِّ... أمَّا من مصادر المنظومة معرفيّاً وفكريّاً، فمنهم: مالك بن نبي، فتح الله كولن، علي عزت بيجوفيتش، محمد مهاتير، طارق رمضان، عمرو النامي، كارل بوبر، هوستن سميث... وغيرهم كثر... ممن لهم أثر، وبصمة، وحضور، في فكر المنظومة، ومن ثم في فكر المدارس العلمية التي هي الوجه التربوي لهذه المصادر النيرة...

وتبلّغ المدارس العلمية، بالمناسبة، تحية للعلماء الجزائريين المكرَّمين (بوسام العالم الجزائري)، الذين حركوا همم التلاميذ والأساتذة والأولياء، وكانوا لهم منارات وعلامات... بها يهتدون... وإليها يرنون... وفي فلكها يسبحون...

****

ثم ماذا؟

ثم إنَّ الأمَّة تتعرَّض لمنعرجات خطيرة كثيرة، ويحاك لها في الظلام ما يحاك، من فتن ومحن وصور للإذلال وزرع للشنآن... ولقد نجح الشيطان في بعض مهامِّه، ولا ريب... وهو بذلك فرح فخور... إلَّا أنَّ:

- حسن الظن بالله أوَّلاً،
- ثم تحريك همم الرجال والنساء ثانياً،
- وصناعة الإنسان الراشد ثالثاً...

كلُّ ذلك، بحول الله تعالى، كفيل بإحباط هذه المكائد، وجدير بإغاظة الشياطين: «**شياطين الإنس والجنِّ**» على السواء... ولا خير في فرد، أو مجتمع، أو مؤسَّسة، أو مشروع، أو فكرة، أو حركة، أو رأي، أو دينار، أو نية... لا تصبُّ دلاءها في هذا المحيط، ولا تهاجر إلى هذه الوجهة...

ولا يعنينا بعد ذلك:

هل يتحقق المراد أم لا؟ هل نصل إلى آخر الطريق أم تنقطع أنفاسنا أوان السير؟ هل نبلغ المنى أم تخيب ظنوننا؟

ولا يهمنا متى يكون النصر؟ على يدنا أو على يد أجيال ستأتي بعدنا؟ وفي أيِّ البلاد والجغرافيات يكون؟...

ذلك أنَّ غايتَنا، ورسالتَنا، وأهدافَنا، وأعمالَنا، وأفكارَنا... كلُّ ذلك يقاس بمقياس، ويوزن بميزان... لا يخطئ أبداً، إنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ [النساء: 4/ 100]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 29/ 69]... وهو قوله عليه السلام: «**فضلُ العالِمِ على العابد كفضلي على أدناكم**»، ثم قوله فداه روحي: «**إنَّ الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**»...

اللهمَّ، فاشهد...

أيها الذبيح الصاعد ... بشرى[1]

(على إثر مقتل الملاك محمد بن زكرياء، من آل ابن عمر)

ألملم أفكاري، أرتب كلماتي، أحاول عبثاً أن أكتب شيئاً، أسرُح بخيالي هنالك في الملأ القدسيِّ... أسائل الزمان والمكان، ألحُّ في المساءلة والمحاكمة؛ لكني لا أُحِر جواباً، ولا أستفيد بياناً؛ كأنَّ الكون بهت لهول ما رأى، أو لكأنَّ مَن في السموات والأرض اهتزَّت لشدَّة ما سمعت...

المكان: الحميز، عاصمة الجزائر، في منطقة تجارية آمنة، يتلاقى في جنباتها

(1) ساعات إثر الحادث الفجيع، السبت 3 جمادى الأول 1437هـ / 13 فيفري 2016.

القاصي والداني، ويؤمُّها القاصدون من كلِّ حدب وصوب؛ إمَّا ليفيدوا علماً، أو ليستنزلوا رزقاً، أو ليزوروا غبّاً...

الزمان: يومُ عطلة، وهو يوم سبتٍ، والأطفال في منازلهم يلعبون ويمرحون، متمنِّين بشغف وحلم صبيحة الأحد، ليقصِدوا مدارسَهم الحبيبة، ثم يلتقوا بمعلِّميهم ولِداتهم لقاء الأحبة للأحبَّة...

الذبيح الصاعد: محمد بن زكرياء، مثلَ نورس يسابق السحبَ الخفاف، ومثل طائر غرِّيد يملأ الكون لحناً شجيّاً، ومثل حلم جميل مرَّ مِن هنا يوماً بهيّاً... مرَّ كالبرق فما عاد... هو تلميذٌ في العام الثاني مِن «المدرسة العلمية الجديدة»، يحبُّه الجميع، وينادي باسمه الكلُّ... هو برعمٌ وديعٌ ودَّع مقعده قبل يومين، وصفَّه، وأترابه، وحتى نسمات الساحة ودَّعها، ونغمات الجرس الحزين... ودّع بهدوء وصمتٍ إلى لا عودة وإلى لا رجعة... هو لا يدري يوم غادر أنه يودِّع، وهم لا يدرون...

المجرم العتلُّ: قيل: إنَّه سكير مجنون، وقيل: إنَّه مدمن على المخدِّرات، وقيل وقيل... ولكنه الموت الزؤام (السريع الكريه) حلَّ الربوع، فتركها قفراً، وزار الحيَّ فأحاله قبراً...

بسكِّين حادَّة مبيتة ليلاً، لحِق سِرباً من أطفالٍ ترشح البراءة مِن عيونهم الغضَّة، فتغمر الكون جمالاً وجلالاً، لحقهم وهم يمرحون ويسرحون أمام منازلهم... لحقهم، وكان محمَّد الذبيح ضحيته رهن قبضته، فأجرى عليه السكين «مِن الوريد إلى الوريد»... ولم يترك له فرصة من نجاة، ولم يدع له باباً إلى حياة... لقد عجَّل قدره بقدر...

المشهد: زكرياء، الوالد، معلِّمي في اليقين، وأستاذي في الصبر... يحمِل ابنه بين يديه... والدمُ ينزف قطرات تسجّل للتاريخ ملحمة لا تُنسى... ثم يلمس الوالدُ يد ابنه، وقد غزاها البرد، فيتمتم في أذني محمَّد بكلمات علَّه يسمعها؛ ثم يغمره شعور بأنَّ

الابن قد سلَّم روحه لصاحبها وباريها... فهل مِن مغيث... لا مغيث إلَّا الله... فيقبِّله ويمسح الدمع مِن عينيه مستغفراً، لاهجا بالدعاء، وبالذكر، حامداً، محتسباً...

الله سبحانه لم يَفْدِ الوالد مِن السماء بذبح عظيم، ولا من الأرض بذبح سقيم... غير أنه فداه بما هو عند الله عظيم... فداه باليقين، ليكون في زمرة الموقنين، وليسمع بحول الله يوم اللقاء، نداء الملائكة صداحاً: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾...

العبرة: في وفد من الأحباب، ومن الجيران، ومن الخلان، ومن رواد المساجد المجاورة...

كلٌّ يستجمع الكلمات ليقول شيئاً.... مثلي تماماً؛

ثم إنهم جميعاً، يتلعثمون وهم يحضنون الوالد والجدَّ ليصبِّروهم... مثلي تماماً..

ثم هم يقزُمون ويصغُرون أمام القامة الشامخة للوالد وهو باسِم الثغر، كالملاك... مثلي تماماً..

كأني بمفدي زكريا، غنى ابن عمر زكريا... غنَّاه قبل عقود، ليكون الوالدُ الصبور هو «المختال كالمسيح الوئيد»... لا الولد الذبيحُ وحده، وكأنَّ الأب والابن هما الموصوفان بقوله مفدي:

باسمَ الثغر، كالملائك، أو ... كالطفل، يستقبل الصباح الجديدا
شامخاً أنفه، جلالاً وتيهاً ... رافعاً رأسَه، يناجي الخلودا
رافلاً في خلاخل، زغردت ... !تملأ من لحنها الفضاء البعيدا
حالماً، كالكليم، كلّمه المجد، ... فشد الحبال يبغي الصعودا
وتسامى، كالروح، في ليلة القدر، ... سلاماً، يشِعُّ في الكون عيدا

****

وننصرف، بعد مجلس تلاوة، وقد تلقينا درساً في اليقين، لو اجتمعت عوادي الزمان أن تمحوه من قلوبنا ما استطاعت، فإمَّا أن يسكن فيها عِبرة إلى يوم الدين، أو تقطَّع قلوبنا أو تمزَّق، فينتشر في كلِّ ذرة منها، لا يزول ولا يحول...

****

سلام: سلام عليكم آل ابن عمر، والداً ووالدة... جدّاً وجدّة... أعماماً وعمَّات... أخوالاً وخالات... إخوة وأخوات... هنيئاً لكم أن صرتم اليومَ قطعةً معتصَرة من روح هذه الأمَّة، وقلباً خفَّاقاً من قلبها النابض عشقاً وشوقاً... فأنتم اليوم عبرة، لنا وللأجيال من بعدنا... وأيُّ عبرة...!

طوبى لكم آل ابن عمر، أن ذكَّرتمونا أنَّ الفتن التي تأتي على يد بشر تغتال الروح والمعنى معاً، أمَّا التي يقف حيالها الناس موقنين، فتُحيي وتبعث الأمل في الربوع...

ثم طوبى لكم أن حذرتمونا من عواقب الفتن والبغضاء والشحناء والكبرياء... وقد حصدت أرواح الآلاف من إخواننا... في كلِّ أرض من أوطاننا المكلومة الجريحة...

طوبى لكم ثم طوبى...

****

وهديتي لكم ـ آل الذبيح الصاعد ـ آيةٌ وحديث وحكمة، وهل في الدنيا أغلى من آي الربِّ الحكيم، ومن حديث النبي الرحيم، ومن حكمةٍ تعتصر من الفكر القويم؟!

أمَّا الآية فقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 2/ 155-157].

وأمَّا الحديث، فهو حديث يقول فيه الله ﷻ: «**إذا ابتليتُ عبدي ببلاء في ماله أو ولده أو نفسه، فاستقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً، وأدخله الجنة بغير حساب**».

وأما الحكمة فقولهم، وكأنه حديث قدسيٌّ: «**من رضي بقدَري أرضيته على قدْري**».

طوبى لكم ثم طوبى...

إذا رجعوا إليهم...

أسمع هدير صوت الحوافر، وصهيل الفرس الشريد... من هنالك، من بعيد...

هو عائد لا محالة، ليلقي عصا الترحال زمناً، وليعانق شاهقات الجبال هنالك... إلى حين...

أكرِم به من مسافر إلى بلده مِن بلده...

أكرم به من عائدٍ... هو الطيف وغيره الأصل... هو الظل والآخَرون الشموس... هو التابع لا المتبوع...

خادم لأسياد، وسند لأمجاد... وأمل واسع لغد رحيب...

سأل سائل: كيف تصبر على الرحيل من جوار النوارس، وهي تحلِّق على جنبات البوسفور؟ فهل تتحمل لفيح البلاد، وكلُّ ركن فيها يستعر ناراً ولهيباً؟

ثم قال: والله ولو كنتُ مكانك ما رضيت عن قوام الأناضول بديلاً...

قلت: مهلاً، لا تُطِل لومي، ولا تُعرض عن عذري... أنا ما جئت هذا البلد الطيب يسبيني حسان الغواني، ولا كنت بها يوماً سائحاً يلبس نظارات سوداء، ويلتقط الصور تلو الصور... أملاً في إيقاف عجلة الزمن... مهلاً أخيَّ... فإنَّ ورائي همٌّ دفين، وأمامي شوق حزين، وبين جنباتي إيمان ويقين...

قال: عمَّ، وفيمَ، وممَّ...

قلت: همي عن حال أمتي... شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، حاضرها ومستقبلها، ظاهرها وباطنها...أمَّا الشوق ففي فجر صادق، يولد بحول الله من رحم الليل البهيم... وأمَّا الإيمان واليقين فمن مقامي الذري العاجز، إلى المقام الأوحد القادر... أرسل نبرات من سؤال إبراهيم: «ليطمئن قلبي»....

بهذه المعاني أدين، وعليها ألقى الله[1]

حين تختلط الحسابات على الناس، وحين يثور الغبار في أيِّ شأن من شؤون الحياة، وحين يجب على المرء أن يتحرى الحقَّ ويتشبث بالصدق؛ حينها فقط لا ينفع إلَّا ما يمكث في الأرض، وأما الزبد فيذهب جفاء؛ فاحرص أخي أن تكون مع النافع، وأن لا تتبخر مع الضار؛ وهذه قواعد لهذا الزمن الصعب، من صياغة الأستاذ فتح الله كولن، هدية لكلِّ محبٍّ للخير، عامل مجاهد مجتهد...

ليس للمسلم حسابات خاصة أبداً.

يجب أن يخلص المسلم للكتاب والسنة في كل الظروف.

كونوا هادئين دائماً.

افتحوا الأبواب حتى لو أغلقت أمامكم.

لا تقولوا شيئاً تندمون عليه لاحقاً.

إذا قال لكم الناس أنتم كلاب، فأوّلوا قولهم تأويلاً حسناً وقولوا بارك الله فيهم؛ لأنهم شبّهونا بمخلوق خلقه الله.

لا تنسوا أن التوتر عابر سيمضي.

لا تتركوا أي كلمة أو فعل ستندمون عليه اليوم أو غداً في الدنيا والآخرة.

لا تنسوا أن الجدل والجدال القولي والرد الكلامي لا يتوافق مع مرضاة الله تعالى.

---

(1) عن الأستاذ فتح الله كولن.

اصبروا واعتمدوا على الصبر.

أنتم أبناء العمل الإيجابي فكونوا إيجابيين في كلامكم ومواقفكم.

لا يوجد في قلوبنا كراهية لأحد.

إذا كان هناك انتهاكات لحقوق الله فهذه ليست من صلاحياتنا أن نعفو فيها.

لا تنسوا أن ابن آدَم لا يخلو من الهم.

إذا وُجّهت إليكم افتراءات ردوا عليها في حدود القانون وفي حدود رضا الله.

إياكم أن تكون لغتكم لغة افتراء.

حين تنجلي الحقيقة وينكشف الغبار يجب أن تجدوا أنفسكم إلى جوار الحقيقة والحق.

عواتب الفتن
(بيان لمَن ألقى السَّمعَ وهو شهيد)

يركِّز الناس أوان الفتنة على الآنيِّ والظرفيِّ، وعلى المستعجلات، ويُعملون عقولهم وعواطفهم في التفاعل مع المستجدات، كلٌّ حسب ملكاتِه ومسؤولياته وقناعاته، وكلٌّ وفق جدِّه أو هزله، صدقه أو كذبه، سلامة ضميره أو فساد طبعه؛ وهذا الانفعال قد يكون مقبولاً لدى الكثير ممن اكتوى بنار الفتنة، وناله بعضٌ من حرِّها وقرِّها، فأنى للإنسان أن يصبر على الظلم، ويقيم على الضيم، ويصمت أمام الفساد والخراب؟

سأحاول في هذا المقال أن أعدِّد جملة من العواقب متوسِّطة المدى، وبعيدة المدى، للفتن عموماً، والتي بدأت تظهر أعراضها الخطيرة على الأفراد، وعلى نسيج المجتمع، وعلى جغرافية الأجساد والعقول والقلوب، لعلَّ التفكيرَ في هذه العواقب يساهم في التفكير الجادِّ لإيقاف اللهيب، وإطفاء الحريق؛ وإلَّا فإنَّ من غفل العواقب أساء التصرف والفعل، ومن جهل المستقبل حمل البلاد والعباد إلى الدمار والخراب:

التعميم في الحكم وخلط الأوراق:

بسبب الفتنة، وبسبب ضعف المدارك، والميل إلى الاختزال، والتسرع في الحكم عند عامَّة الناس؛ سنشهد الكثير من الأحكام التعميميَّة، وسنلاحظ نسبة كلِّ فعل يصدر من أيِّ فرد في أيِّ جهة كانت، ينُسب أوتوماتيكيّاً للجهة التي ينتمي

إليها؛ وما دامت جميع المجتمعات تتكوَّن من صالحين وفاسدين، فإنَّ إيجاد المثال الذي يصلح باباً للحكم والتعميم على المجموع، سوف لن يصعب على أحدٍ، بخاصَّة مع استفحال الجرأة في وسائل التواصل الاجتماعي، وبعض وسائل الإعلام الخفيفة والثقيلة. والحال أنَّ القاعدة القرآنية تقرِّر أنه: ﴿نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: 53/ 38].

الآثار الوخيمة على الأطفال والصغار:

أوَّل ضحية أوان الفتنة هم «الأطفال»، ذلك أنهم في هذه الآونة متفرِّجون، خائفون، قلقون، مضطربون، حائرون، سائلون... وبعضهم متضرِّرون... وأنهم سوف يضعون كلَّ القناعات في المحكِّ، ويبنون صورة جديدة للواقع وللمستقبل من منطلق الدمار والخراب؛ فتنمو بذلك في نفوسهم جميع أنواع العُقد: الحقد، والتصنيف، والانتقام، والبغض، والشكُّ في القيَم والمبادئ والثوابت، وحبُّ البعيد وبغض القريب... هذا إضافة إلى التفكير الجديِّ في المغادرة، إلى أيِّ وجهة كانت (وانظر إلى هجرة الشباب الجزائري، وإلى ظاهرة الحراقة، حين فتنة التسعينيات، وإلى اليوم).

تفكُّك النسيج الاجتماعي:

لا شكَّ أنَّ شبكة العلاقات الاجتماعية هي أوَّل ما يولد حين يبنى مجتمع، وحين تؤسس حضارة؛ وهي أوَّل ما يدمَّر ويخرَّب أوان الفتن؛ فلِطول التفكير في الآني يغفل الناس أنَّ العلاقات الداخلية، لأسباب منها: خيبة التوقع في الأفراد والمؤسَّسات، وتعارض وجهات النظر والتوجُّهات، وغياب الحوار والتداول، وانفتاح المجتمع على جميع الآراء بخاصَّة المتطرفة منها... كلُّ ذلك يهدِّد شبكة العلاقات الاجتماعية بالشرخ والترهل والنسف.

الهجرة الاختيارية والهجرية القهرية:

حين تشتعل ألسنة اللهيب في بيت، فإنَّ أوَّل ردَّة فعل معقولة هي البحث عن مخرج وعن مهرب، وعن مكان آمن خارج العمارة والبناية، ليأوي المرءُ إليها، هو ومن استطاع أن ينقذ ممن معه؛ وهذه الحال صادقة على المدن وعلى الدول؛ ولذا فإنَّ الهجرة إذا لم يتعجَّل الشفاء، ستكون على نوعين: هجرة اختيارية، وهجرة قهرية. أمَّا الاختيارية فقد بدأت منذ أمدٍ بعيد، وأمَّا القهرية فهي في مراحلها الأولى؛ إذ كلُّ من يحرق له متجر أو مصنع، يلغي اعتماده، ويفتح بديلاً عنه في أيِّ مكان خارج البلد... وكلُّ من تحرق داره، يفكِّر في مأوى آمنٍ خارج منطقة الخطر، وفي الغالب خارج حدود موطن الفتنة... وكلُّ من يريد حماية ابنه أو ابنته يجد له سبيلاً خارج البلد، لينشأ هنالك في بيئة سليمة، وفي جوٍّ آمن... وبهذا ستكثُر الهجرة، مِن جميع الأطراف، بلا استثناء؛ مما يرشِّح موطن الفتنة أن يتحوَّل إلى موطن أشباح. ناهيك عن قدوم مواطنين جدداً ليستوطنوا فيها، فهذا يبيت من رابع المستحيلات.

انتقال ألسنة اللهب إلى خارج موطن الفتنة:

المكوِّنات التي تحوَّلت إلى حرب فتَّاكة في موطن الفتنة يكون لها تمثُّلات خارجه، فالمكوِّن المذهبي، والمكوِّن العرقي، هما اللذان يتمُّ التلاعب بهما غالباً، مِن خلال حملات التكفير، أو من خلال دعاوى العصبية؛ وبالتالي فإنَّ باقي مناطق الوطن، بل وحتى خارج الوطن، سيُعمَل على إقحامها في الفتنة. ولا ريب أنَّ النار ليس لها منطقٌ وإنما هي تتحرك حيث الرياح هبَّت، وتعيث فسادا حيث تجد التبن والغاز ومادة الاحتراق.

الإلف والتبلُّد، وطول عمر الفتنة:

مَن كان يظن أنَّ فتنة العراق سيبلغ عمرها من بداية التسعينيات إلى اليوم، إذا لم نحسب ما قبلها؛ ما يربو على ثلث القرن من الزمان؟ ومن كان يظن أنَّ فتنة سورية ستطوي الأعوام عاماً بعد عام، حتى تصير مألوفة في قلب وعقل كلِّ الناس؛ بل تصبح خبراً يوميّاً مع حزمة الأخبار الدولية؟ كذلك الفتنة في كل مكان، لها اليوم طابع «غيرِ المتوقع»، ولها أثر في القلوب؛ ولكنها إذا طالت، فسيألفها الناس؛ ولن نعدم يومها اهتماماً للناس بمباراة دولية لكرة القدم، أكثر من اهتمامهم بمقتل العشرات. ولذا فإنَّ الاستعجال في السِّلم مهما كان ثمنه أقلُّ ضرراً وتكلفة من التسويف والتماطل؛ ولننظر إلى العامين الماضيين كم كان لهما من أثر وخيم اليومَ على الوضع، وكيف صارا خبراً يزيد الأمر تعقيداً واستحالة.

الخسران المبين، خسران الآخرة:

لا شكَّ أنَّ الفتن بعامة تزلزل الكثيرين، وتفرز فريقين: فريق يربح رضا الله تعالى، وفريق يربح سخطه سبحانه؛ ذلك أنَّ المتخاصمين اليومَ سيلتقون غداً بين يدي الله تعالى، وسيقتصُّ من كلٍّ لكلٍّ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 39/31]. ويا ويح من كانت الفتنة سبباً في شقائه الأبدي: قاتل النفس بغير حقٍّ، شاهد الزور، المفسد في الأرض، الحاكم بالجور، المتعدِّي على الحرمات، آكل السحت، ناشر الفتنة، المزور للحقِّ، الخائن للعهد ... وغيرهم كثير ممن يُحرَم حبَّ الله ومعيته ونصرته.

هذه جملة من العواقب الوخيمة التي تستتبع الفتن؛ لعلَّ النظر فيها بعين بصيرة، والتفكير في عواقب أخرى يعيد العقل إلى مكانه، ويستعجل الفرج والبحث عن المخرج والمنفذ قريباً، والنصيحة لله وللرسول ولعامة المسلمين وخاصتهم.

دعوة صريحة لكلِّ خيِّر:

مهما كان انتماؤك، ومهما كانت قناعاتك، أخي لا تسكت للباطل وأهله، واجتهد في نصرة الحقِّ وأهله، وكن درعاً واقياً للسلم، لا سيفاً فتّاكاً بيد الحرب والفساد والظلم؛ واعلم أنَّ الفتنة فرصة لك لتقترب من الله الكريم، ولتنال حبَّه سبحانه، وذلك هو الفوز المبين.

بغٍ بغٍ، هي ذي ريح الجنّة تلوح في الأفق

طرقتُ بابه، ففتح لي بلا تردُّد.

ولجتُ رحابه، فاستقبلني بوجه طلق، وكلام طيب، وروح فياض. قال لي: مرحباً بك مرَّة أخرى، ها قد عدتَ لزيارتي. لكن، أين صديقك فلان، وجارك فلان، وتِربك فلان... لا أراهم؟

قلت: كلُّهم قد لقي حتفه، ووافته المنية، وعادوا خبراً بعد أثر، وذِكراً بعد عيان.

قال: رحمهم الله جميعاً، وهداك وهدى العقلاء الأحياء أمثالك أن يتيقنوا أنهم ليسوا للقاعدة، ولا لسنن الكون استثناءً.

قلت: آمين.

قال، وهو يصوِّب عينيه إلى عينيَّ: ضيفي العزيز، لكَ أن تصول وتجول بين جنبات قصري، كما تشاء؛ ومن واجبك أن تزوره غرفة غرفة، فتنعَم بالخيرات، وتطعم الثمرات، وتتنشق الزهرات، وتنال النفحات... بلا قيد ولا شرط.

قلت: ما هذا الكرم؟! لم يسبق لي يوماً أن دخلتُ بيتَ أحد، ففتح لي جميع أركان بيته، وألزمَني بالتمتع بجميع الموجودات فيه. بل، أنا - كذلك - لم أفعل ذلك يوماً، مع أيِّ ضيف من ضيوفي.

قال، مبتسماً والنور يرشح من محيَّاه: هذا طبعي، وهذه صفتي، وهذه خلقتي، ولهذا سخِّرتُ؛ فأنا الكريم، أفرح وأسر، وأجذل وأبهج، لجميع من يزورني، ولا أسأل عن شأنه وشأوه، ولا عن غناه وفقره، ولا عن صحَّته ومرضه، ولا عن عزِّه

بين قومه أو ذلِّه... فكلٌّ من لاذ بحصني كان فيه أهلاً وسهلاً، واستوى مع غيره من الضيوف في الحقوق والواجبات والمكرُمات.

قلت: وهذه عجيبة أخرى! فمِن عادتنا، نحن البشر، أن نفرِّق بين ضيوفنا، فليس الرئيس، والوزير، والغني، وصاحب الفضل، كالعاميِّ، والبسيط، والفقير، ومَن لا فضل له علينا!

قال: حكمكم خلاف حكمي، فاعتبروا.

قلت: وماذا عمَّن يعمد إلى إفساد جمالك، فيجرح زخارف بيتك، ويكسر الزجاج، ويلقي بالقمامات على الفرش الأنيقة والسجاد الوثير؟

قال: حتى هؤلاء أستقبلهم وأحتضنهم، على أملٍ أن يتوبوا ويؤوبوا إلى رشدهم، فإن لم يكن ذلك عند أوَّل غرفة مِن غرفي، فعند آخرها، وإن لم يكن عند هذه الزيارة، ففي التي تليها إذا عادوا... ومن يدري؟

قلت: وما بال من يمرُّون أمام بابك، فيديرون ظهورهم، وهم يسمعون خدَمَك، مبثوثين في الشوارع، ينادون الناس إلى قصرك؛ ثم هُم يجعلون أصابعهم في آذانهم، كي لا يسمعوا صوت المضيف والخدم؛ ثم هم بعد ذلك، يدفعون أموالاً طائلة في كراء بيوت من القصدير، وينفقون ما لديهم للسكن في خيم وسخة مهترئة، كل ما فيها تمجُّه القلوب والعيون والأسماع والأبصار...؟

قال: هؤلاء ـ من كرمي ـ أَبكيهم؛ وأدعو الله ـ إذ هم لم يشاؤوا سماع صوتي ـ أن يرشدهم؛ حتى يميِّزوا بين الخير والشر، بين السعادة والشقاء، بين الدنيا والعقبى...

قلت: وماذا عني أنا؟ هل يا ترى أحسنتُ آداب الضيافة في الزيارات الخوالي؟ وهل كنت عند حسن ظنك بي؟

قال: ليس تقدير ذلك بيدي... إنه بيدك أنت، وهو قبل ذلك في دهاليز قلبك وضميرك وعقلك؛ أنت وحدَك تعرف ذلك، ولا أحد سواك... ومِن حكمةٍ أنَّ الله تعالى، العليم بخفايا النفوس، أوْكل إليك ملائكةً كراماً كاتبين، يسجِّلون ما يفور داخلك، وما يثور على جوارحك، صفتهم الأولى أنهم ثقات أمناءُ كرام.

قلت مهللاً: فهمتُ؛ وبم تنصحني إذن؟

قال:

اصدُق نفسك ولا تكذبها؛ هذه واحدة.

جاهد نفسك، وصابر واصطبر؛ وهذه الثانية.

واعمل على أن تكون زيارتك هذه أفضل من التي خلت؛ وهذه الثالثة.

أمَّا الرابعة؛ فهي أن لا تنسى أنك مهما هنئتَ بين جنباتي، ستخرج يوماً ما مِن قصري، وأنك قد لا تعود أبد الأمد، فذلك أجلُك، وأنَّ هنالك قصراً لو قِسْت كرَمي إلى كرمه، لكان بمثابة الصفر إلى اللانهاية، وبمثابة اللاشيء إلى كلِّ شيء... إنه رحاب الله، ورضاه، وجنَّته... فهذا القصر لو حظيت به، ويا سعد من تكحَّلت عينه به، فلن تخرج منه أبداً، وهذه هي النعمة العظمى؛ وإن حُرمته لا قدَّر الله، فلن تجد ريحه أبداً، وهذه هي المحنة الكبرى.

قلت: إذن، سأنظر بشوق تلك الساعة، وأنتظر بأمل ذاك الحظ العظيم.

قال، والصرامة تجلل جبينه: مهلاً، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: 41/ 35] ابتداء، ثم ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 41/ 35] تباعاً؛ ولذا أنصحك أن لا تنتظر، بل اعمل وجاهد واجتهد، فهذا السبيل الوحيد إلى ذلكم المقام المحمود؛ ألم يقل العزيز الجليل لنبيه الكريم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: 17/ 79]؟

قلت: نعم، هي هكذا في كتابنا الكريم.

قال: لكن، لا تفصِلوا الآية عن سياقها، وإنما هذه نتيجة لأمر هو: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ [الإسراء: 17/ 79]، هذا عنوان الطاعة، ودليل العبادة، وصورة العمل، ومنهج الصدق؛ هي قاعدة ذهبية واحدة:

رحمة الله واسعة، ووعده صادق، ومغفرته شاملة؛ لكن هي كذلك ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه: 20/ 82].

****

التفَّني الصمت والوجوم، فقلتُ في نفسي لنفسي:

هو موسم الحصاد فاحصدي، هو موسم الجهاد فجاهدي، هو موسم الاجتهاد فاجتهدي، هو موسم الربح فاربحي؛ يا نفسُ لا تكسلي، ولا تغفلي، ولا تظلمي، ولا تخنسي...

وفجأة، تخيَّلت رسول الرحمة يقول لي ما قاله لعمير بن الحمام عليه شآبيب الرحمة:

«**والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**».

وردَّدت، مع الصحابي الجليل مقالته الجليلة، وفي يده تمرات يأكلهن:

«**بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل**»؟.

وما الفرق بيني وبين عميرٍ، إلَّا أنَّ أعدائي اليوم شتى، وأنواعٌ، وصورٌ، وأشكالٌ... كلُّهم يصوِّبون رماحهم وجهتي، ليُردُوني قتيلاً: الإعلام الفاسد، والتعليم الجاهل، والسياسة الفاجرة، والاقتصاد المرابي، وأعداء الإسلام الذين أخرجونا من ديارنا،

وقاتلونا، وظاهروا على قتالنا... وغير ذلك كثير...

والفرق الآخر بيني وبينه، هو أنه صحابيٌّ، تربَّى وترعرع ونشأ بين أحضان أعظم معلِّم، وأكمل خلق الله، وأصفاهم؛ أمَّا أنا، فطالبُ علم، لا أزال أدبُّ دبيباً، وأبحث عن المعنى... في عالم غاب فيه المعنى، ومات فيه المعلِّم، وتمرَّد فيه المتعلِّم؛ إلَّا ما رحم ربي...

لأجل كل ذلك سأعمل جاهداً، وأقاتل النفس الجموح حتى تلين، وما التوفيق والنصر إلَّا من عند الله، فالحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلَّا على الظالمين.

****

سلاماً يا سيدي، يا رمضان، يا أبرَّ من برَّ، ويا أكرم من أكرم...

فرصة أخرى، وبركات تترى

هو الضيفُ الكريم يدق أبواب قلوبنا الموصدة دقّاً خفيفاً، ويوقظ المشاعر الحية الغائرة في أعماق بحار أفئدتنا؛ ليغرز فوق هامات شموسنا راية الدين العظيم، وهي ترفرف اليوم خفَّاقةً عليها اسمُ الله، واسمُ رسول الله، مِدادها الميثاقُ الغليظ الذي يربطنا بربنا وبنبينا: «وأنَّ ما جاء به حقٌّ من عند الله».

رمضانُ ناموسُ الحُسنِ، وقانون اليسر، وبِساط الأنس، وجناح السعد، ودليل الوَجد، وعنوان التحرر من أوضار الأرض والتلبس بجمال السماء؛ فيه يصير العبد إماماً على الملائكة، وبين ثناياه يتحوَّل الناسك قائداً لجحافل الكتبة البررة، يخدمونه ـ وهو الصائم الصابر ـ غدوّاً ورواحاً، ثم يفرشون له الطرقات «أهلاً وسهلاً» بالعشي والإبكار؛ حتى ليختلط عليه الأمر، فلا يدري أهو من سكَّان هذه المعمورة ومن عُمار هذه الأوحال، أم أنه صار واحداً من أولئك المحتفى بهم في الملأ الأعلى، المباهَى بجمالهم وجلالهم من فوق سبع سموات...

لا يدري؟

أخي الذي طال فقدي له، وطال وجدي إليه،

صديقي الذي أذكره حين أهيم، وأذكره حين أهفو،

حبيبي الذي تقطَّر دم الجوى من مهجتي، فداءً لمحياه،

إلى أولئكم جميعا، أودِع ظرفاً صغيراً أمواجَ المحيطات، وأحمِّل كلمات رجراجة أعتى الأعاصير، وأوقظ في العالم ضميره ليشهد على ما أقول... ثم أقول:

أحبك والله في الله، وأستميحك عذراً، وأسألك صفحك عني وحلمك بي، وإني والله أحمل حيالك قلباً نابضاً بعرق الثلج، أبيض ناصعاً ناصحاً لا يذكرك إلا بخير، ولا يشير إليك إلا ببر، وإنه ليحلم أن يلقاك مرتين:

مرَّة، يكون فيها فوك خلوفاً عطراً طيباً،

ومرَّة أخرى، وقد تجمَّلت وتعطَّرت ليوم العيد ...

ثم هو يسأل المولى القدير أن يريه هامتك عليَّةً، ويُشهده خُيلاءك بين الأشهاد، وأنت تسَّارع إلى الجنان مِن باب الريان، لا تألو على أحد، تردِّد مع الكون أنشودته الأبدية:

رمضان مبارك، وصوم متقبَّل، وشأن عند الله عظيم... ومقام في الفردوس كريم..

أخي، صديقي، حبيبي...

هي فرصة أخرى، وهي بركات تترى، تستدعيك لتتأمَّل قول الله تعالى بقلب فياض، وعقل وقّاد، ولسان ذكَّار، وأركان موّارة فوّارة، عمالة صبارة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: 3/ 133]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 23/ 61]...

جعلك الله منهم، وجعلني ممن معكم...

من الداعي لكم والمستدعي.

عيد بطعم «حسبُنا اللهَ ونِعم الوكيل»

أكفكف الدمع عن أجفاني، أطارد الهواجس من خيالي، ألملم جراحاتي وأحزاني، أستجمع قواي فأشمر عن ثوبي؛ لأقف على رجليَّ منتصباً... ثم ألعن الشياطين مِن حولي، وأستدعي مدد الملائكة الكرام عن يميني وشمالي؛ أحاول مراراً وتكراراً فهم ما يحيط بي، وأعود بالذاكرة إلى سابق أيامي، ثم أرمي بفكري وجهة المستقبل القريب والبعيد لأرسم خطَّ سيري، وأعيدَ ترتيب أهدافي وأولوياتي...

استفقت سحرَ هذا اليوم، يوم الجمعة المبارَك، وتذكَّرت أنَّ اليوم يوم عيد، فشرعتُ لِتوِّي في التكبير: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً»... وإذا بصوتي المبحوح يخالِط حُزناً دفيناً بين أحشائي، ذلكم الحزن الذي نِمت به ونِمت معه، حتى صار إلفي وقريني وأنيس أحشائي...

جرَّبتُ العيد بألفِ طعمٍ ولونٍ: بطعم الحمد، والشكر، والصبر، والرجاء، والغربة، والانتظار، والألم، والسرور، والاجتماع، والتفكير، والنظر، والفقد والوجد، والضعف والاقتدار ... ومع كلِّ طعم أستذكر فضل ربي، ورفقة كلِّ لون أنهي المشهد بذكر ربي... راضيّاً مرضيّاً... لا يغادر عقلي وضميري حديثُ أسوتي وحبيبي ﷺ: «عجبتُ لأمر المؤمن، إنَّ أمره كلَّه خير...»... بل إنَّ كلام ربي القدسي يهزُّ كياني، ويجلجل فؤادي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء»..

اللهمَّ أحيني على الإيمان، ورضني بالإحسان، وأحسن ظني فيك، فإني لا أظنُّ بك إلَّا خيراً...

أسائل نفسي وأعذِّبها، وأنا أرمق بعين الوفاء مَن حولي مِن إخوتي الأحبَّة في جامع حيِّي بالعاصمة، أوان الخطبة، وحين التغافر، فأقول وأدعو:

تُرى متى يفرح المفتونون (الخيِّرون منهم جميعاً) بِعيدٍ، مثل عيد إخوانهم في الدين والوطن؟

يا ربِّ، فرِّج عن أهلي وعن إخوتي المبتلين في العراق وسورية واليمن... وفي غردايه، وباقي بلاد المسلمين، وأعِد لحمة الدين إلى نسيجهم، يا ربِّ ليِّن قلوب بعضهم على بعض، حتى يعودوا لسالف الودِّ والحبِّ بينهم؟

يا ربِّ كن شفاءً وبلسماً لمن رزئ في والد أو زوج أو أخ، ظلماً وعدواناً، مِن المستضعفين في كلِّ مكان؛ (بلا استثناء)... يا ربِّ وصبِّرهم، وقد اتخذ البعض مُصابهم حقلاً للمناورات السخيفة، الإعلامية والسياسوية والديماغوجية، فهم (جميعاً) على حزن وضيم تئنُّ من ثقله الجبال الرواسي.

يا الله، أرسل لنا رحمة من عندك، سَحاءً رَخاءً، هَطلاً وابلاً؛ تعيد لنا ما ضاع، وتضمِّد الجراحات، وتكشف المؤامرات، وتحكِّم العقل والضمير في الخواطر والأقوال والتحرُّكات.... آمين آمين...

****

وتنتهي الخطبة، ثم أقوم فأعانق إخوة لي في الدين والوطن، وألعن مَن أرادها فتنة مذهبية، أو فتنة عرقية؛ ذلك أنَّ كلَّ مَن حولي في الجامع هم من كلِّ مذهب ومن كلِّ عرق، لا فرق بيننا، فهم أحبتي وإخوتي... وسيظلُّون كذلك، رغم العوادي والأعادي...

ثم أنصرف إلى بيتي وأهلي، وكلِّي أمل ورجاء وثقة في إيماني وإسلامي، وقرآني وسنة نبيئي، وفوق ذلك، كلِّي لهج ودعاءٌ وجأرٌ إلى ربي، الرحيم الحكيم الحليم:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: 25/ 77].

ثم أحسُّ أني بطعم «حسبنا الله ونعم الوكيل»، صرت أقرب من ذي قبل إلى ربي الحنان، وأكثر رضا وطمأنينة... ويقيناً... فأولد من جديد، رغم كلِّ الظروف؛ ذلك أنَّ «من وجد الله وجد كلَّ شيء، ومن فقد الله فقد كلَّ شيء».....

اللهمَّ وجدتك، ووجدت حلاوة الإيمان بك، فلا تحرمني حبَّك ومعيتك، ونصرك ونصرتك؛ واحفظ بلدي، وسائر بلاد المسلمين، من كلِّ سوء وبلاء... يا أكرم الأكرمين، ويا إله المستضعفين المتضرعين، والمخبتين الموقنين...

آمين يا ربَّ العالمين.

كلُّ عام وضمائرنا بخير

مع اقتراب نهاية العام القديم وتصرُّمه، وبداية العام الجديد وتبخترِه؛ تتنافس المؤسسات في إصدار التقارير السياسية والاقتصادية والاجتماعية والرياضية، ويعلو صوت الإحصائيات والأرقام من قاعات البثّ ومراكز البحث، فتنتفخ التحاليل بشتى أشكالها وألوانها ودلالاتها. حينها يكثر الكذب والافتراء، وتنشط سوق الأوهام والأحلام...

لكن، لو التفتنا بُرهة إلى الجهة الخلفية من المسرح،

ولو أطللنا لحظة على الشوارع الجانبية للمدن،

ولو سرحنا أرجلنا ـ أبعد من المعتاد ـ إلى الأحياء القصديرية، وأحياء الصفائح، ومآوي المشردين،

ولو تكلَّفنا العيش ـ ليوم أو يومين ـ مع المهجَّرين من بيوتهم، وإلى جوار الفارّين من ويلات الحرب والدمار...

ثم لو نزلنا ضيوفاً على المستشفيات والمطاعم والمقاهي؛ لا من جهة المدخل الرئيس، لكن من الأبواب الخلفية، حيث المطابخ، والمغاسل، ومخازن المؤن، وجحور البشر من كلِّ جنس ولون...

لو كان لنا قلب ينبض، وضمير يحبض؛ لفكَّرنا في حياة البؤس التي تنخر عظام الواقفين على الرصيف، يمدُّون اليد فرادى، أو إلى جوار أبنائهم وزوجاتهم، نحوي ونحوك ونحو المارة من كلِّ شاكلة وشكل؛ يمدُّون اليد إلينا ونحن داخل

سيارات فارهة، أو على متن حافلات مكيَّفة... يمدُّون اليد لعلَّهم يحصلون منا على «دينار»، أو «رغيف»، أو حتى على «كلمة طيِّبة» تسكِّن بعضاً من أوجاعهم وأحزانهم وآهاتهم...

لو كان لنا وجدان هفهاف، وفؤاد رفراف؛ لتذكرنا الجائع حين نشبع، والعطشان حين نرتوي، والسهران حين نحلُم، والمحتاج حين نعف، والبردان حين ندفأ، والدائن حين نحسِب آلافنا، والمطلَّق حين نأوي إلى بيوتنا، والسجين حين نسرح في سربنا، والمغتاظ حين نبتسم لمن حولنا، والغريب عن الأوطان حين نمرح في حينا، والمجترح السيئات حين نبلل بالدموع سجادنا...

آه، لو كان لنا قلب وضمير، ووجدان وفؤاد... لكنا ملائكة، أو لصافحتنا الملائكة...

ثم واهٍ، لو التفتنا، ولو نزلنا، ولو فكرنا؛ لفهمنا أنَّ للحضارة وجهاً آخر، وأنَّ للعمارة باباً آخر، وأنَّ للرخاء ضريبة أخرى، وأنَّ للتكالب على المادة ضحايا آخرين...

نعم، قد لا نرى أشباح المدينة والمدنية، وقد لا نُدرجهم في قائمة البورصة؛ لكنهم هنالك، هم بشر، مثلنا، تماماً مثلنا؛ لهم إحساس قد يفوق إحساسنا، ولهم مشاعر وعواطف قد تغبِّر على أحاسيسنا الباردة، وتطفح على عواطفنا المرتجفة...

هل فكَّرت أخي، ولو مرَّة، أن تقف إلى جوار شابٍّ «من مالي»، أو حتى متسوِّلة من «سورية»، وتسأله أو تسألها، وتحاوره أو تحاورها، بالكلمة الطيِّبة، والقولِ الحسن؛ ثم تربِّت على كتفه، وتطمئِنه، وتصبِّره، وتمدَّه ببعض ما آتاك الله من مال، أو بالقليل مما تفضَّل به عليك الله من متاع؟

حين يلبس عامل ليليٌّ بدلته الزرقاء، وحين يقف مُتسَوّل على حافَّة الطريق، وحين يُطحَن رجل ـ أو امرأة ـ في مغسلة الصُّحون، وحين ينزل رجل دهاليز المياه

القذرة لينظفها، وحين تتطاير شظايا المعادن على وجوه عمَّال المناجم... حينها لن يتحول من إنسان إلى «لا إنسان»، ولن يكون آلة ضمن الآلات، ولن يفقد أحلامه وإحساسه بما حوله وبمن حوله، ولن تمرّ عليه النظرات والكلمات مرور الكرام؛ وإنما سيبقى إنساناً، بشَراً، كريماً، ذا شأن واعتبار... فهلا وعينا؟

مع نهاية العام، وعقاربُ الساعة تسَّارع نحو مصيرها، نتحوَّل سويّاً وِجهة القلوب المعذَّبة، ونجتهد مليّاً في مسح الدموع عن أعين المحرومين، ونغالب جفاءَنا مرة ـ بل مرات ـ لنحسَّ ما يحسُّه الناس من قرص البرد، ومن وطء الجوع، ومن فرط الألم، ومن ندبات الانكسار والانحسار...

نقف جميعاً إلى جوار مَن تركه قطار الحياة والمدنية واقفاً، ومرَّ أمامه سريعاً، بلا رحمة، بلا شفقة،

نقف جميعاً إلى جانب ضحايا موت الفكر لدينا، واحتضار العقل في مذبح الزمن الصعب...

مع نهاية العام، نتذكر قول المصطفى ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»...

والمسكنة لا تعني الفقد، ولا الفقر، ولا الحاجة... إذ لا يُسأل الله تعالى بذلك؛ ولكنها تعني الإحساس بالحاجة إلى الله، وتذلل القلب لله، وحياة الضمير في أرض الله...

المسكنة تعني أن نكون مع الحقِّ ضمن الخلق، أن نأكل الطعام ونمشي في الأسواق، أن لا تعدو أعيننا عن الفقراء والمساكين، ممن يريد وجه الله، وقد فقد وجه الناس من أمد بعيد...

فهل نحن كذلك؟

القسم الخامس

نحن، والآخر

شمعة من الغرب، وبيانٌ قد يوقظ الشرق

موقفنا من الغرب: بين القبول والرفض، بين الانبهار والمشادَّة في حكم الدار؛ هو مِن بين أبرز إشكالات العالم الإسلاميِّ الحديث، ما بعد النهضة الأوروبية الصناعية بخاصَّة، والسياسية بصورة أوضح وبشكل أخصّ... من عبد الرحمن الجبَرتي الذي عاصر الحملة الفرنسية لمصر، وكتب (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)؛ إلى سيد قطب الذي ابتُعث إلى أمريكا لعامين، وكتب بعد عودته مؤلَّفه (أمريكا التي رأيت)، ومما قال فيه: «شعب يبلغ في عالم العلم والعمل قمَّة النمو والارتقاء، بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائيٌّ، لم يفارق مدارج البشرية الأولى، بل أقلَّ من بدائيٍّ في بعض نواحي الشعور والسلوك».

ويقف ما بين ذلك رفاعة الطهطاوي الذي دوَّن ملخَّص أفكاره عن الغرب في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، وقد لاحظ الطهطاوي جملة من الملاحظات، منها:

تفوّق الإفرنج في الفنون والصنائع؛ متحسّراً لتأخر ممالك الإسلام وتخلّف مدنهم.

فضائل الإفرنج الأخلاقية: فهُم محبُّون للعمل، بعيدون عن الإسراف، متفانون في حبِّ أوطانهم، تعرف عامَّتهم القراءة والكتابة، يتميَّزون بذكاء العقل ودقة الفهم.

عندهم «جورنالات» نافعة للتجارة ومسارح للرقص، ومكانة النساء مرموقة لديهم.

ولا يغيب موقف طه حسين، الابن المدلَّل لباريس وللثقافة الغربية؛ الذي ألَّف كتابه (أديب)، «ووصف الحياة في مصر كالحياة في أعماق الهرم، حيث يحسُّ الإنسان بالاختناق، ويخيَّل إليه أنَّ نقل ذلك البناء العظيم يكاد يهلكه، بينما الحياة في باريس كالحياة خارج الهرم حيث الهواء الطلق الخفيف».

أمّا بطرس البستاني فقد كتب (نفير سورية)، وحذَّر من تقليد الغرب في تمدُّنه الناقص.

ما بين هذه المساحات المتباعدة، والجزر المتنافرة، والمواقف المتباينة، والأحكام المتعارضة، والرؤى المتشاجرة؛ يرتسم خيطٌ ذهبيٌّ، استطاع أن يؤسِّس لنموذج معرفيٍّ حضاريٍّ قائم على الأصول، معتبر لحيثيات العصر ولمعنى الوصول، مدركاً لمتطلبات الحضارة والمدنيَّة؛ وأبرز رواد هذا الخيط المفكِّرون المخضرَمون، الذين عرفوا الشرق وعرفوا الغرب؛ بل وعاينوا كلا السياقين، فلم يقعوا في فخِّ التهوين ولا التهويل، ولم يصابوا بعمى القرب ولا بتشوُّه البعد؛ فكانوا منصفين، معتدلين، مقسطين؛ وهم بالخصوص: محمد إقبال، ومالك بن نبي، وعلي عزت بيجوفيتش، وعبد الوهاب المسيري، وفتح الله كولن.

هؤلاء الخمسة يكوِّنون رؤوس النجمة الخماسية التي تتوسَّط الهلال، لكلٍّ منهم ظروفه وخصائصه وحيثياته؛ بل لكلٍّ منهم «وعاؤه الحضاريُّ»، و«نسيجه الحضاريُّ»؛ غير أنَّ خمستَهم عاشوا في الغرب وفي الشرق على السواء؛ ويلخِّص بُعدهم الكونيَّ عنوان كتاب الرئيس علي عزت بيجوفيتش: (الإسلام بين الشرق والغرب). ثم يقف مالك بن نبي علامة فارقةً في معالجة علاقة المستعمِر بالمستعمَر، وفي هندسة (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة)، ثم في رسم خطة محكمة لـ (وجهة العالم الإسلامي).

أمّا العمود الفقريُّ للنموذج، والروح العادلة للمثال، فنقرؤه في قول الأستاذ فتح الله: «نعم، قد أوقعتنا هذه الحادثات المتتاليات في الغرب، من النهضة الصناعية إلى التقدم التكنولوجي المعاصر، في شدهٍ بعد شدهٍ، فأصابتنا بالشلل، كما دوخت رؤوسنا وكدّرت أبصارنا المتَلقّيات الخاطئة لدعوى «العلمية» والخفة الفارغة «للعصرنة». وربما يدوم هذا الضعف والاهتزاز مدة أخرى. وربما يستمر المشي في السبات والتكلم في النوم، فيلزم أن نصبر ونحتمل سنين، علمها عند الله. نعم، سنصبر، لأننا نعي ونستشعر الحاجة إلى سنين قد تطول من الانتظار الحي في الأعماق المرجانية، ومن الحركة المؤثرة والمنظمة في حضانة البيوض، حتى يتعافى سائر البدن المتضعضع، ويستجمع قوته ليقتدر على تصفية حسابه مع العصر».

هذا نصف الحكم، والنصف الآخر يسجِّله الأستاذ بصدق في قوله: «وكما تعاقب ظهور العلماء في عالمنا الإسلامي، من أمثال ابن سينا والفارابي والخوارزمي والرازي والزهراوي، إبان تحقُّق الوسط والبيئة الشبيهة، كذلك استَخدم الغربُ ما تَوارَثَه من المكتسباتِ خير استخدام وبأوسع وجه ممكن في ذلك الوسط، واستطاع أن يسِمَ القرون الأخيرة بسِمَتهِ».

شمعة من الغرب:

كتبت زغريد هونكه عن الشرق كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)؛ وهذا العنوان يبسط أمام أعيننا سؤالاً مبنياً على صورة ذهنية، وهو: هل الغرب بالنسبة لنا شمس؟ أم شمعة؟ أم ظلمة؟ أم هو شيء آخر؟ أمّا مراد هوفمان فقد استهلَّ كتابه (الإسلام كبديل) بفصل تحت عنوان «الإسلام والغرب»، وانتهى إلى تقرير مفاده «أنَّ الإسلام الذي زلزلته الكوارث الدامية، والأزمات الطامية، لم يقض نحبه، ولم يُقبر، بل على العكس انطلق زاخراً بالحياة والنشاط أقوى ما تكون الحياة». وهو

بالتالي يطرح على عقولنا المسترخية إشكالية حالنا اليوم: بين الرؤية المتشائمة، والرؤية المتفائلة، أيهما أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً؟

في سياق الرحلة إلى أمريكا للمرَّة الثانية على التوالي، وبمناسبة عقد اللقاءِ السنويِّ للأكاديمية الأمريكية للديانات (AAR) في مدينة «بالتمور» ولاية «ميريلاند» القريبة من «واشنطن ديسي العاصمة»؛ والتي شارك فيها أكثر من عشرة آلاف باحث، من أغلب بلاد العالم، ونظِّم خلالها أكثر من ألف نشاطٍ علميٍّ، بين محاضرة، وندوة، وطاولة حوار، وورشة عمل. كما أعدَّ على الهامش معرض لأحدث الكتب في الديانات، أسهم فيها أكثر من مئتي دار للنشر، أغلبها ملحق بالجامعات ومراكز التفكير.

في هذا السياق يعود السؤال الحائر: ما حقيقة علاقتنا بالغرب؟

الحقُّ أنَّ صورة الشمعة التي تنير الظلمة الحالكة في غياب ضياء الشمس ونور القمر، تبقى هي الصورة الإدراكية الأمثل لهذه العلاقة؛ ذلك أنَّ الأمَّة والمجتمع المسلم ليس بدعاً على الحضارة، ولا هو لقيط على قارعة الطريق، ولا هو متسول على باب اللئام؛ حتى وإن أريدَ به ذلك، بل حتى وإن جنَّدت المراكز العالمية، والأموال الطائلة، والسياسات الجائرة... لحشره في هذه الخانة؛ غير أنَّ نهر الزمن، ومسار الأحداث، وحقائق الأمور، وبدهيات الماضي والحاضر... كلُّ ذلك يقف سداً حصينا أمام هذه المحاولات الفجة الوقحة...

ولذا، فإنَّ ما يمكن أن نفيده من الغرب اليومَ، ليس هو الروح، ولا الضياء، ولا النور، ولا المبادئ، ولا الأخلاق (عدا الأخلاق المدنية)، ولا المعنى، ولا جوهر الإنسان، ولا المعايير، ولا الرؤية الكونية؛ فهو في جميع ذلك يقف فاغراً فاه، يداً فارغة وأخرى لا شيء فيها؛ وإنما الذي يمكن إفادته هو:

- **الجدية في العلم، والمثابرة في تحصيله، والقيمةُ التي منحت له**؛ بالانطلاق منه، وتأسيس كلِّ شيء على محوره. وبخاصة «مراكز البحثِ العلميِّ»، و«الجماعات العلمية»، و«الجامعات الرائدة»، و«المؤسسات البحثية العالمية»، و«الحرية التي يكتسيها العالم في حركيته وبحثه»؛ ذلك أنَّ الجامعة هي التي ولدت الدولة، وليس العكس؛ فليس للعلم إذن أن يكون أداةً طيعة بيد السياسي والحزبي والآني والظرفي... وإنما واجبه أن يكون معياراً للواقع، شاهداً وموجِّهاً، مرجعاً ومصدراً. وهذا ما يتميز به الغرب اليوم، وهو ما يفسر تفوقه على الشرق؛ وهذا هو الضوء المنبعث من شمعته، والمرجو منّا أن نستعيره ونستفيد منه؛ ذلك أنَّه في أصله خيرٌ، وفي جوهره منبعث من مشكاة النبوة، ومن الحضارة الإسلامية أوان ازدهارها.

- **روح الإبداع والحرية والانطلاق**؛ مما فقده الشرق اليوم، بالتعاون مع السياسات الجائرة، الغربية منها والشرقية؛ ذلك أنَّ التقليد الببغائي، والتقريد[1] الفوتوغرافي، ورجع الصدى، وصبغ ما هو متغير بصبغة الثابت، أو جَرّ ما هو ثابت إلى ساحة المتغيرات؛ كلُّ ذلك اجتراح للسيئات ثقافياً وحضارياً، واقتراف للمعاصي فكرياً وعلمياً. ولقد ـ والله ـ شدّني «اسبوزيتو»، وكذا «أرمسترونغ» في صراحتهما، ووضوحهما، وروحهما العلمية المتحدِّية للتعصب وللتيار العام. هذا ضوء آخر من شمعة الغرب، مما يمكن أن نستردَّه، وهو ملائم لروح ديننا، بل الحرية في عقيدتنا عليها مناط التكليف، وهي أساس كلِّ فعل وإرادة.

- **الانفتاح على الآخر العالميِّ**؛ وهو ما يلاحظ جلياً في اللقاءِ السنويِّ للجمعية الأمريكية للديانات؛ ولا يغرَّنَّنا الإقصاء الذي يصبغ الإعلام والسياسات، فهو القنبلة المخيفة، وهو مقصود لذاته، وكثيرون منا رهائن انفجاراته وجلاجله؛ والحقُّ أنَّ هذا الانفتاح بلا انحراف ولا انجراف يفيد المسلمين، وهو ما صبغ

(1)ـ نسبة إلى القرد.

النموذج المدنيَّ، في عهد الرسول الأكرم ﷺ: «**رحمة للعالمين**»، «للناس جميعاً»، «للناس كافة»؛ وهو ملائم لمعنى رباعية «الإجارة، والإسماع، والتأمين، والتعليم» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 9/ 6]. ويبقى السؤال هو: ما حدُّ مسؤوليتنا في استجارة الناس، وإسماعهم كلام الله، وتأمينهم، وتعليمهم؟ بخاصَّة أنَّ الجهات الظالمة تعمل حثيثاً لتحرِّف حقيقة الإسلام في قلوب هؤلاء وعقولهم. فهل يجوز لنا أن نستكين ونركن، ثم نذر المساحات جرداء قفراً، والساحات بيداء فقراً، يعثو فيها العتاة، وترعى على سفوحها الذئاب والحيّات؟

– **أن نستفيد من المناهج التي تطوَّرت عبر الزمن**؛ من السياق الشرقي إلى السياق الغربي؛ بخاصة «مناهج البحث الجماعي»، و«مناهج إدارة البحثِ العلميِّ»، و«مناهج إدارة الحوار»، و«مناهج إنشاء وتسيير مراكز التفكير»، و«مناهج تفعيل المعلومة، لتكون معرفة فاعلة مؤثرة، لا مجرَّد ألفاظ وكلمات وبحوث متراكمة». ولا نعدم في ذلك عودة إلى حقيقة العلم في الإسلام، فالعلم يتوخَّى منه «النافعية» لا «النفعية» في مفاهيمنا؛ والنافعية تتجاوز البراجماتية المادية بأشواط، إلى «العلم النافع»: بالأجر، ونشر الخير، والحسن، ونفع الخلق، والأجرة، والرضا، والسلام... وكلّ معاني الخير المرسومة على لوحة خيرية الأمَّة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: 3/ 110]، وخيرية الدعوة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 3/ 104].

هذه مجرَّد فذلكة ومقدّمة وإشارة لنا، تذكِّرنا بواجبنا حيالَ ما علَّمنا الله، وتنبِّهنا إلى مواطن الخلل فينا: فُرادى، وجماعات، وجمعيات، وتجمُّعات، وجامعات، ومجتمعات...:

فهل هي في مستوى الرسالة المنوطة بها؟

أم هي قاصرة مقصِّرة؟

ثم، هل نجد جهةً علميةً واحدة تجمع تحت قبتها عشرة آلاف باحث من العالم، وتعتصر ما عندهم من علم، وتنتفع بما آتاهم الله من فهم؟

أم أنَّ فكرة «الجماعة العلمية»، و«العقل الجمعيّ»، و«مراكز البحث والتفكير» (tank think) هي أشبه بالحلم منه بالحقيقة في تصوراتنا؟

ووالله لن نستعيد دفء «شمس الشرق» (بل الإسلام) الساطعة على الغرب إلَّا إذا راجعنا ظلماتنا، وإلَّا فإنَّ الله تعالى عادلٌ، غير ظالم، يجزي كلَّ عامل بما عمل، ولا يحابي أحداً. لا يخرق سننه لأجل أحد: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 4/ 123]، ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: 57/ 14].

نعوذ بالله من أن «نفتن أنفسنا» (وقد فعلنا، وفتن بعضنا لبعض اليومَ أشدُّ من فتنة غيرنا لنا)...

ونستعيذ بالله من أن «نتربَّص، ونرتاب، ونغترَّ بالأمانيِّ... ومِن أن يغرَّنا بالله الغرور»...

وصدق الله العظيم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: 57/ 16] ؟!...

فاللهم حفظك، وسترك، وعودنك، وفرجك، وعنايتك... آمين... آمين... آمين.

هل يمكن لمواطن فرنسيٍّ مثاليٍّ أن لا يكون متعصِّباً؟

انتهيت من مطالعة كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد، وفي الذهن تلك الصورة المشوَّهة التي صنعها المستشرق للشرق عبر الزمن؛ حتى تحوَّلت العلاقة بين الشرق والغرب إلى «علاقة قوَّة، وسيطرة، ودرجات متفاوتة من الهيمنة المركَّبة»؛ وكان ـ ولا يزال ـ يُنظر إلى الشرق على أنه «شيء»، «موضوع»، «متَّهم ضعيف» في أحسن الأحوال، «فاقد للإرادة»، «جاهل بالسليقة»، «امرأة بِكر» تحتاج إلى من ينوب عنها... وخلاصة الصور التمثيلية مقولة ماركس عن الشرقيين: «إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ولا بدَّ أن يمثلهم أحد».

ومَن يكون الممثِّلُ الشرعيُّ للشرق إذا لم يكن ذلك الغرب المسيطِر المهيمن؟

غير أنني لما شرعت في قراءة كتاب (قواعد لغة الحضارات) لمؤلِّفه «فرنان برودال»، وهو كتابٌ مدرسيٌّ، وجهدٌ علميٌّ رسميٌّ، ترسَّخ عندي أنَّ العمل يكمُن في «المقرَّرات التربوية» لا بين ثنايا «الكتب المتخصصة»، أي في مصادر «العلم العادي» بتعبير توماس كون؛ ثم تساءلت:

هل يمكن لفرنسي تخرَّج في المدرسة الفرنسية، وقرأ تلك الصورة التي صنعها مثلُ هذا المقرَّر الرسمي، أن لا يكون متعصِّباً ضدَّ الإسلام؟

وهل يمكنه أن يعدَّ المسلمين بشراً مثله تماماً، لهم الحقُّ في حياة مماثلة لحياته هو؟

وهل يُنتظر منه أن يُنصف الملايين من المغتربين المسلمين، الذين يرسم فيهم صورة ما قرأ، ويجد من السياسة والإعلام المبررات لترسيخ الصورة السلبية، باعتماد شتى فنون الاختزال، والتهويل، والحيل السينمائية؟

هنا توقفتُ لأنصف المواطن الفرنسيَّ المثاليّ؛ ذلك أنه بالطبع ليس متعصِّباً وراثياً أو فطرياً، ولكنَّ المدرسة هي التي تطبعه بالتعصُّب ضدَّ كلِّ ما هو إسلاميٌّ: الله تعالى، محمَّد ﷺ، القرآن، التاريخ الإسلامي، العلاقة بين المسلمين والغرب، مسلم اليوم، المهاجر... إلخ.

وأبرز ما يلاحظ في تصنيف (قواعد لغة الحضارة) أنَّ الإسلام هو أوَّل «حضارة غير أوروبية»، أي هي تقع في منطقة «الغير» و«الآخر»، في مقابل «الأنا» و«النحن»، وبالتالي فهي مختلِفة، لا يُنتظر منها يوماً ما أن تتلاحم مع «الذات الأوروبية» وأن تكون جزءاً من «الحضارة الأوروبية» كما هو شأن «الحضارة اليهودية» مثلاً.

ثم إنَّ التلميذ الفرنسي يتعلَّم «أنَّ الإسلام لم يولد مع محمَّد ﷺ» وإنما هو «امتداد للمسيحية»، بل هو «صورة مشوهة للمسيحية»، كما أنَّ محمداً هو صورة فجة من عيسى، والقرآن هو صورة محرَّفة من الإنجيل...

ويقرأ التلميذ الفرنسي أنَّ «الإسلام» كان ولا يزال، وسيبقى ديناً «بدوياً»، لا يؤمَّل يوماً أن يتحضَّر؛ وإذا ما سجِّلت حضارة إسلامية يوماً ما، فهي تمثُّلٌ لحضارة أخرى سابقة له «ففي هذا الشرق الأدنى العنيد، المعارض للحضور الإغريقي، والمعتنِق للمسيحية، والذي كانت تعصف به القلاقل الدينيَّة المتواصلة والعنيفة، وَجدت الغزوات العربية الأولى متواطئين مباشرين»؛ «لأنَّ الإسلام دين بلا بشر».

وكلُّ ما يقال عن الإسلام، أو عن رسوله، أو كتابه، هو محلُّ شكٍّ وخلاف؛ فمثلاً «بين 610-612 وهي تواريخ مشكوك فيها لكنها محتملة، تاريخ وفاته، تتموقع إنجازات محمد الحاسمة» (النص منقول حرفياً، ويمكن تأمل عبارة «مشكوك فيها لكنها محتملة»).

والثقافة الإسلامية «ثقافة ذات طابع مديني محدود جدّاً»، ذلك أنَّ «محمَّداً عاش وشيَّد، إن صح التعبير، في وسط مديني في مكة، على هامش الجزيرة العربية التي

لا تزال بدائية». ويلاحظ التعقيب المتعصِّب جداً: «... شيَّد إن صحَّ التعبير»، ذلك أنَّ «فعل شيَّد» ـ عند برودال والمستشرقين ـ هو فعل كثيرٌ جداً على نبي الإسلام وعلى دينهم وحضارتهم، وهو لفظ نال من المؤلف سخاء وكرماً جميلاً، حين تجاوز ونسبه إلى المسلمين مجازاً لا حقيقة.

وفي المقدور أن أواصل تحليل هذا الكتاب المقرَّر على التلميذ الفرنسي، وأستخرج بالتبع النتائج والصور والأحكام التي يخرج بها هذا «الإنسان المشروط»، و«المعدُّ ليقول: نعم» حين يدعى لمواجهة «المسلمين البرابرة»، بل بلفظ أكثر ليونة، حين يُدعى «لتحضيرهم وتنويرهم».

ولذا، نعتقد أنَّ الفرنسي، بل والغربي، الذي ينشَّأ على مثل هذه «التمثُّلات والأحكام والتقريرات»، لا بدَّ وأن يكون متمرِّداً حتى يكون متسامِحاً مع الإسلام والمسلمين؛ ولكنه إذا استسلم للمنظومة التربوية، والثقافية، والإعلامية، والسياسية، والفنية للغرب، لا بدَّ وأن ينتهي ناقماً، مجيزاً لإبادة الشرق الهمجيِّ، وسكانه الذين هم حشائش لا بدَّ من زعقها من أرض النبوات (فلسطين، العراق، سورية، اليمن...)، أو من الحدائق الخلفية المتوسطية للغرب (مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب...).

ولنعُد إلى السؤال مرَّة أخرى: هل يمكن لمواطن فرنسيٍّ مثاليٍّ أن لا يكون متعصِّباً؟

معذرة للمواطن الفرنسي غير المتعصِّب (أي المتمرّد على المألوف والنمط)، فإني أعتبره بطلاً، وأسدي إليه التحية والسلام.

وأسأل نفسي ومَن ألقى السمع وهو شهيد: ما حال التلميذ المهاجر المسلم الذي ينشَّأ على هذه المقررات، والتمثلات، والأحكام؟ أوليست هذه أولى خطوات صناعة الإرهاب؟

الجواب محلُّ بحث ودراسة...

ملاحظة: قد يعترض معترض ويقول: «لقد تغير هذا المنهاج التربوي»، لكن أذكِّر أنَّ برودال نفسه، يسجل في مقال له عام 1983، أي عامين قبل وفاته، أنَّ المقررات آلت إلى أسوأ لا إلى أحسن.

حسب تصنيف «ساموبل هنتنغتون» للحضارات المرشَّحة مستقبلاً أن تكون «في صدام» مع الغرب؛ اعتُبر أنَّ الحضارة الصينية وما حولها تأتي في درجة التهديد لراحة الغرب وهيمنته بعد الحضارة الإسلامية؛ ولذا استمرَّ المثقَّفون والدارسون الاستراتيجيون بالخصوص في حملات التخويف من الصين، ومن «التنين النائم» على حدِّ تعبيرهم.

تعرَّض «فرنان بروديل» في كتابه (قواعد لغة الحضارات) إلى «صين الأمس وصين اليوم»؛ ولم يفُته أن يذكِّر أنَّ كلَّ فضل وكلَّ تمكُّن للصين، صناعيّاً أو اقتصاديّاً، إنما هو يعود الفضل فيه للاحتكاك بالغرب: «يتطلَّب التملُّص مِن سطوة الغربيين على الصين نوعاً من التغريب المسبَق ومن التحديث». وينعى على الصين أنها «لم تتمكَّن بين عشيَّة وضحاها من تمثُّل درس العالم الغربي مثل اليابان في عصر ثورة «الميجي»، لقد كان تعلُّمها المزدوج شاقّاً». ويلاحَظ عبارة «تعلُّمها» أي أنَّ الصين، حتى ولو كانت أقدم من الغرب، إلَّا أنها لا تلبث أن تبقى تلميذاً ينبغي عليه أن يتعلَّم من الغرب حتى يتحضَّر.

دافع «بروديل» عن فكرة أنَّ الصين وقعت في مفارقة صعبة الحلِّ، وهي: أنها إذا أرادت أن تتطور فلا بدَّ «أن تتخلَّص من برابرة العالم الغربي من دون شكٍّ، لكن لبلوغ ذلك لا بدَّ من استيعاب العالم الغربي وتقنياته». ثم يقول: «لقد تمَّ ذلك التعلُّم البطيء جداً على أيدي بعض المثقفين الشبان». ويلاحظ «غباء الصينيّ» في صورة الكاتب الغربي، ذلك أنَّ تعلُّمه كان «بطيئاً جداً»، ثم لاحِظ أنَّ الغرب، حتى

ولو كان شرّاً، إلا أنه «شرٌّ لا بدَّ منه».

ولو سألنا: ما الذي جعل الصين تقفز فوق الغرب، وتتفوق عليه؟

سيكون الجواب من «بروديل»: أوَّلاً ـ كان ذلك بفضل الغرب والتغريب، وثانياً ـ بفضل الكبرياء الصيني: «فلِلكبرياء نصيبٌ في هذه التجربة، وهي كبرياء تمثل على الأقل طريقة للارتباط من جديد بتلك الصين القديمة جدّاً، والواثقة من احتلال قلب الكون ومركزه».

بل ويقرر «بروديل» ببرودة لا يحسد عليها أنَّ «الصين تريد أن تكون قوة عظمى وحضارة كبيرة، وقد آمنت دائماً بتفوُّقها على بقية الكون، وبأولوية حضارتها التي ليس ثمة حولها إلَّا البرابرة في نظرها». ثم يؤكِّد بتقريرية عجيبة: «لقد كان للصين بالأمس كبرياء شبيهة بكبرياء العالم الغربي في الماضي».

ويعود إلى نقطة مفصلية في انتقاد الصين، أي إلى مشكلة «التيبت» ليذكِّر بها، وليقول: إنَّ الصين همجية ظالمة، والتيبت أكبر دليل على ذلك، يقول: «وتتضح إرادة القوة والإشعاع لدى الصين من خلال احتلال التيبت عام 1950»، والقاعدة التي ينتهي إليها حكماً قاطعاً هي:

«إنَّ الصين تريد أن تكون مهيمِنة وتحلم بذلك. لقد كانت عام 1845 غير قادرة على صنع دراجة نارية، وها هي اليوم عام 1962 على أبواب صنع القنبلة النووية. لقد استرجعت الصين بفضل هذه الثورة كبرياء العهود الأولى، واسترجعت كرامتها بصفتها حضارة ذات شأن». ولقد كان من اللائق بالمؤلف أن يقتصر على العبارة المنصفة الأخيرة «استرجعت كرامتها بصفتها حضارة ذات شأن»، وأمَّا الأحكام الأخرى فهي عنوان «الأنا والتسلط والغرور».

وينسب «بروديل» بعض الآراء للمستشرق «إتيان بالاز»، ثم يصفه بأنه «الخبير المعروف جداً في الشؤون الصينية»؛ وهنا أيضاً يسعفنا إدوارد سعيد، فنلاحظ أنَّ

الشرق «موضوعٌ»، و«الموضوع» لا يمكنه أن يعرِّف بنفسه، وبالتالي فهو بحاجة إلى من يعرِّفه؛ وليس لدى الصين، رغم تقدمها، مَن يوثق به، ويُنقل منه، فهو مثل «السفيه» لم يحجر على ماله فقط، ولكنْ كذلك تم حَجر قلبه، وعقله، ولسانه، وقلمه. ولذا جاء الوصف المبالغ فيه في حقِّ المستشرق «بالاز»: «الخبير المعروف جدّاً».

واعجب من هذه المبالغة التي ترفعه فوق الشكِّ والظنِّ، بل والنقاش. ومن ذا الذي ينقض ما بناه «الخبير المعروف جدّاً؟».

ومما ينسب إلى «الخبير المعروف جدّاً» قولُه: «لو تنجح التجربة الصينية بطريقة مقنعة، فإنَّ الخطر هو أنَّ كلَّ البلدان المتخلفة ستحذو حذوها»، ولهذا الأمر «تبعاتٌ هائلة»، تستدعي التساؤل، بنبرة من التشكيك طبعاً: «هل ستنجح التجربة الصينية؟ أليست بصدد الفشل؟».

ولا يخفى «بروديل» أخيراً، أن يذكِّر «التلميذ الفرنسيَّ المهذَّب» بأنَّ الصين كانت، ولا تزال، ولن تزال أبد الأمد، ذلك الآخر، الذي لا يوثق فيه، فهو آخرٌ عدوٌّ للغرب، فيقول في آخِر فقرة من فصله الذي عقده للصين: «لكن، أليس مردُّ هذا الاصطدام ـ بين روسيا والصين ـ سببٌ عميق من القومية المشاكسة للصين، ورغبتها في الثأر من العالم الغربي، فروسيا سواء أكانت اشتراكية أم لا، هي جزءٌ من العالم الغربي، وهي أيضاً محسوبة على البرابرة مثل العالم الغربي».

والنتيجة: إنَّ الصين لا يمكن أن تطمح إلى ما هو أقل من قيادة العالم الثالث، وآنذاك يمكن أن تحتل من جديد مكانها بصفتها «إمبراطورية الوسط».

وسؤالنا مرَّة أخرى: هل يمكن لمواطن فرنسيٍّ مثاليٍّ أن لا يكون متعصِّباً؟

والجواب، في حاجة إلى بحث، لا إلى تقرير بالقبول أو الرفض... ذلك أنَّ البحث يولِّد العمل، أمَّا اللجج فينتهي بأكوام من الأماني، «إنَّ الأماني رأس مال المفاليس»...

الاستهلاك.. مِن هلَكَ، يهلِك، هلاكاً: الحرم الشريف عيِّنةً

يُذكر أنَّ رجلاً دخل فندقاً ملَكيّاً، بحقيبة من مال، تحوي شيكات، وبطاقات بنكية، وحزماً من الأوراق المالية؛ فوجد في استقباله طاقماً من الخدم (مبتسمات ومبتسمين)، كلٌّ منهم يقدِّم له طبقاً عليه أطايب الكعك والشراب؛ ولما انتهى إلى كبير الخدم قال له:

سيدي، كلُّ شيء هنا في خدمتك، وهو معروض للاستهلاك، حتى البشر...

...وبعد أيام، استغرقها الرجل (الضيف) في الملذات، وأنفق فيها جميع مالِه، ثم استدان من بنكه، ولما حان وقت الدفع، تحوَّل هو أيضاً إلى بضاعة تُباع، وإلى خادم رهْن إشارة دائنه، يسخِّر جميع ما يحصل عليه من مال في خدمة نسبة فوائد الدَّيْن، إلى أن حضر أجلُه، فرُهنت تركته برمَّتها بحجَّة سداد ما تبقى من دَيْن...

فمات، وهلَك.

لو طالعتَ القاموس الإنجليزي في القرن الرابع عشر، مادة يستهلك «consume» لوجدت دلالة وإيحاء غير محبَّذ، وهي: يستهلك تعني يدمِّر، يُهلك، يضيِّع، يُبلي، وتولَّد منه «الإهلاك» و«المهلِك» وكلاهما يحمل معنى الدمار نفسه.

غير أنَّ المصطلح ما لبث أن حمل معنى «حيادياً»، ثم مع ظهور الاقتصاد البورجوازي الاستعماري في القرن الثامن عشر، لوصف علاقات السوق، صار المستهلك يقابل المنتج، والاستهلاك يقابل الإنتاج... وهكذا إلى أن تحول إلى معنى إيجابيٍّ ليس سلبياً ولا حيادياً...

واليومَ يمكن تفسير «حركة التاريخ» على مستوى الأفراد وعلى مستوى المجتمعات والأمم، بناء على «حركة البضاعة» بجميع أشكالها وأنواعها، أي بما يرتبط بالاستهلاك. فلم يعد الإنتاج يخدم الاستهلاك، إنما صار الاستهلاك هو الغاية، والإنتاج وسيلة له، أي صار «المستهلك هو الملك» ـ كما يقول المثل المعتقَد ـ.

اليوم، لأجل هذا المستهلك تُطوى أراضي، وتشتعل حروب، وتُباد دول، وتنتهك حرمات... ولذا، حسب بعض التحليلات في عهد «مدرسة فرانكفورت» صار الاستهلاك جزءاً من منظومة الهيمنة، غير أنَّ الأمر تعقَّد اليوم، فصارت الهيمنة بجميع أشكالها السياسية والحربية والنفسية والفكرية... صارت جميعها تابعة وخادمة لمنظومة الاستهلاك.

أي أن الاستهلاك، صار هو «الديانة الجديدة»، فكلُّ شيء مختلفٌ من بلد إلى آخر: اللغةُ، العرق، الجو، المعتقدات، العلاقات... إلَّا «البضاعة» فقد توحَّدت عبر جغرافية الكون، حتى إنَّ «ماركات عالمية» تطلُّ اليوم على «الكعبة الشريفة» من كلِّ جانب، وماركات أخرى تدخل الحرم بهدوء، على شكل أجهزة، أو مشروبات، أو ملابس...

صار الواحد لا يعرف الكثير عن أخيه المسلمِ الحاجِّ، ولكن يعرف الكثير عن الماركات التي تحيط به، وهما يلتقيان في استعمالها... فلا يوجد موضوع يجمع الاثنين مِن بلدين مختلفَيْن، سوى «المادة المستهلكة»: الكوكا، الآيفون، ريبان، نايك، شريحة التلفون، فايسبوك... وقائمة طويلة من القواسم المشتركة، يمكنها أن تكون محلَّ توافق، رغم اختلاف كلِّ شيء.

بصورة فضائية، لو جسَّدنا كلَّ الحشد الذي يلتقي حول «الحرم الشريف» على صورة ألوان تمثل كلَّ إنسان حسب نسبة استهلاكه للماركات العالمية الكبرى: اللون الأخضر لمن له قطيعة كاملة بهذه البضائع، والبرتقالي لمن يستهلك ما به حاجته الضرورية حسب تقديره، والأحمر لمن انغمس في جميع أنواع الماركات...

أيُّ الألوان سيغلب على المشهد: الأخضر، البرتقالي، الأحمر؟

لا ريب أنَّ المشهدَ سيكون أكثر ميولاً إلى الحمرة منه إلى الخضرة، وبخاصَّة أنَّ الواقيات الشمسية نفسها تُرى من السماء بعلاماتها وماركاتها، عوض البياض أو السواد المألوف.

والآن لو قلبنا الوضع، وافترضنا أنَّ إرادة الإنسان وحريته متلازمة عكسياً مع نسبة ميوله الاستهلاكية؛ فكلما ارتبط أكثر بالشيء وبالبضاعة ضعفت شخصيته، وفقد إرادته، وتحطَّمت حريته؛ وكلَّما تحكم أكثر في هواه وميوله، وضبَط نفسه حين الاستهلاك، كان أكثر تميزا وإرادة وحرية، وصعب التحكم فيه بأي وسيلة من وسائل الاستعباد والاستهلاك.

لا ريب أنَّ حمرة الاستهلاك ستكون دليلاً على حمرة الدماء في بلادنا اليوم، وأنَّ غياب خضرة التحكم والانضباط سيكون عنواناً على غياب استقلال الرأي والوجهة والمصير؛ فهل نرجو مع ذلك خلاصاً إذا كان الحاكم مربوطاً بحبل البترول، والغني مربوطاً بحبل الشركات الكونية، والفقير مربوطاً بفاتورة الهاتف النقال، والمشروب اليومي، وصفحات الفايسبوك؟

ولو فككنا رمز الألوان الثلاثة: ليكون الأخضر هو السابق بالخيرات، والبرتقالي هو المقتصد، والأحمر هو الظالم لنفسه؛ بمدلول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 35/ 32]. لو فعلنا ذلك، فلينظر كلٌّ منَّا أيَّ لون يختار، وأيَّ صنف يكون، وأيَّ مصير ينال؟

ربَط القرآن الكريم بين «الطغيان» و «الصورة الذهنية للاستغناء»، فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: 96/ 6-7]؛ ولم يقل سبحانه: «أن

استغنى»؛ أي أنَّ الفقير إذا «رأى نفسه قد استغنت» طغى على إثر «رؤيته»، وكذا الغنيُّ والوسَط والجميع بلا استثناء؛ ووهْمُ الاستغناء يصنعه «الاستهلاك»، حتى يعتقد صاحبه أنه لم يعد في حاجة إلى ربه وخالقه ورازقه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: 90/ 5-6].

ولقد قرأتُ يوماً إشهاراً في بلد مسلم، مكتوب عليه: «KFC حلال». مع ملاحظة إنَّ فتاة سافرة هي التي تجمِّل البضاعة الحلال.

وتساءلتُ: إذا كان الـ «KFC»، أو «الماكدونالد»... من حيث الرقابة الفقهية حلالاً، فهل هو من حيث المنطلق العقديُّ من نوع الغذاء الحلال؟

أم أنَّ «الحلال» هنا صار وسيلة لتبرير منظومة «الاستهلاك والهلاك»، على حساب القيم والحرية والإرادة؟ ونفسُ الحكم من الحرمة ينصرف إلى «باربي المتحجبة»، وإلى ما أسموه اليوم «الخمر الحلال»... وغيرها من التلاعبات بالألفاظ التي لا تمت إلى الحقيقة الإيمانية، ولا إلى الرؤية الكونية التوحيدية، بصلة ولا رابط.

ولا حلَّ سحريّ يُنتظر في الأفق، لمواجهة منظومة الهلاك والاستهلاك؛ ذلك أنَّ الحلَّ يكمن في «استيقاظ الوعي»، وفي «إعمال البحثِ العلميِّ»، و«العقلِ الجمعيِّ»، و«المخابر المتطورة»، و«فرق البحث المكابِدة»، للاهتداء إلى حلول علمية عملية، وإلى مخرَجات فاعلة، وإلَّا بقي الأمر في مستوى الخطابة، ولقد يقاوم الاستهلاك باستهلاك آخر، فنكونَ مثل من يغتسل ويتوضأ بماء نجس، فيزيد إلى نجاسته نجاسة مركبة... وهكذا ندخل ضمن الدائرة الفاسدة «حيث الفساد يولد فساداً أكبر».

فمن منَّا يريد أن يكون مثل ذلك الرجل الذي دخل فندقاً ملكيّاً... ثم مات، وهلك؟!

وصفة سريعة لصناعة العميل

«العميل إمَّا شخص عديم الولاء، أو هو شخص ذو ولاء مزدوَج». هذه قاعدة كلية في الاجتماع والحضارة والسياسة، صاغها عبد الوهاب المسيري، رحمه الله، تحت فصل «عدم الانتماء» وفصل «الولاء المزدوَج» في موسوعته العميقة؛ وهو يعالج مشكلة «الهوية والانتماء» محللاً للجماعات اليهودية في سياقاتها العالمية المختلفة: الشرقية والغربية؛ وفي مراحلها التاريخية المتباينة: ما قبل دولة إسرائيل، وما بعدها...

واليوم، مع تنامي الفتن، وكثرة الانشقاقات والتصدُّعات، وتعرُّض المجتمعات إلى اختبارات صعبة وعميقة، واهتزاز النماذج التنظيمية المألوفة، وعجز الخطابِ الرسميِّ (بأشكاله الدينية والاجتماعية والسياسية) عن الإجابة، وتدويل الفتنة تحت مسمّى «الشرعية الدولية»، واتخاذ البلاد الإسلامية حقلاً خصباً لتجارب التدمير والإفساد، بجميع أصنافها: الإيديولوجية، والعسكرية، والاقتصادية، والتربوية...

اليوم، لا بدَّ أن ننبِّه إلى أنَّ «العمالة» تحمَى سوقُها وتغلو بضاعتها أوان الفتن، وذلك حين تهتزُّ «انتماءات الناس»، وحينها فقط يغيِّرون من معتقداتهم، وقناعاتهم، ومواقفهم، ومرجعياتهم مثل تغيير الواحد منهم قميصه صيفاً؛ ولا بدَّ من ملاحظة أنَّ «الموظَّفين» ـ بالفتح ـ ينشطون، ويعرضون خدماتهم، ويستغلون فرصة اهتزاز «هوية الإنسان»، و«هشاشة أفكاره وقناعاته»، و«صعوبة إيجاد الحلول المطلقة النهائية» التي تريحه وتسعده، واستحالة بلوغ «حال الرفاه الكلي» الذي يُتوهَّم إمكانه...

يستغل هؤلاء «السدنة والباعة بالجملة» الفرصة، فيعرضون أفكارهم، على شكلٍ «دينيٍّ»، أو«عرقيٍّ»، أو لونٍ «سياسيٍّ»، أو «إيديولوجيٍّ»، أو حتى «أمنيٍّ»...

ثم يجدون مَن يتحول مفرداً إلى «إنسان موظَّف» بوعي منه أو بغير وعي، وفي حال الجماعة، يتحول هؤلاء «المبيُوعون» إلى «جماعة وظيفية» يسهل التلاعب بها، وتحريك أزرار القناعات لديها، فتتشكَّل حسب خيارات الجهة الموظفة، وتكون مصبوغة بصبغتها.

والفتنة تهز القناعات، وتحمل الكثيرين على السباحة ضدَّ التيار، ثم تدفع البعض إلى إحراق الدار بما فيها وبمن فيها، ثم هي تصمُّ الناس وتعميهم عن الفهم والوعي والإدراك الصحيح؛ ولذلك اعتبرها القرآن الكريم: ﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 2/ 191]؛ لأنَّ مَن وقع فريسةً وضحية لها، ولم يعتصم بأسباب السماء، ولم يرض بما قضى الله تعالى له وبما قدَّر... من كان هذا شأنه صار في عداد «الموتى» أو من نوع «الأشياء» التي يتمُّ التلاعب بها.

ولا بدَّ من اليقظة والحذر والسهر، بكلِّ الوسائل السلمية المشروعة، لئلاَّ يتحوَّل بعض من نعرف أو لا نعرف، إلى «أشباح» وإلى «عرائس للقراقوز»، وإلى «نعاج» ـ بمدلول مزرعة الحيوانات ـ؛ ثم يجب علينا أن نتحلَّى بالشفقة والرحمة، بغية كسب القلوب الواجفة كيلا تصير لقمة سائغة لمن لا يريد الخير للبلاد، ولا يخشى فينا ربَّ العباد.

صدق الله العظيم وهو ينهانا عن الغفلة وعن عشرة الغافلين: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 205]. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 18/ 28]..

وصدق الله الكريم، وهو يحذرنا من مغبة العمالة قائلاً: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 9/ 47].

المنبوذون:
هؤلاء المسلمون الذين لم تعد فرنسا ترغب فيهم

فرنسا بلد الأديب العالمي «فيكتور هيجو» (1802-1882)، باتت اليوم تكرِّر مأساة «البؤساء» التي نحتها الفنان بريشته المبدعة. وأتذكَّر أني قرأتها في مرحلة الثانوية، وقد سلِّمت لي جائزةً من جوائز آخر السنة في المدرسة؛ ولا يزال اسم «جان فالجان» يرنُّ في أذني، ولا تزال أحداث الظلم الاجتماعي التي صبغت مسيرة فرنسا، ما بين سقوط نابليون والثورة الفاشلة ضد الملك لويس فيليب (1815-1832)، تمثُل أمام ناظري، وكأني أشاهدها فيلماً حيّاً؛ وبخاصَّة هذه العبارة التي خطَّها هيجو، مما قاله فيها:

«تخلق العادات والقوانين في فرنسا ظرفاً اجتماعياً هو نوعٌ من جحيم بشريٍّ. فطالما توجد لامبالاةٌ وفقرٌ على الأرض، تأليف كتابٍ كهذا الكتاب ستكون ضرورةً دائماً».

اليومَ، أسائل نفسي والقارئ اللبيب:

هل زالت آثار كتاب «البؤساء»؟

وهل صار من الضروري كتابة مثله؟

وهل العادات والقوانين التي لا تزال تهزُّ الجاليات المهاجرة هنا في فرنسا، توقَّفت عن ممارسة العنصرية؟

وهل غياب المثقف الذي يحمل رسالة الحرية بيد أمينة، ليقول كلمة الحقِّ بلا خوف، هو واقع مشهود؟

****

وقفتُ في باريس، بضواحي «ساحة إيطاليا»، أمام أرفف المكتبة الشهيرة «fnac» أنظرُ في جديد النشر، وأقلِّب العناوين عنواناً عنواناً، أبحث عمَّا يزيد في فهمي للظروف التي مِن حولي، لعلِّي أقع على كتاب جدير أقرأه، ثم أخرج منه بنظرة مختلفة، أنتفع وأنفع بها غيري.

وقبل ذلك ترددت على مكتبة «Jeune Gibert» في مرسيليا، واقتنيت ما بدا لي مفيداً ومحققاً لهدف من أهدافي الثقافية المسطرة، في هذه الرحلة المباركة، ما بين «فرنسا ـ وإسبانيا».

وقد سجَّلت ثلاث ملاحظات، جميعها يصبُّ كشلال على نهر المعنى والوجهة، وكلُّها يبحث عن الجواب للأسئلة التي طرحتها باعتصار ومرارة.

أولى الملاحظات ـ أنَّ حركة النشر سريعة وكبيرة جداً هنا، ويذكر أخي الأستاذ سليمان تونسي، الإطارُ في المكتبة الوطنية الفرنسية، أنَّ حوالي ثمانين ألف مادَّة جديدة تسجَّل ضمن «حقوق المؤلف» في المكتبة الوطنية سنوياً.

ولقد هالني العدد المفرط من الكتب التي تتناول الإسلام والمسلمين، والقرآن والسنة، وبخاصَّة إشكالات معينة مثل: الإرهاب، والمرأة، والصدام الحضاري... وغيرها. سواء من أقلام ذات أصول إسلامية، أو من أقلام ذات اتجاهات علمانية أو مسيحية أو غيرها. غير أنَّ الطابع الغالب هو «إدانة الإسلام والمسلمين»، و«تحميلهم تبعات شقاء الغرب، وفرنسا بالتبع»، و«البحث عن سبل لإقصائهم من ساحة الوجود الحضاري»....

ثاني الملاحظات ـ هو أنَّ الأسماء العربية والشرقية التي تنشر عن الإسلام بطلاقة، هي أسماء عادة لها «حساب تصفِّيه مع دينها وواقعها»، وهي تمارس عملية «التسوُّل الثقافي، والاستجداء الفكري»، فهي بذلك «تجعل رزقها» أنها «تدين حضارتها، وتسبُّ دينها، وتسوِّد مصير أمتها». وليس المقام مقام سرد

الأسماء، لعلَّ من أبرزها: «محمد أركون»، و«مالك شبال»، و«عبد الوهاب مدَّاد»، و«ياسمين خضرا»، و«محمود حسين»، و«ليلى أحمد»... وغيرهم كثير.

غير أنَّ هؤلاء لا يعنونني في شيء، ولا أملك الوقت الكافي لإدانتهم، وإن كنتُ أسأل الله أن يهديهم للحقِّ فيعرفوه، ويغفر لهم من الظلالات ما اجترحوه؛ وإنما الذي يعنيني هو:

غياب عناوين لكتَّاب أصلاء في المنهج، منصفين في الموضوع، ليس لديهم عداءٌ ضدَّ ذاتهم الحضارية، لولا ورود بعض الأسماء القليلة جداً من بين الكتاب، ولا ريب أنَّ أكثرهم أثراً وأمثلهم علماً، هو «طارق رمضان».

ولقد والله لمتُ الكثير من المشتغلين بالعلم، من مختلف التخصُّصات، أنهم لا يكتبون، وأنهم غائبون، وأنهم باتوا عالة على واقعهم، وفرَّطوا في واجب من أوكد الواجبات التي كلِّفوا بها شرعاً وعقلاً. وأعيد الخطاب مرة أخرى لمثل هؤلاء لأقول:

ماذا يعني غيابكم هذا؟

وهل لديكم من مبررات؟

لماذا لا تنقدون ذاتكم الحضارية بروح من المسؤولية والوضوح والصدق، بغية اجتثاثها من وهدة التخلف والتبعية؟

ولماذا الناقمون يعملون وينشرون، وجلُّكم ـ أنتم الأصلاء ـ مكتّف الأيدي، مستهلك، أو مردد للكلام بلا أثر؟

طبعا، أستثني من بينكم مَن اجتهد، ونشر، وعمل، وبادر... والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ثالث الملاحظات ـ أنَّ ثمة كتّاباً غير مسلمين، أحدثوا فرقاً، وكتبوا شيئاً مختلفاً، وأنصفوا أنفسهم وحضارتهم وتاريخهم وبلدهم؛ وأسجِّل هنا اسمين اثنين، وهما:

كلود أسكولوفيتش (askolovitch Claude) ، وهو صحفيٌّ من أصول يهودية، له كتاب بعنوان (منبوذونا: ـ هؤلاء المسلمون الذين لم تعد فرنسا ترغب فيهم)[1]، نشرُ دار غراسات، باريس، 2013. هذا الكاتب صرح «أنَّ فرنسا باتت لا تحبّ المسلمين»، وتابع حياةَ الكثير من هؤلاء المنبوذين، في حالات من المضايقة والإقصاء يصعب تصوُّرها، فأجرى تحقيقاً مع الكثير من هؤلاء «الفرنسيين بلداً، المسلمين ديناً»، ممن صار مخيراً بين «الإسلام وفرنسا»، وكأنهما لا يجتمعان ولا يلتقيان.

ولقدِ اتُّهِم هذا الصحفي الحرُّ في وسائل الإعلام الثقيلة بجميع أنواع التهم، منها عداؤه للسامية، وهو طبعاً ساميٌّ. غير أنه استطاع أن يخترق دائرة الصمت، ويبيِّن أنَّ ما تعرَّض له اليهود بين الحربين العالميتين من اضطهاد، يتعرض له المسلمون اليوم، بلا شفقة ولا رحمة.

أدوي بلينال (Edwy Plenel) صاحب كتاب بعنوان «إلى المسلمين، من دار «لاديكوفارت»، باريس 2015. وهو يظهر في كتابه أنَّ ثمة مخططاً لتشويه صورة الإسلام وصورة المسلمين، وأنَّ التمييز العنصري بات مبرَّراً ومقنناً، سواء باسم حرية الرأي في الإعلام، أو باسم الممارسة الديمقراطية في السياسة.

ولقد دافع «أدوي» عن فكرة أنَّ الكثير من الفرنسيين مالوا إلى جهة اليمين المتطرِّف، بخاصَّة تحت مظلة «الجبهة الوطنية الفرنسية». والكاتب يخاطب فرنسا متألماً، قائلاً: «هل ما تريدينه اليوم هو وضع قيم الحرية والإنسانية والاحترام المتبادل... على مهبِّ الريح»؟

****

(1) Nos Mal-Aimés, Ces musulmans dont la France ne veut pas.

عود على بدء، وقد عاد «هيجو» إلينا بعنوان جديد، هو: «المنبوذون»، عوضاً عن «البؤساء»؛ غير أنَّ بطل هذه القصَّة الواقعية الجديدة هو «محمد»، وهو «عائشة»، وهما الطفلان الفرنسيان مولداً «صالح»، و «صالحة»... وهو جميع مَن يحمل سمات مختلفة علامةً على وجهه، أو قناعات مختلفة متمثلة في دينه، أو رأياً مختلفاً رافضاً لشتى صنوف التمييز والعنصرية، بأي اسم كان.

غير أنَّ «المنبوذ» إذا كان صامتاً، أخرس، ساكتاً، لا يعبر عن فكرة، ولا يطلق صرخة، ولا يقول كلمة ... وهو مواطن في بلد الحريات كما يبدو... هذا المنبوذ الذي يشارك سيده في صياغة عبارات السبِّ والشتم والاتهام التي تطاله وتطال أهله... هذا المنبوذ الميِّت وهو حيٌّ، لا تليق به الحياة، ولا يصلح لشيء، بل هو المجرم الأول، والظالم الأكبر...

ولكن، مهلاً، هنا، في أرض هذا البلد وغيره من بلاد الغرب والشرق، بذورٌ من الصلاح والإيمان، تنتش بهدوء ويقين، وتبشّر بغد كريم متين، وبمستقبل يُصنع على قدر... هو مستقبل الخير للبشرية عميم، بلا ظلم ولا إقصاء، تحت قبة التوحيد والأمن والأمان... ولقد أبصرَت عيناي هاتان رجالاً ونساءً، فتياتٍ وشباناً، متَّقدين حيرة وسؤالاً، عشّاقاً للحق، روّاداً لمعاني الصدق... هؤلاء هم غد هذا العالم، وهذا البلد: فرنسا.

ولسوفَ تُسْألون Charlie Hebdo

«أدين عملية القتل في شارلي إيبدو، ولستُ شارلي إيبدو»: هذا هو الموقف الصريح الذي أعلنه طارق رمضان[1]، والذي نتبناه من خلال المنظومة؛ وهو موقف يلج إلى عمق الحدث والحيثيات، ولا يرفرف في سماء الوقائع والمعلومات.

بدايةً، ندين كلَّ اغتيال أو قتل بغير حقٍّ، مهما كان مصدره، ومهما كانت مبرراته؛ وليس ثمة أيُّ دين يرفع من شأن النفس البشرية من الإسلام: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 5/ 32]؛ وحاجتُنا اليوم إلى صناعة الحياة أوكدُ من حاجتنا لصناعة الموت. ثم إنَّ القصاص ليس من مهمَّة الأفراد والجماعات، وإلَّا تحوَّلت البلاد إلى غابة بها حيواناتٌ فتَّاكة شرسة.

كذلك، ندين أيَّ سبٍّ وتنقيص لأيِّ مقدَّس، من أيِّ ديانة أو حتى فكرةٍ كانت، إذ لم نتعبَّد بالسبِّ كما هو مقرَّر في شريعتنا؛ وفي كلام ربّنا أمرٌ بيِّن هو: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 6/ 108]؛ ومن ثمَّ نرفض كلَّ سبٍّ وتهكُّم وتنقيص بمقدَّساتنا: ربِّنا، أو قرآننا، أو نبينا، أو ديننا... وبالتالي فإننا نواجه بكلِّ طاقتنا، وبكلِّ السبل المشروعة، أيَّ فعل من مثل فعل «شارل إيبدو» مع نبيِّنا الكريم، ومع أيِّ مقدَّس آخر، من ديانات السماء.

كذلك، نرفضُ أن يُحمَّل الإسلام، أو تحمَّل الجزائر جريرةَ فشل فرنسا؛ والشباب المذكورون هم «ثمرة ونتيجة» للنظام التربويِّ الفرنسيِّ، الذي لم يستطع أن يُعِدَّ

(1) Tariq Ramadan: «Je condamne les attentats, mais je ne suis pas Charlie».

شباباً ملتزماً بقيم التسامح والتعايش في بلده «فرنسا»؛ ثم إنه من خلال القوانين والسياسات، بتوظيف الإعلام المأجور، شحنه بكلِّ أنواع الحقد والتحقير، وقال له بعد ذلك: «كن حَملاً وديعاً، وكن إنساناً هادئاً». ومِن سخرية الواقع أنه إذا تألق شابٌّ جزائري ـ في الرياضة مثلاً ـ تحرص فرنسا على نسبته إليها، وتعتبره ابناً لها من دون الجزائر؛ وإذا ما فشل رمته كالجرب إلى بلده الأصل.

تالله إنَّ هذا استخفاف بالناس وبالعقول، ووالله إنَّ ما وقع اليوم مؤذن بالكثير مما لا مفرَّ منه غداً: فإمَّا أن تتقبَّل فرنسا أبناءها المهاجرين، بل المولودين في أرضها، وتعمل على الرقيِّ بهم كمواطنين كاملي الحقوق، وإمَّا أن تواصل في روحها اليمينية المتطرفة، وتزجَّ بهم ـ شاءت أم أبت ـ في خيارات قد لا يكون لها القدرة في التحكم فيها.

ثم إننا لا نلغي العلاقة بين ما وقع في فرنسا، وما يقع في سورية والعراق وليبيا والساحل... وغيرها، مما للمخابرات الغربية والشرقية يدٌ فيه، وللضعف الشرقيِّ مسؤولية أولى عليه؛ فأنت إذا شحذت السكين لتقتل غيرك، قد يتحوَّل إليك فيقتلك. والتلاعب بمصير الناس بدم بارد مما تأنفه القلوب العزيزة والعقول الفحلة.

ولا ريب أنَّ أهمَّ عملَين لازمَين واجبَين تعيَّن علينا الاستعجال بهما:

أولاً ـ في التربية والتعليم: نعتبر كلَّ تلميذ «إمكاناً مستقبلياً»، فإمَّا أن يصلح أو يفسد، وإمَّا أن يكون خيِّراً أو شريراً، نافعاً أو ضاراً؛ والطفل أثر من آثارنا، وبعضٌ مما عملت أيدينا؛ فعوض أن نخوض في معالجة المعلومات والأخبار بعاطفة، لزم أن نحرص على ما نملك أسبابه، ونستعجل تربية من بأيدينا من أبناء وتلاميذ وجيل قادم. ولم تفد سياسة النعام نعامةً، فكيف تفيد بشراً؟

ثانياً ـ في المستوى المعرفي: مِن المقرَّر أنَّ «البحث والدراسة»، وأنَّ «مراكز

الأبحاث والدراسات» ستمكِّننا من وضع الاستراتيجيات بناءً على معطيات صادقة، وإلَّا كان ما نأتي به مجرَّد تخمين وضربات لازب؛ وبناءُ مراكز بحوث حول «المغرب الإسلامي»، و«علاقة الإسلام بالغرب»، و«إشكالية الهجرة والتربية»، و«فقه الأزمة»... وما يمتُّ إلى هذه الظواهر البحثية بصلة، كلُّ هذا لنا فيه إمكان، وهو متيسِّر وذو ثمرة طيبة أكيدة. وإلَّا تركنا المجال بيد مراكز عالمية يعمل بها «مرتزقة» من أبنائنا، أو «خبراء» ممن يكيد لنا، وتجرَّعْنا الويلات من قِبلها ومن قِبلهم، من حيث لا ندري، أو من حيث ندري.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: 6/ 67]، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: 13/ 38]، وسوف تخمُد القضية، ويبرُد الخبر، وتعود الأمور إلى سالف عهدها؛ غير أنها لن تخلِّف سوى بقايا مما «ينفع الناس» أو مما «يضرُّ بالناس»؛ مثل نهر مرَّ من هنا، فترك علاماته ظاهرة فيما أصلح وفيما أفسد؛ أو مثل شمس محرقة زالت من كبد السماء، وقد خلفت حياة في هذه الجهة، وأورثت دماراً واحتراقاً في تلك الجهة من العالم.

ها قد مرَّ نهر الزمن، وحلَّ ليلُ العصر، ولا نسمع إلَّا صرخات من هنا وهنالك: وهي إمَّا للحياة والإحياء، وإمَّا للموات والإماتة «**ولسوف تُسألون**».

أريج من غصن أندلس الرطيب

حين يتسلل الزمان من بين أصابعك، وحين تدور عقارب الساعة في الاتجاه المغاير، وحين يتعانق نهرُ الماضي بشلال المستقبل على سفوح الحاضر؛ حينها تختلط على العقل الخواطر، وتمور على القلب المشاعر، فتروح الأبصار وتغدو بلا نظام يهديها، ثم تسمَّع الآذان شيئاً شبيهاً بالحنين تارة وبالأنين أخرى، فلا هو بِشدْو العندليب ولا هو بنواح الثكالى... هو شيء خليط بين هذا وذاك، يعرفه الضمير والوجدان وتجهله الأدلَّة والبرهان.

على مشارف «قرطبة» انتصبت الشمس دائريَّة كاملة القسمات، لا يدري الناظر المشوق أهي عنوان الغروب والأفول، أم هي دليل الشروق والمثول... أهو أوان موتٍ وفناءٍ لعصر غابر، أم هو زمانُ ميلادٍ لفجر حائر سادر؟

مهلا، إنه لأولي الألباب والبصائر كلُّ ذلك وجميع أولئك...

ولقد ـ والله ـ تزاحمت على بلاط الجامع «لامسكيدا» قبضةٌ من آثار طارق والداخل، وأثرٌ من خطوات شوقي وإقبال، ثم تلتها جعجعة وصخب من سوَّاح جاؤوا من أركان العالم الأربعة، بعضهم ـ وهم قلة ـ مولُّون وجوههم شطر المنبر والمحراب، وآخرون ـ وهم كُثر ـ رفعوا رؤوسهم وجهة زركشات الكنيسة «لاكاتدرال»، وتماثيل «السيد المسيح» المصلوب؛ غير أنَّ عيسى ومحمداً في صفحة الوجود إخوةٌ وأرحامٌ، يوقِدون مسيرة الحياة من مشكاةٍ واحدة، هي مشكاة التوحيد الخالص لله ربِّ العالمين.

من «نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي، إلى «نفح الطيب» للمقري التلمساني،

وما بينهما وثائق ومصادر عن تاريخ الأندلس وسقوط غرناطة، وما بين ذلك من آداب وروايات، لا يزال «هاتف من الأندلس» أبهاها وأسماها؛ جميعها سند وظهر للزائر المريد، وللمريد الحديد...

ولقد ألقيتُ السمع شهيداً، فتنادى إليَّ جيش من الرّبانيين ساجدين لله ليلاً بالصلاة والذكر والدعاء، وساجدين نهاراً بالهجرة والاجتهاد والجهاد؛ فاكتمل قيامُ الليل عندهم بقيام النهار، فلم يقطعوا ما أمر الله به أن يوصل؛ غير أننا ـ نحن الزوار ـ هنا، في هذا العصر القرمزي، بعضنا جاء من شرقٍ مسالم مستسلم، قد يكون فيه من يقوم الليل، غير أنَّ نهارنا بات باهتا شاحباً منهوكاً؛ أمَّا من جاء من الغرب البعيد، ومن اليابان والصين ممن رأينا ورافقْنا، أمَّا هؤلاء فهم قائمون النهار أبداً بالصناعة والحركة بلا عياء، ولكنهم للأسف ـ إلا قليلاً ـ لطَّخوا ليلهم بالموبقات والمنكرات، فراح الكثير منهم يقنِّنها ويجد لها مسميات وتعلات لا أصل لها ولا فصل...

أين منَّا من جمع القول بالعمل، وألحق بالحركة السكون... ففازوا ورشدوا، وكانوا عند الله من المهتدين.

وعلى أعشاب القصر المجاور، تضوع شتى ألوان الزهور، لتغمر المكان بأجمل الألوان عبيراً، لكنه عبير حزين وقد هجره أهله، ونسيه مَن أفلحه يوم كان بين الفلاح والفلاحة ترادف... وغرفُ الخدم، والحريم، والمطابخ، والصالونات، والحمامات... كل ذلك صار اليوم صامتا، حجراً، صلداً... لم يبق منه سوى العبرة والعَبرة.

و«مدينة الزهراء» كانت خاتمة العقد، فجُلّنا على جنباتها وصلنا، وقرأنا معاني الجلال والجمال على صفحات جدرانها الحجرية السميكة، وفهمنا رسائل من أنامل بُناتها كانت موجّهة لنا ولكل جيل بعدنا، لم يمحها التاريخ ولن يمحوها،

وهي تردّد بصوت جهور مقولتها الأبيّة: «هنا، سكن بشر عرفوا الله فعرف العالمُ شأنهم، ولما نسوا الله نسيهم وأنساهم أنفسهم»، ثم جاء توقيع البُناة على شكل عبارة فاضحة للمكامن، دليلها قول ربِّ العالمين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 3/ 140]. لا يكاد يراها أو يشم عبيرها إلا من قرأ الحال والمآل، بلسان البصيرة لا بعين البصر. الزهراء، تلك الشامة المثلى على جبين التاريخ، تحكي قصة حضارة بلغ الآفاق شأوُها وشأنها، وعمرت ثمانية قرون كاملة، بين كرٍّ وفرٍّ، بين إقدام وإحجام، بين نصر وهزيمة... ولكنها وقفت شامخة تعلِّم البشر وتشهد على ذلك ربَّ البشر، تشهده أنها كانت يوماً ما هنا، ولا ريب أنها ستعود يوماً ما إلى هنا؛ وهي واثقة أن القرار موقوف على قلوب الرجال وعقولهم: فإن هي تعلَّقت بالله الواحد الأحد حقّاً وصدقاً سادت وصالت ثم جالت، وإن هي ـ واأسفاه ـ هجرت طريق الله وأعرضت عن سبيل الله، تجرَّعت الندم علقماً، وشربت ماء الهزائم مرّاً.

وما بين قرطبة وقرطبة، وقفنا سريعاً على أديم «مورسيليا»، التي استقبلنا أهلُها استقبال الأحرار الأُباة، ومنها عبر «مونبولييه»، وقضينا ليلة لا تنسى في «برشلونة»، ثم وصلنا قرطبة، وقرأنا بعيوننا المتوفزة على علامات الطريق أسماء: «طليطلة»، و«إشبيلية»، و«غرناطة»، و«ملقة»، و«سرقسطة»، و«مايورقة»... وغيرها.

ثم حين العودة بتنا ليلة أخرى للعمر انضافت، في مدينة «مجريط» أو «مدريد»... ولا تزال أسماء فِرَق كرة القدم التي صارت أشهر من مدنها ترنُّ في الآذان، وتزعج العواطف، وهي عنوان عصر معولَم مقولَب، حتى اللعب صار فيه بارداً ثقيلاً لا حدود له ولا معاني من ورائه...

ثم دخلنا «مورسيليا» ثانية؛ ومنها وجهة مدينة «لِيل» بجوار الحدود البلجيكية، ولقينا بها أهلاً مثل الحمام يطربك ويسبي قلبك، ثم هو مع ذلك يشكرك، ولا يترك لك المجال فسيحاً لتعيد له معاني الشكر لفظاً؛ وما ذلك إلا لكرم فيهم مجبول...

ومن «ليل» إلى «باريس» حيث حططنا الرحل إلى جوار نهر «السان»، وأمام عيوننا «برج إيفل»، و«متحف اللوفر»، و«قصر فيرساي»... ومعالم كُثر، كان أمثلُها جمالاً «المكتبة الوطنية الفرنسية» (bnf)، وقد استقبلنا فيها أخٌ لنا عزيز، هو سليمان في حكمته وطلاقة ابتسامته وتواضعه؛ وقد تجوَّلنا بين الأرفف والأجنحة مثل النمل لا نترك شاردة ولا واردة إلا اعتصرناها، لعلنا نحملها معنا زادا ليوم الحرَّ أو لساعة القرِّ...

ثم في مكتب مؤسسة «إباديكا» قريباً من «الحي اللاتيني» جلسنا مع باحثين مخلِصين، يحفرون بين الوثائق والمصادر بلغة «العم سام» ليجعلوا من معاني حضارتنا لساناً كونياً، لا يقتصر على جغرافية ولا على زمان بعينه؛ وحول المائدة حوار صادق عن التراث، وعن التحقيق، وعن المنهج والمنهجية، وعن التعاون، والنشر، والقراءة... وكل ما يتردد من خواطر على بال المشتغل بالعلم هماً وهمة...

و«دار الجماعة»، و«جماعة الدار»، كلهم في صدق وصفاء استقبلونا، فاستمعوا وقالوا، ثم آووا ونصروا؛ والحق أني تلمَّست في عيون الشباب منهم قراءةً جديدة للزمن، ونظرةً جديدة للعالم؛ وحيرة وسؤالاً، وبحثاً عن المعنى حيث كان، بحرية وطلاقة لا يحدها وصف... ولعلهم هم عنوان المستقبل، ودليل الآتي... وجمال الأمل، وجلال العمل.

وتبقى «مرسيليا» محطَّ الأنظار والأفئدة، بأهلها من كلِّ جنس ولون، منهم ناس شمَخوا، وناسٌ آخرون تشبثوا، وفريق ثالث استسلم للواقع ولسكر الحياة؛ إلا أنَّ ما كنَّا فيه كان مختلفاً، ففيه معاني «الأنا» الذي يذيب «الأنا»...ليؤسس معلماً وضاحاً اسمه «النحن الجديد» ـ بلغة طارق رمضان ـ وهو لا يبالي ولا يقبل أن يخيَّر بين «الإسلام» وهو دينه، و«فرنسا» وهي موطن رأسه... ولعل بذور الغد المشرق تنتش، ثم تهتز الأرض وتربو على إثرها، وتنبت بعدها من زوج بهيج...

لعلها ستسقي الكون «طعماً حلو المذاق» من يد متوضئة طاهرة، لا تريد للناس إلا المحبة والأمن والأمان...

خواطر مختلطة، كتبتها على صهوة حصان الترحال، وعلى عجل، وقد رافقني صديق حميم، وابن خال كريم، رافقني، ورافقت زوجه زوجي، في «رحلة العمر»: عمرةُ الغرب الشبيهة بعمرة الشرق... والعمُرة عمرات، لمن فتح الفؤاد على مصراعيه لألوان الخير وأصناف البر... وهي أكثر من ذلك لمن «ألقى السمع وهو شهيد»، ولمن «مشى في مناكبها وأكل من رزق الله، وآمن أنَّ إليه النشور»، ولمن «سار في الأرض لينظر كيف كان عاقبة الذين من قبل»...

فاللهم رحماك... ومعيتك... ورعايتك...

الملحق

رسالة وجواب، مع الأستاذ محمد عدنان سالم

الأخ الدكتور محمد باباعمي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عندما توجهت لزيارتكم في استانبول، كان الشوق إلى لقائكم، وتجاذب الحديث حول رواياتكم خاصة، والشأن الإسلامي عامة، غاية ما أصبو إليه.

لم يدر في خلدي أن برنامجاً للزيارة ـ لا يتضمن شيئاً مما توقعت – قد أعد لي، وأن مفاجآت تنتظرني؛ سوف تجتث كل ما يلوح في الأفق العربي والإسلامي من عجز وفوضى وإحباط، لتضع مكانها أملاً عريضاً، واثقاً من أن بواكير نهضة العالم الإسلامي قد بدأت تباشيرها تتحقق بخطى حثيثة على أرض الواقع.

لقد كنت دائماً أنظر إلى التجربة التركية على أنها: ثانية تجربتين نهضويتين إسلاميتين؛ إلى جانب ماليزيا، والأولى من حيث: الأناة والتخطيط بعيد المدى:

1 – لاحتواء أشرس نظام علماني أدار ظهره للقيم الإسلامية وحاول اجتثاثها.

2 – الإصلاح الشامل والالتزام الصارم بالقوانين، ونبذ العنف في الصراع السياسي الداخلي.

3 – والاعتراف بالآخر شريكاً يتحاور معه؛ لإقناعه، لا لإلغائه.

4 – والإخلاص لله في العمل بعيداً عن التبجح وطلب الشهرة.

5 – والتطبيق الفعلي للنظر على أرض الواقع.

لكن ما عاينته خلال زياتي القصيرة ـ على قلته ـ قد أكّد لي البُعد العالمي لهذه التجربة الواعدة، وأن عينها المفتوحة على الواقع المحلي القريب، لا تحجب رؤيتها العالمية بعيدة المدى، وأن مراصدها الكونية جاهزة لالتقاط أي حركة في العالم (الإسلامي وما وراءه) توفر فرصة سانحة لها لأداء رسالتها العالمية، وأن كل ما يطفو على السطح من حركات الربيع العربي لا يعدو كونه ردات فعل عشوائية؛ يعوزها التخطيط والوضوح والضوابط التي تحول دون انحرافها عن مسارها، أو استغلالها وتوجيهها من قبل دوائر استعمارية متربصة، لتقوم بدور المنفعل بدلاً من الفاعل.

لقد شغفتني التجربة، وفتحت شهيتي للاستزادة من المعلومات حولها، فلقد كنت أعلم بداياتها عند بديع الزمان النورسي وحركته التي لا تزال تشغل الجانب الدعوي ـ كما أتصور ـ ونهاياتها عند أردوغان وأداء حزبه المميز في الجانب السياسي. ولم أكن أعلم عن الأستاذ فتح الله كولن أكثر من أنه باحث في الشأن الحضاري الإسلامي، ينضم إلى كوكبة الباحثين المميزين فيها، أمثال مالك بن نبي، وعبد الوهاب المسيري، وجودت سعيد، وعلي عزت بيجوفيتش.

وها أنذا ـ من خلال ما زُوِّدتُ به من كتبه، و من كتبك حوله – أدرك دوافعك وزملاءك للهجرة إليه، وحفرياتك الرائعة حول فكره وأدائه العملي في بناء جيل التحضر والنهوض، وإطلاقه في الآفاق يتلو فيها آيات الله ، مترجمة إلى لغة الفعل البصير؛ التي يقترن فيها العلم بالعمل.

وها أنذا ـ من خلال الجرعة العابرة التي زّودتني بها ـ أتوق للمزيد من الجرعات؛ وليكون لي شرف الالتحاق بالركب الميمون، والإسهام بنشر فكر العلم والعملِ الذي به سوف تشرق شمس الحضارة من جديد، بعد طول أمدِ ليلٍ حالكِ الظلام.

ولك خالص مودتي.

محمد عدنان سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذي العزيز، الرائد الصادق، الأستاذ محمد عدنان سالم

استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: 2/ 283]، وحتى لا أكون من الآثمين، أقول:

من خلال جهودكم المباركة عرفت شرائحُ الأمة جميعها خطَّ الوسط، واستوعبت معنى الوسطية، فكان ما تنشره دارنا «دار الفكر»، علامةً فارقة في الطريق، ومعلماً بارزاً ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 25/ 62] ؛ والحق أنَّ كثيراً من الشباب مدين لك وللدار بالفضل في الاهتداء إلى المسلك السديد، والنجاة من الغلو بجميع أشكاله... ولا يمكن لأحد أن يعدَّ أفضال جهودكم الطيبة، وحسبنا قوله سبحانه: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 58/ 6].

أما ما ذكرتم من أمر تركيا عموماً، والخدمة بالخصوص[1]؛ فإني آمل أن نعمل على تأسيس جسر متين، بين تمثلاتها وتمثلاتكم، بين أنفاسها وأنفاسكم؛ ذلك أني وجدت بحمد الله في «الخدمة»، بعد جملة من أسفار إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ من أستراليا وإندونيسيا، إلى أمريكا وكندا... وما بين ذلك؛ وجدتُ ضالتي في «الخدمة»، التي هي أساساً ليست «حركة» ولا «جماعة» ولا «حزباً»... وإنما هي «حركية وفكرة» تنبض بالحياة، و«نموذج» يشرق بالأمل، و«هجرة» مباركة تفتح أغوار القلوب، ولا يعنيها فتح سفوح الجغرافيا...

(1) أنشر هذه الرسالة وجوابها، وكلي ألم عما آلت إليه الأوضاع في تركيا، سائلاً الله تعالى أن يفرج عنها وعن المسلمين جميعاً، ولا بد من اعتصار العبر، ومواصلة المسير.

نعم، أودّ أن نوجِد سبلاً للتعاون، ذلك أنه في منطق «الخدمة» نفسها، أنتم وما تسدون من خير وبرّ، كل ذلك «خدمة» ولا عبرة بالألفاظ والمصطلحات، ولكن العبرة بالمعاني والمحتويات؛ وثقتي قمينة أنَّ مَن تشرَّب فكر مالك بن نبي، وعلي عزت بيجوفيتش، والمسيري، وجودت سعيد، وجيفري لانغ ... ثقتي أنه سيجد ضالته في الخدمة ظلاً لذلكم الفكر، وأثراً لتلكم الأرواح، وثمرة لأولئكم المكابدين...

ولذا، أجد من اللائق تنظيم يومين كاملين في استانبول، قد ننتقل ـ خلالها ـ إلى بورصة أو أنقرة أو إزمير... لمعاينة التجربة ميدانياً، والالتقاء بالأصناف المنفقين، وبالأساتذة المرابطين، وبالرواد الخريتين... وأترك لكم حقَّ اختيار الزمان، ثم نتداوله بحول الله، وسيكون من المفيد أن يكون معكم وفدٌ ممن تثقون فيهم، وممن تتوسمون فيهم خيراً، من المفكرين أو من المنفقين... وكل ذلك قابل للتنظيم.

والهدف من الزيارة، ليس مجرد المعاينة، لكنه هدف عمليٌّ حركيٌّ دعويٌّ، ينتهي بجملة من المقترحات، والبرامج، التي بحول الله تعالى تكون نافعة وفعالة، سواء لبلدنا الحبيب سورية، أو لما يبلغه أثركم من سفوح جغرافية العالم، عبر الكتاب، والنشر، والتوزيع، والإعلام... وغيره.

دمتم للداعي لكم بالخير،

محمد باباعمي

مسرد
المصطلحات والمفاهيم

المصطلحات

إبرة بوصلة القلب

الاجتهاد الفكريّ والفعليّ

احترام كرامة الإنسان

اختبار حضاري

الآخر

الإخصاء الحركيّ

الإخلاد إلى الأرض

إدامة المعنى

إدانة الإسلام والمسلمين

إرادة الإنجاز

أرباب (المستوى، الهَمّ)

إرجاع الفعل إلى فكرته

الازدواجية المبدئية للعالم

الأزمات المعرفية

أسباب (الحضارة، القطيعة)

الأسباب (السَّننية، القريبة، الكبرى)

الاستبغال الفكريّ

استجارة الناس

الاستجداء الفكري

الاستماع إلى صوت الضمير

الاستهجان المنهجيّ

استيقاظ الوعي

الإسلام كحركة ثقافية

أسلمة العلوم

الأسئلة الجديدة

أسئلة الوجود

الاشتغال الزمنيّ

إشكالية الهجرة والتربية

أصحاب المعرفة

اعتبار المآل

الاعتباطية

الأعراض والجواهر

اغتيال «الآخر المختلف»

الأفكار الحية المحيية

الأفكار المخذولة، والأفكار المطبوعة

الاقتصاد البورجوازي

الاستعماري
الاقتطاع الزمني
الإقصاءات
الأكاديميا
الإلف والتبلد
آلهة من الحلوى
آليات للتفعيل والفعالية
الأمر التشريعي، والأمر التكوينيّ
الإمكان المستقبلي
إمكانات الإنسان الفطرية
أمواج القاع
الأميبيا
أنا (المجرَّد، الأنا الفردي)
الآنات، الأنانيات
الأنانية والفردانية
إنتاج المعرفة
الإنجاز العلميُّ ـ المعرفيُّ
انحراف توحيديّ
انحسار الحريات
الإنسان (الأوَّل، المشروط)
الإنساني
الإنسانية المنهوكة
أنسنة التعليم، أنسنة العالم
الانفصال عن الروح
انفصام الذات
الإيمان الفعال
باب العمل
الباحث المرتقَب
باربي المتحججة
البداوة
بذور الرشد
البراجماتية المادية
براديجم
بركان التشاؤم
بَركة الدرس
البرمجة الزمنية
برودة الانفصام عن الزمن
البشرية الحائرة
البعد التوحيديّ
بلوغ «حال الرفاه الكلي»
بناء (الحضارة، النموذج، بناء معرفي/ حضاري جديد، فكرٍ على فعل)
بؤرة تفكيري
البوهيمية
بيان المبنى
التأمل في الصلاة
التبعية الحزبية والإيديولوجية

تجديدُ الفكر الديني
التحدِّي المعرفيُّ والحضاريُّ
تحري الصدق
تحريك مقدَّرات الزمن
التحليق اتباعاً لأسباب المعنى
تحوُّل السلطة
التحيُّز
التداول المعرفي
تدريب البشر
التديُّن الصادق
التذكير بالإمكان
ترسُّبات الأفكار المطبوعة
ترشيد المتصابي
التسليم لله
التسول الثقافي
تشارك الفكر والفعل
التشغيل
التشييئ
تصحيح المفاهيم
تطوُّر العلوم
التعالي الاستشراقي الغربي
التعليم المستبد
تفرُّق العقول
التفعيل
التفكير (المزدوج، المستقيم)
التفكير في البديل
التقريد الفوتوغرافي
تقرير الحكم
تكاملِ الحياة والإنسان
التلازم الرياضي (الاجتهاد، والحرية، والتسليم لله)
التمثُّل الخلقيّ والعمليّ
التناسب والتناغم
التناقضُ الداخليُّ
التنزيل
التوبة الحضارية
التوجه التوافقيُّ المنهجيُّ
التوجيه النظامي
توصيف الأزمة
التوفيق والمعية
التولُّد أو الانبثاق
تيار الواقع
الثقافة الجديدة
ثقافة الصلاة
الثمرة الدنيوية والاستخلافية
ثمرة جهود جماعية
الثنائيات
ثنْيِ الركبة والجلوس إلى المعنى
الجانب البرَّاني للإنسان
جدلية الدعم

جدلية مركَّبة
جغرافية الأرض
جماعة الدار
الجماعة (العلمية، الوظيفية)
جهاد التربية
الجهل المغلَّف
الجواب النهائي الشافي
جوهر (القرآن، الأشياء)
حالة («اللفظ»، الانتصار والنصر، التحول من المعطى المحليِّ إلى المعطى الكونيِّ، التخلف والتشرنق والانهزام، ذهنية وجودية، نماذجية مِفرقية)
حبُّ التفوق
حتمية الطبيعة
حجَر الفلاسفة
الحدُّ الفاصل
الحراك
الحرفية الساخرة
الحركة
حركة (البضاعة، التاريخ، إيجابية خيرة بنَّاءة)
الحركية
حركية (التاريخ، الحضارة الإنسانية، الصلاة، الفكر والفعل)
حرية (الاختيار، العقل)
الحرية والإرادة
حضارة الصلاة
الحضور الجزئيَّ
الحفر (بحثاً عن المنظومة، في المعنى)
حقيقة (التغيير، الغيب)
الحقيقة والصورة
حكم الدار
الحكمة والخلق
الحلُّ الواحدُ
حلقات «بنيَّة العمل»
حلول الاستعباد
الحلول المطلقة النهائية
الحلولية
حوار الذات
الحوسلة
حياة الفن
حيرة السؤال
الخرِّيتية
خصائص الرشد
الخصوبة والعقم معرفياً وفكرياً
الخط البياني
خطابات (شمولية- إقصائية - راديكالية)
خطِّي المنهجي
الخلائف

الخيرية (خيرية الأمَّة، خيرية الدعوة)
دفقة التملك
الدلالة التصديقية
الدم الجديد
دوامة التبِعات اليومية
الدور والتسلسل
الدونية
دينٌ خالص
الذاتُ (الحضارية، المشوَّهة)
ذات القرآن
ذاتية اتباع الأسباب
ذاكرة العالم
ذبذبة الرضا
ذروة المعنى
الذَّرية واللفظية
ذُهان (الاستحالة، السهولة)
ذهنية («البوب»، «الفايسبوك»)
الراصد
الرأي الفعَّال الفاعل
رباعية (الإجارة، والإسماع، والتأمين، والتعليم)
الرُّبَّانية
الربط واستثمار العلاقات
الرساليَّة
الرشد
الرواد الشهداء الراشدون
الروح الجماعية المؤيَّدة بنصر من الله
روح (السؤال، الصورة، العصر، العقيدة، المجاهد، التنافس)
الروح، والمادة
رؤية الكون
زرع التفاؤل
الساعات الوردية
السباحة ضدَّ التيار
سبب الأسباب
السبهللة
السعادة المطلقة
السكون
السكون الهادئ
السكينة
السلطة
سلطة (المعرفة، المعنى)
السلَّم الأعلى من الإدراك
سلَّم المافوق «الميتا»
السلوك الجشع
سيمفونية (الحركة، الزمان والمكان)
سؤال (الأزمة، الحيرة، العلم، العمل، الكتابة، المرحلة)

السياق الملزم
سياق (توافقيٌّ، حضاريٌّ مهترئ، خصب)
شباب «الخدمة»
الشخصَ ـ الصنمَ
شرف العبودية
شروط التمكين
شعلةُ السؤال
شفرة الإسلام
الشكر على المرحلة
الشهود الحضاري المنشود
صبغة الله
الصبيانية
الصراع (الفكري، بين التناقضات)
صفات الأصحاب، صفات الأعراب
الصفات الإيمانية، الصفات الكفرية
صفة المعيارية والارتكاز
الصلاة باعتبارها رؤية كونية
الصلاة وتنظيم العالم
الصلاحية
صلة الحادث بالقديم
صناعة (الإنسان الراشد، الصور الذهنية، العميل، الفعل الحضاري، المعرفة، الموت)
صوت الضمير
الصور والتمثُّلات
الصورة الإدراكية
الصورة هي الحقيقة
الضبط والوضوح
ضريبة الواقع
ضغط (الروح، الواقع)
الضلالة والهداية
ضياع البوصلة
ضيقُ الأفق
الطاقات المعطَّلة
الطاقة الحركية
طاقة فاعلة
الطرح المجتزَأ
الطريق الثالث
الطفولية
العادة والروتين
العالم الجوَّاني
عالم المعنى
عدم الانتماء
عرائس القراقوز
عرَض الأشياء
عرض الفكرة على الحدث
العطَل
العفن
العفوية
العقل (التوليديَّ، الجمعي، الفوتوغرافي،

المؤيَّد المولِّد للفعل المؤيَّد)
عقلية العابد
عقوبات (إنسانية، لاإنسانية)
علاقات الاستهلاك
العلَّة الداخلية
علم الصلاة
العلم العادي
العلم والعمل
العواطف الجماهيرية القاسية
العوالم الثلاث (الأشياء، الأشخاص، الأفكار)
عين الحقيقة
غايةُ الغايات
الغلو في المادة
غياب المرجع
الفُرُط
فساد الأخلاق
فصل القول عن العمل
الفعالية
الفعلُ المجرَّد، والفعلُ المؤيَّد
فقدان (الإرادة، الوجهة)
فقه (الأزمة، الأمانة)
الفكر الواحد (ذو البعد المسطَّح)
فكرة التوحيد
الفكرة الصالحة
الفهم
في البدء كان الوعي
القابلية (للاستعمار، للرشد)
القواعد الكلية
قوانين الحركة الثلاثة
قوَّة النفس
كبَد ومكابدة
الكرامةُ
الكفاءة
الكفالة الاجتماعية
الكلُّ النافع في مكانه وزمانه
اللاأدرية الحركية
اللاسلطة
اللانهايات
لحظة فارقة
اللغة والإرادة
اللفظ والوجود
ما بعد النهضة
ماركة حضارية
الماوراء
مبدأ (التفاعل الذاتيّ، التوازن في الصلاة، الحركة، عدم التناقض)
المبنى
متطلبات (الروح، المادة)

المتفرِّغ الدائم
متقلبات الواقع
المتمرّد على المألوف والنمط
مثالي طوباوي
المثقف والسلطة
المجال الجوَّاني للإنسان
محاربة الاستحالة
محاورة (الداخل، الضمير)
محطُّ الرسالة
محلُّ (الاجتهاد، الاختبار)
المحليَّات الضيِّقة
محلية (الفعل، الفكرة)
محن الزمان
مخالفة الحكم الجائر
المخيَّم العلميّ: هزارفان
المدارس العلمية
المدرسة الاستشراقية
مراجعة الذات
المراقبة الاجتماعية
مراكز البحث والتفكير
مرتبة الكمال
مرحلة السؤال
مرض سوء الإدارة
مركز للتفكير الدائم المتواصل
مسار الواقع
المستوى الأخلاقي
مشكلة الزمان
المصابرة
مصباح اليد (نظرية)
المصير والمسير
المعارك الخفية
المعايير
المعرفة/ السلطة
المعطى الكوني
المعنى الإيماني
معنى الصلاة
المعنى والمبنى
مفاتيح (الشهادة، العقول، القلوب)
مفهوم الألوهية
مقام (الاستسلام، الجمع، الرشد، الرضا، الشكر، القطع، الوصل)
مقدِّمة الفعل
المكابدة والمجاهدة
ممارسة معرفية منفتحة
مناهج (إدارة البحث العلميِّ، البحث الجماعي، تفعيل المعلومة)
المنبوذون
منطق («إطفاء الحرائق»، منطق العصر، المنطق القرآني، منطق ومعقولية)
المنطلق (الرساليُّ، القرآني)

المنظومة التوحيدية الرشيدة
منظومة (الهلاك والاستهلاك، الهيمنة)
منهجُ حياةٍ
المواطن المثالي
موتُ (الأمل، الفكر)
موقف الإسلام من العالم
الموقف العقلاني
موقف بطل، وموقفٌ بطولي
النافعية
نبضات قلب الأمَّة
النحن الجديد
نسخة نصرانية من الإسلام
نسيج «المعرفة البشرية»
النسيج (الاجتماعي، الحضاري)
نظرة ديناميكية
نظرية انبثاق الطاقة والحركية من العلاقات
نظرية متكاملة المعالم
نفعي براغماتي
نقطة الانعطاف
نقطة المعنى
النماذج (الإدراكية، الشمولية)
نمط يهودي أرضي
نمطية وظيفية قاتلة
نموذج (الرشد، السفينة)
النموذج العضوي المفتوح
نموذج الوادي المقدَّس
نموذج معرفي حضاري
نوبل الجزائر
الهجرة الاختيارية
هزُّ جذع النخلة
هوية الإنسان
الهيمنة المركبة
الواردات الأربع (العقل، والقلب، والضمير، والحواسُّ)
الواسطة (الحدث، والمحدَّث، والتربة الصالحة)
الوجدان
الوجه الآخر للبترول
وجودٌ خارجيٌّ
وجودٌ ذاتيٌّ
ورثة الأرض
وسائل النهوض بالعلم
الوعاء الحضاري
الولاء المزدوج
ولع المغلوب بالغالب
وهم (الاستغناء، الاكتمال)
يوم الجزاء والعرض الأكبر

مسرد الأسئلة

- إذا كان العلم ضرورة للخروج من حال الأزمة، هل أداؤنا اليوم مكتملٌ، بصيغة «الجماعة العلمية» المسؤولة الواعية؟

  إذا كان توفير الغذاء مسؤولية المزارع، ومداواة المرضى مسؤولية الأطباء، وبناء العمارات مسؤولية المهندسين والبنائين؛ فشأن الحضارة يقع على عاتق مَن: المثقفين، السياسيين، عامَّة الناس، الجميع...؟

  إذا كان غذاء « KFC»، أو «الماكدونالد»... من حيث الرقابة الفقهية حلالاً، فهل هو من حيث المنطلق العقديُّ من نوع الغذاء الحلال؟أم أنَّ «الحلال» هنا صار وسيلة لتبرير منظومة «الاستهلاك والهلاك»، على حساب القيم والحرية والإرادة؟
- إذا لم تسهم المدرسة بصفة مباشرة ومعلنة في «ترشيد» هذا «المتصابي»، وفي «إنضاج» هذا «المهدَّد بالتشتت والتشرذم والانهيار الجوَّاني»، فما دورها إذن؟ ولماذا أنشئت أساساً؟
- إشكالية حالنا اليوم: بين الرؤية المتشائمة، والرؤية المتفائلة، أيهما أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً؟
- ألم تكن الحرية فارقاً بين آدم ﷺ، قبل الامتحان، وأبينا آدم ﷺ، بعد الامتحان؟ أو لم تكن فرقاً جوهرياً بينه وبين الملائكة حين أسجِدوا له؟ ألم يعترضوا على ذات الحرية، التي قد تحمله على الإفساد في الأرض، وسفك الدماء؟
- أليست الحرية هي الحدُّ الفاصل بين «الإلهي» و«الإنساني»؟
- أيَّ تعليم نمارس؟
- أين منَّا من جمع القول بالعمل، وألحق بالحركة السكون... ففازوا ورشدوا، وكانوا عند الله من المهتدين؟
- أيهما أشدُّ حضوراً، وأظهر أثراً، وأكثر نديّاً: التفكير المستقيم، أم التفكير المزدوج؟ الواقع القيِّم، أم الواقع الأعوج؟

- تُرى هل وفِّقتُ في ركوب نهر الزمن؟ أم أنني ترنَّحت وانحرفت عن الخطِّ؟ كم مرَّ من عمري، وكم بقي منه؟ وهل سيُكتب لي حسن العاقبة، أم أنني أفتن في آخر منعرج من حياتي؟ وهل كان لوجودي في الحياة أثرٌ على الخلق، نفعاً وبرّاً وإحساناً؟ أم أنني كنت ولا أزال عالة على العالمين، ضيفاً ثقيلاً على الثقلين؟ ولو خيِّرت بين حياتي هذه، وحياة جديدة أقودها، هل سأرضى بما أنا عليه، أم أنقم منه؟
- ثم ماذا عن الجوِّ العامِّ في الجزائر، هذه الأيام، خصوبة وعقما؟
- ثم هل فكرة «بذور الرشد» بما بُذل ويبذل فيها من جهد فكريٍّ وإمكان ماديٍّ معتبر؛ هل ستحمل بذورَ عصرٍ جديد للتفاعل مع كلام الله تعالى «بنية العمل» تفاعلاً «جمعياً جماعياً» مؤسساً على «سؤال الأزمة» مدركاً لثقل المهمة، مؤيَّداً بحبل من السماء؟ أم أنها ستتحول إلى «برنامج آلي» و«لقاءات مطالعة وقراءة» ثم إلى مخرجات إعلامية مفيدة، غير أنها تكون دون المأمول، وتكون أقل من حجم التحدي بأشواط؟
- صور لي «جزائرك» على أيِّ شاكلة تراها، وفي أيِّ صورة تتمثلها... أتَرَاها مثل هذا الكأس الممتلئ الطافح الراشح... كلُّه خير في خير؟ أم تُراها أشبه ما يكون بهذا الكوب الفارغ، المقلوب، الثرثار، المنتكس؟ أم أنك، مثلَ الكثيرين من أبناء جلدتك، تصوِّرها «نصفاً فارغاً، وآخر أسود»؟
- كم هو إحصاء «الجوائز العلمية» المعتبرة في بلادنا العربية؟ وفي الجزائر بالذات؟
- كم هو تعليمنا «إنسانيٌّ»، وكم هو غير إنسانيٍّ؟ وكم نحن جادون أو غير جادين في «أنسنة التعليم»، بروح «ولقد كرَّمنا بني آدم»؟
- كيف أطالع كتاباً مع ضمان الفائدة القصوى؟ وما هي أساليب الاختصار والنقل والتلخيص؟ وماذا آخذ وماذا أترك؟ وكيف أضمن أني استوعبت محتوى ما طالعت؟
- كيف تتم العلاقة بين الحركية والفعل بفعالية؟
- كيف نبلغ مقام الشكر، ونكون من القلَّة، ولا نغفل عن «شكر المرحلة» لبلوغ الشكر التام الكامل المرجو عند الله تعالى؟
- كيف نثبت على «الاستقامة»؟ وكيف نَقبل أن نشيب في طِلابها أسوةً بسيِّد الخلق ﷺ، يوم قال: «شيبتني هود وأخواتها»؟

كيف نجعل كلَّ الكتب، والمقالات، والمحاضرات، والمواعظ، والمقولات، والنظريات... تنتهي إلى آليات للتفعيل والفعالية، لا إلى توصيات ونصائح لا تمتُّ إلى الواقع بصلة؟

- كيف نجعل من العقيدة وقوداً للحياة، لا مجرد محفوظات، ونصوصاً تسكن الركن الخامد مِن عقولنا وقلوبنا؟
- كيف نخفف وهمَ الاكتمال من نفوسنا، ومن نفوس أبنائنا، وشبابنا وشاباتنا؟ وكيف نوجه حبَّ التملك لديهم، حتى لا يُطغيهم القليل ولا الكثير، ذلك أنَّا سمعنا ربنا يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 96/ 6-7]؟
- كيف نفسِّر النظافة الملازمة للفرد «الكوبي»، والشارع الكوبي، والمدينة الكوبية؛ رغم أنَّ كوبا كانت شيوعية، فقيرة، ولا تزال؟ والسؤال ذاته عن البلقان، التي هي محور صراعات وحروب لم تنقطع، ومع ذلك فهي نظيفة وجميلة؟
- كيف نفهم احترام كرامة الإنسان، والاعتراف بحقِّه في الحياة، هنالك؟ في مقابل اعتقاد ضرورة اغتيال «الآخر المختلف» بشتى الطرق البشعة والظالمة، هنا؟
- كيف نفهم الوسخ الملازم للإنسان العربي (المسلم)، وللشارع العربي (المسلم)، وللمدينة العربية (المسلمة)، من طنجة إلى جاكارتا؛ مع استثناءات تعود إلى ظروف عولمية غير طبيعية في بعض البلاد الثرية الصغيرة؟
- كيف ننطلق من أسماء الله سبحانه، ومِن صفاته جلَّ شأنه، لنكونَ رقماً حقيقاً في عالم بني البشر، لا مجرَّد دوابَّ وهوامَّ تسام وتذاق سيما الخسَف؟
- كيف يفسَّر المستوى الأخلاقي للفرد الياباني مع غياب الدين؟
- كيف يكون الترتيب؟ وبمن نبدأ أولاً؟ أبالعالم أم بالعابد؟ أبصاحب السيادة أم بصاحب الآية؟

كيف يمكن أن نعيد الرابطة بين «معرفةٍ» نمارسها، وبين «سلطة» نبتغيها؛ لا بمدلولها السياسيِّ، فذاك آخِر همومنا، بل هو ليس البتة من همومنا؛ وإنما السلطة بالمدلول الفكري، والحضاري، والثقافي، والتربوي...؟

- لماذا تركَنَا الفنُّ يتامى على مائدة اللئام، نتجرَّع الردَّة والرداءة، ونبكي حظنا كلَّ حين؟

- لماذا غاب الفنُّ من قاموسنا؟
- لماذا لم يَصقل ذوقَهم دينُنا الحنيف؟ لماذا لم يتعلَّموا مِن التوحيد الكرامة والحبَّ، ومن الوضوء النظافة، ومن الصلاة النظام، ومن الحج العالميةَ والاتفاق، ومن الزكاة الرحمة والشفقة والكفالة الاجتماعية؟
- ما الذي جعل الصين تقفز فوق الغرب، وتتفوق عليه؟
- ما الفائدة المرجوَّة من الدروس والمحفوظات التي تلقِّنها تباعاً؟
- ما الفائدة من تأليف عملٍ علميٍّ ضخم، شهير وبديع، ثم إفراغ الجهد في نشره وتوزيعه وتبليغه إلى أقاصي الدنيا؟ ما الفائدة من كلِّ ذلك إذا كنتُ مع كلِّ ذلك غير راشد، أو كنت وقد دام أثري في عداد الفانين أتجرَّع الغصص والندامة في عالم البقاء... هنالك؟!
- ما حدُّ مسؤوليتنا في استجارة الناس، وإسماعهم كلام الله، وتأمينهم، وتعليمهم؟ ما حقوق الإنسان؟ وأي إنسان؟ وبأيِّ معيار؟...
- ما حقيقة علاقتنا بالغرب؟
- ما سبب الموقف العقلاني الذي أدى بشريعة الإسلام عملياً إلى حالة من الجمود؟
- ما هو التفسير الفلسفي للحركة؟ وكيف نفسِّر الحركة؟
- ما هو مبدأ الحركة في بناء الإسلام؟
- ما هي المصادر التي تشفي الغليل في بيان روح العقيدة، وفي نشر أريجها الفواح على سفوح الضمائر العطشى؟
- ما هي بؤرة تفكيرك؟ وما هو خطك المنهجيُّ؟
- ما هي جرعات الإيمان الفعال التي يتلقاها أبناؤنا على مقاعد المدارس، وعلى مدرَّجات الجامعات؟
- ما هي جرعات الإيمان الفعال التي يتلقاها أبناؤنا على مقاعد المدارس، وعلى مدرَّجات الجامعات؟
- ماذا عملت فيما علمت؟
- ماذا يعني غيابكم هذا؟ وهل لديكم من مبررات؟ لماذا لا تنقدون ذاتكم الحضارية بروح من المسؤولية والوضوح والصدق، بغية اجتثاثها من وهدة التخلف والتبعية؟ ولماذا الناقمون يعملون وينشرون، وجلُّكم ـ أنتم الأصلاء ـ مكتّف الأيدي، مستهلك، أو مردد للكلام بلا أثر؟

- «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».
- متى تخلف المسلمون؟!
- المثقفون: كيف نعرِّفهم؟ وكيف نحدِّد دورهم؟ وكيف نضبط وفاءهم ونكتشف خيانتهم؟
- مَن منَّا لا يعنيه حال الأمَّة ومستقبلها، وحال الذرية وصلاحها؟
- مَن يجرؤ على «السباحة ضدَّ التيار»؟ ومن يقدر على مخالفة الحكم الجائر، وبيان بعض الجوانب الإيجابية من واقع المسلمين، حتى ولو كانت قليلة؟ ومن ينفِ عن المسلم صفة الإرهاب، والتخلُّف، والتبعية؟ ومَن هذا «الوقح» الذي يكذِّب ما تنفثُه سموم وكالات الأنباء والقنوات والمواقع العالمية؟ ومن ذا الذي يذكر حادثة واحدة، أنه في يوم من الأيام قابل أسداً غير شرس، أسداً وديعاً؟
- مَن يكون الممثِّلُ الشرعيُّ للشرق إذا لم يكن ذلك الغرب المسيطِر المهيمن؟
- هذا الكمُّ الهائلُ من الكتب والمؤلَّفات، ومن المقالات والتحقيقات، هل يُسهم في الغوص في «سؤال الأزمة» حقّاً؟ أم أنه يشتت السؤال إلى أسئلة لا متناهية؟ أم أنَّ السؤال يغيب من منطقها غالباً؟
- هل أدَّيتُ واجبي بما أكتب؟ وهل أرضيت ربِّي؟ وهل نفعت عيالَه وخلقه؟ وهل زرعتُ الكلمة الطيبة في حقول البشر وسهوب البشرية؟
- هل إشكالات الواقع اليوم، تنتظر حلولاً من خارج دائرة العلم؟
- هل الإنجاز العلميُّ- المعرفيُّ وليدُ عمل فرديٍّ؟ أم هو ثمرة جهود جماعية، مؤطَّرة ضمن «جماعة علمية»، محكَمة العلاقات، متينة الروابط؟
- هل السياق الخصب شرط حديٌّ أساسٌ للإثمار؟
- هل العادات والقوانين التي لا تزال تهزُّ الجاليات المهاجرة هنا في فرنسا، توقَّفت عن ممارسة العنصرية؟
- هل الغرب بالنسبة لنا شمس؟ أم شمعة؟ أم ظلمة؟ أم هو شيء آخر؟
- هل الفكر الإسلاميُّ في شقيه – النظري والزمني – يميل إلى السكون والثبات؟ أم أنه ينحو نحو الحركة والتغيُّر؟

- هل المسلمون، فيما هم فيه اليومَ، مجرمون مذنبون، أم هم الضحايا المظلومون، أم هم مزيج بين ذاك وذلك؟
- هل انتقل المستعمِر الفرنسي إلينا مجرَّداً مِن سلوكه، أم أنَّه نشر «وباء البوهيمية» في أوساطنا، فباض بعد أمد، وفرَّخ، ثم ترك آثاراً لا تمحى في الأنفس وفي العقول، وفي دنيا الناس؟
- هل بمجرَّد أن يسجَّل اسمك تحت خانة «مسلم» تصبح مستسلماً لله، مسالماً لعباده، أي «مسلماً» اسماً ومعنى؟
- هل تجد نفسك منتم إلى «جماعة علمية»، في مجال تخصُّصك؟
- هل تحسُّ أنَّك كَافٍ بمفردك لحلِّ «الأزمات المعرفية» التي تعترض مجال تخصُّصك؟
- هل تسلَّم «الجوائز العلمية» عندما يتقدَّم العلم، ويتصف بالنضج وبالرسمية العالية؟أم أنَّ «الجوائز العلمية» سبب لتطوُّر العلوم، ووسيلةٌ من وسائل النهوض بالعلم في أمَّة ما؟
- هل توجد علاقة بين المعرفة والسلطة؟
- هل توجد علاقة تلقائية أوتوماتيكية بين عقيدتنا وسلوكنا، بخاصة أوان الفتن؟
- هل خصَّص الإعلام للإيمان مساحة، ولو صغيرة ضيقة، أم أنَّه أدار لها الظهر، وتوجه بوجهه جانباً، إلى بنيات الطريق، وإلى مهازيل الآراء والأفكار والأحداث؟
- هل زالت آثار كتاب «البؤساء»؟ وهل صار من الضروري كتابة مثله؟
- هل صار «فيبكوس» حالة وعلامة وماركة حضارية مسجلة بألف اعتبار واعتبار؟ أم أنَّ الروتين قد انقضَّ عليه فكرةً وواقعاً مثل الأخطبوط، فصار مجرد موقع عاديٍّ، وكفى؟
- هل غياب المثقف الذي يحمل رسالة الحرية بيد أمينة، ليقول كلمة الحقِّ بلا خوف، هو واقع مشهود؟
- هل فكرة «الجامعة البحثية» ستكون محركاً «لسياق خصب» جديد، في علاقة الباحث ببحثه، وفي علاقة الظاهرة بروح العلم، وفي العلاقة القدرية بين العلم والعمل، بين الجامعة والشارع؟ أم أنها ستثير الاهتمام، ثم قد تولِّد مبنى وتنظيماً لا يغيِّر في ميزان المعنى شيئاً ذا بال؟
- هل فكرة «حلقة الدرس» بهذا الاعتبار، سيكون لها تأثير مناسب على ذاتنا الحضارية؟

أم أنها ستكون مجرد «حدث عابر» يولِّد الإعجاب والحضور الجزئيَّ، دون أن يلج إلى عمق «سؤال الأزمة» الحضاري؟

- هل فكرة «هزارفان» سترتبط بالبعد التاريخيِّ للحركية حفراً وتحليقاً، ثم تغييراً للتصورات والمدرَكات والقناعات، من الانتماء المجرد إلى الانتماء المسدَّد، ببعده الكوني التوحيدي العالمي؟ أم أنها ستؤول إلى «تجمُّع طلابي» طيِّبٍ مثير للنظر، ودافع للتأسِّي والتقليد محليّاً، وكفى؟
- هل فكرة «وسام العالم الجزائري» ستحمل بذور مُصالحة مع الذات الحضارية لجميع الفاعلين في حقول المعرفة الولود، بمقتضى الواجب والمسؤولية وبحكم ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾؟ أم أنها ستتجمَّد حدثاً سنويّاً هاماً، مثيراً لبعض الفضول الإعلاميِّ والطلابيِّ والجماهيريِّ، ثم تُطوى مقاصده مع آخر لوحة تطوى من قاعة الاحتفال؟
- هل قصَدنا الاجتهاد على حقيقته، كما يريده الله تعالى منا؛ أم أننا اتخذناه مجرَّد خطابات وشعارات تنتهي بانتهاء المناسبات والمؤتمرات؟
- هل قطعة الجبن صُنعت لنا، لكي نستقرَّ إلى جوارها، نرتع فيها، ثم ننام ملء جفوننا؟ أم أنَّ الحياة «مكابَدة» بين «المتاهات» ـ أعني متاهات الرواية، لا من التيه طبعاً ـ أم أنَّ هذه الحياة «مكابدةٌ» لا تعرف الكلل ولا الملل، ولا تؤمن بلغة النهاية، ولا بالمحطَّة الأخيرة؟
- هل مَن يحوم حول الفكرة يتبنَّاها بوعي وإدراك متجاوز للاختزال والتنميط والانطباعية؟ أم أنها ستظلُّ رهينة «السياق الملزم» بحجة «ذهان الاستحالة» طوراً، وبمبرر «ذهان السهولة» حيناً؟
- هل نجد جهةً علمية واحدة تجمع تحت قبتها عشرة آلاف باحث من العالم، وتعتصر ما عندهم من علم، وتنتفع بما آتاهم الله من فهم؟ أم أنَّ فكرة «الجماعة العلمية»، و«العقل الجمعيَّ»، ومراكز البحث والتفكير (thinktank) هي أشبه بالحلم منه بالحقيقة في تصوراتنا؟
- هل نرضى بهذا الواقع ونسلم به؟ أم تُرانا نبرره، ونقول ما يقوله الناس: هذا حكم الناس، فكن مع الناس؟ أم عسانا نثور، أو نجور، أو نفور؟

هل وفَّرنا الوقت لقلوبنا حتى تحسَّ نبضات قلب الأمَّة، ولعقولنا حتى تفهم منطق

العصر؟ أم أنَّ التسارع والاشتغال الزمنيَّ والهرولة... كلُّ ذلك أدخلنا في دوامة التبِعات اليومية، فاقدين إرادتنا على أن نقول، وإرادتنا على أن نفعل؟

- هل يتفق اثنان في توصيف الأزمة وتشخيصها، وفي سرد خصائصها ومظاهرها، وفي رسم صورتها، وفي تعيين أسبابها، بلْه أن يتفقوا على نوع المعالجة والدواء الناجع؟
- هل يحقُّ لمجتمع يرزح تحت عبودية الكسل والإخلاد إلى الأرض أن يدعو الناس إلى الاجتهاد الشرعي والحضاري، والأصولي والثقافي؟.
- هل يختلف اثنان أنَّ العالم بشقَّيه الشرقي والغربي يمرُّ بأزمات متوالية، تتصاعد وتتسارع بشكل أسيٍّ، في متتالية رياضية، لا يملك الإنسان لضعفه القدرةَ على أن يراقبها ويدرسها، بلْه أن يجد لها الجواب النهائي الشافي؟
- هل يمكن لإنسان أن يصنع شيئاً (ماكينة، عمارة، آلة...) أو أي شيء آخر، له حرية الاختيار؟
- هل يمكن لإنسان أن ينتج فكرا (معرفة، علماً، إبداعاً، فنّاً...) وهو رهين سياق عقيم؟
- هل يمكن لفرنسي تخرَّج في المدرسة الفرنسية، وقرأ تلك الصورة التي صنعها مثلُ هذا المقرَّر الرسمي، أن لا يكون متعصِّباً ضدَّ الإسلام؟ وهل يمكنه أن يعدَّ المسلمين بشراً مثله تماما، لهم الحقُّ في حياة مماثلة لحياته هو؟ وهل يُنتظر منه أن يُنصف الملايين من المغتربين المسلمين، الذين يرسم فيهم صورة ما قرأ، ويجد من السياسة والإعلام المبررات لترسيخ الصورة السلبية، باعتماد شتى فنون الاختزال، والتهويل، والحيل السينمائية؟
- هل يمكن للوعي أن يولد إذا غابت «شعلةُ السؤال» من الفكر، ومن المدرسة، ومن النماذج الإدراكية للبشر؟
- هل يمكن لمن يفتقد الإرادةَ أن يكون للغتِه (لأحكامه، لخطاباته، لتقريراته...) دلالة تصديقيَّة معتبَرة، أي يكون له إرادة استعمالية، وإرادة جدِّية، مجتمعتان؟
- هل ينتفع «بيكون» بالمنهج العلميِّ المنسوب إليه، وهو لم يهدِه إلى إله المنهج الحقِّ؟
- هل يواتينا الكلام ـ سادتي ـ عن الاجتهاد، إذا كنَّا قُطعاناً من البشر، تصفَّد بأغلال شتى: عقلية، وروحية، واجتماعية، وفكرية، ودينية، ونفسية، وأيديولوجية... وغيرها؟

مسرد القواعد الكلية

- الإسلام تسمية لمنهج أكثر من كونه حلاً جاهزاً
- الإسلام دينُ الحركة، وليس دينَ السكون والجمود
- الإسلام ليس حلاً جاهزاً مثالياً طوباوياً؛ وإنما هو «كبَد ومكابدة»، و«صبر ومصابرة»
- أشياء الحاضر أفكار الماضي
- افتحوا الأبواب حتى لو أغلقت أمامكم.
- إنَّ الله لا ينتِج ولا يشيِّد، إنَّ الله يخلق
- إنَّ الماء لا يسقي الأرض التي تعلوه
- أن تحيى حياةً خيِّرة هو أمرٌ أكثرُ من أيِّ دين وأكثر من أيِّ فلسفة
- إنْ يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً
- الإنسان لا يسبَح في النهر مرَّتين
- إنما يتقبل الله من المتقين
- أول الفكر آخرُ العمل
- إياكم أن تكون لغتكم لغة افتراء.
- تركيز المصباح على جهة ما في الظلام، لا يعني أنْ لا شيء يحدُث في الجهات التي لم يسلَّط عليها الضوء.
- التقوى سلطة على النفس، وسلطة لفعل الخير، وسلطة في دحر الشر، وسلطة لصالح الزمان والمكان...
- ثمرات اليومَ بذور البارحة
- حاجتُنا اليوم إلى صناعة الحياة أوكدُ من حاجتنا لصناعة الموت
- حجوا قبل أن لا تحجوا.
- حرية الإنسان ليست مكوِّناً أرضياً ترابياً (مثل لحمه وعظمه)... حرية الإنسان، هي فوق التراب، وأكثر من الترابي...
- حضارة الأمَّة تدور مع الحرية وجوداً وعدماً.

- الحياة لا تتوقف كثيرا على فهمنا لها.
- حين تنجلي الحقيقة وينكشف الغبار يجب أن تجدوا أنفسكم إلى جوار الحقيقة والحق.
- حين نعلِّم الإنسان التفكير فإننا نحرِّره، وحين نلقِّنه فإننا نضمُّه إلى القطيع.
- حين يموت المنهج أو يمرض تأتي على إثره النتائج ميِّتة مريضة
- الخير في الدنيا لا يتمحَّض، والشرَّ لا يتمحَّض.
- الخير مربوط دائماً بالصفات الإيمانية، والشرُّ معقود أبداً بالصفات الكُفرية.
- الدعاء سؤال، والسؤال دعاء.
- الرضا هو أخصر طريق إلى بلوغ المراد.
- سفوح قلوبنا تربة لبستان أقوالنا وأفعالنا.
- الشرف لصيق بالأخطار، فلا مبرِّر للغفلة.
- شريط أفكارنا وأفعالنا هو الصراط الذي نجتازه لبلوغ مآلنا ومصيرنا.
- الصحة لا تعني الفعالية بالضرورة.
- صلاة الإنسان وخشوع الإنسان عربونٌ عن إيمانه وعمله.
- الصلاة روح كلِّ ثقافة.
- الصلاة ليست عملاً روحيّاً صرفاً، ولا هي عمل ماديٌّ محضٌّ.
- الصلاة ناطق رسميٌّ عن حقيقة الانتماء.
- الصلاة هي شفرة الإسلام.
- صناعة المعرفة، مقدِّمةً لصناعة الفعل الحضاري.
- العاقبة الحسنة سلطة على المصير، وضبط لإيقاع المسير، وتعلُّق بالحكيم الخبير.
- عدم فهم الظاهرة شيءٌ، وكونَ الظاهرة فاقدة لمنطقٍ وحكمة داخلية تسيِّرها» شيءٌ آخر.
- العقيدة والعبودية ضدَّان لا يلتقيان؛ فمن لم يكن موحِّداً لله كان عبداً لغيره
- العلم بالشيء إنما يحصل من جهة العلم بأسبابه ومبادئه.
- العميل إمَّا شخص عديم الولاء، أو هو شخص ذو ولاء مزدوَج.
- الغرب حين فرَّط في (التسليم لله تعالى) افتقد بالضرورة الحرية بمدلولها الكوني الإنساني التوحيدي، وحين ضيع (الحرية) بهذا البعد، ضاع منه (الاجتهاد) في أوسع معانيه فإن تركوه هلك وهلكوا، وإن أخذوا بيده نجا ونجوا.

- فشلُك في النظر إلى المسائل من خلال نظرة كلّية، سوف يؤدّي إلى الإفراط أو التفريط.
- فِكر المرء وفعل المرء فاضحٌ لصلاته.
- في كلِّ دين نفَسٌ من العلم، وفي كلِّ علم روح من الدين؛ ويبقى الإسلام هو الصورة المركَّبة الوسط التي لا هي بالدين الصرف المعرِض عن العلم، ولا هو بالعلم البحت المتنكِّر للدين.
- القبول رهين بالتقوى.
- كلُّ جبنٍ معرَّض للتعفُّن لا محالة، إن عاجلاً أم آجلاً.
- كلُّ خلُقٍ حميد له جذور في الدين.
- كلُّ خلق مرجعه ديانة ووحي
- كلُّ شيء يحطُّ من كرامة الإنسان، ومن شخصيته، هو لا إنسانيٌّ بامتياز.
- كلّاً نمدُّ، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً.
- لا تتركوا أي كلمة أو فعل ستندمون عليه اليوم أو غداً.
- لا تزر وازرة وزر أخرى.
- لا تنسوا أن التوتر عابر سيمضي.
- لا تنسوا أن الجدل والجدال القولي والرد الكلامي لا يتوافق مع مرضاة الله تعالى.
- لا يتمحَّض الخير إلَّا إذا ارتبط بالمآل.
- لا يكون شيء من الله إلَّا وهو خير لصاحبه.
- لا يوجد في الواقع دينٌ خالص، ولا علمٌ خالص.
- لا يوجد في قلوبنا كراهية لأحد.
- ليس كل تعبد مثمراً للخلُق الحسن بالضرورة.
- ليس للمسلم حسابات خاصة أبداً.
- ليست الصلاة مجرد تعبير عن موقف الإسلام من العالم، وإنما هي أيضاً انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم.
- ليست الكرامةُ أن نمشي على الماء، أو نحلِّق في الهواء؛ وإنما الكرامة أن نثبت على الاستقامة.
- لئن شكرتم لأزيدنَّكم.
- ما نحن فيه هو مرآةٌ لما نحن عليه.

- مدرسة جيدة = مجتمع سليم.
- مدرسة سيئة = مجتمع سقيم.
- المرء ابن وعائه الحضاري.
- المسلم الحقُّ خلية نشاط وعمل وإنتاج وعطاء يجعل حياته في خدمة الآخرين.
- مسلوب الإرادة مسلوب اللغة بالضرورة.
- مشكلة الشرق ـ أو العالم الإسلامي بالأحرى ـ أنه حين ضيَّع (الاجتهاد)، ضاعت بالضرورة (الحرية) من واقعه الفكري والثقافي والديني والحضاري، وحين ضيع (الحرية) ضاعت بالضرورة حقيقة (تسليمه لله تعالى).
- المعرفة تصنع الواقع، والواقع يغذِّي المعرفة.
- المعطى الكوني ضرورةٌ حضارية.
- من رضي بقدَري أرضيته على قدْري.
- من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلَّا بعداً.
- من لم يسجد للذي وهبه الحرية خنع لمن يسلب منه إنسانيته.
- مُنتهى العلم معرفةُ السبب الأوَّل (الخالِق).
- المنهج هو محلُّ الاجتهاد، ومحلُّ إعمال العقل.
- الموت نهاية أولى لكلِّ إنسان.
- نحن ثمرةٌ ونتيجةٌ وأثرٌ لحركة مَن سبقنا.
- نوايانا وقودٌ ونقطة ارتكاز لتوجهاتنا الفكرية والفعلية.
- هناك عقوبات إنسانيةٌ، وعفو هو أكثر شيء لاإنسانيةً.
- والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإنَّ الله لمع المحسنين

  وتلك الأيام نداولها بين الناس.
- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم.
- ولقد خلقنا الإنسان في كبدٍ.
- يجب أن يخلص المسلم للكتاب والسنة في كل الظروف.
- يمكن أن نبني الإسلام بأكمله من خلال التأمُّل في الصلاة.
- يوجد معتنقون للدين على غير أخلاق، ولكن لا توجد أخلاق منفصلة تماماً عن فكرة الإله والخلود.